الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة–

كلية الآداب والحضارة الإسلامية
قسم اللغة العربية

الرقم التسلسلي: .....

رقم التسجيل: .....

آليات التواصل في الخطاب الوعظي القرآني وأغراضه التداولية

سورة لقمان، الأحزاب غافر، نوح نموذجا

دراسة دلالية لغوية

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم

في اللغة ودراسات قرآنية

إعداد الطالبة
فاطمة الزهراء بوربونة

إشراف الأستاذ الدكتور
سامي عبد الله الكيناني

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الرئيسية	الصفة
أ.د.ذهبية بوريس	أستاذة	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسا
أ.د.سامي عبد الله الكيناني	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر	مشرفا
أ.د.زين الدين بن موسى	أستاذ محاضر	جامعة منتوري	عضوا
أ.د.ناصر بن طناش	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا
أ.د.أحمد كامش	أستاذ محاضر	جامعة منتوري	عضوا
أ.د.إدريس حمروش	أستاذ	المدرسة العليا للأساتذة	عضوا

السنة الجامعية 1436–1437هـ / 2015–2016م

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يعد الخطاب القرآني أرقى الخطابات وجودا وفعلا، ذلك أنه الخطاب الوحيد الذي استطاع أن ينزل إلى الواقع مؤثرا فيه ومطورا له باعتماده على الحدث اللغوي. فكان من نتاج هذا التطور هو ظهور علوم جديدة كانت قد انصهرت وتفاعلت معه، فنتج ما يسمى بالظاهرة الكلامية التي تتجلى فيها أكثر عملية التواصل المشروطة لتحققها وجود مخاطب ومخاطب وظروف تخاطب.

وبما أن القرآن الكريم قد نزل للناس جميعا لهدايتهم إلى الطريق المستقيم فهو التواصل بعينه.هذا وقد تعددت خطاباته المنزلة بحسب الظروف والمناسبات وبحسب الفئات والحالات، فكان من بين أهم الخطابات الموجهة لهؤلاء على اختلافهم: خطاب الوعظ والإرشاد الذي اخترناه هنا نموذجا لتحليله والوقوف عند أسراره، لإبراز جماليات هذا الأسلوب المخاطب به، كونه من أهم أغراض هذا الخطاب، كما أنه الغالب في الآيات والسور.

وعليه فإن الدافع لاختيارنا لهذا الموضوع الموسوم بـ"**آليات التواصل في الخطاب الوعظي القرآني وأغراضه التداولية**" هي كثيرة ومتعددة قد نقف عند أبرزها منها:

1-التعرف على آليات هذا التواصل بالذات، باعتباره هدفا من أهداف نزول القرآن الكريم، والوقوف عند الجوانب التي قلت الدراسة فيه من الناحية التداولية، فنحاول إيجاد قوانين استعمال اللغة، ونتعرف على القدرات التواصلية المستخدمة للتعبير عن أحوال ومقامات الأطراف المشاركة في هذه القدرات، ابتداء من النماذج العليا المثالية وهم الأنبياء، مرورا بأقوامهم على اختلاف مللهم ونحلهم ثم على مستوى جماعة بعينها إلى جماعات غير محددة حتى نصل إلى مستوى الفرد الواحد وهكذا.

2-تعد دراسة الخطاب القرآني من الوجهة التداولية التي اعتنى بها المحدثون، جانبا هاما من جوانب الدراسات اللغوية واللسانية. وقد التف حولها الباحثون وأولوها عناية خاصة، إلا أن الدراسات التطبيقية في مثل هذه السور، والتي يبرز فيها الوعظ والإرشاد والنصح، بدت قليلة في هذا المجال، وذلك لأسباب منها: الحذر من الوقوع في الانحراف والخطأ في فهم مراد الله فهما دقيقا قد يبعده عن الصواب والحقيقة والخوف من إخضاع الآيات لمنهج غربي حديث، فكان الدافع هنا قويا لولوجنا في هذا المجال بالخوض في دراسة هذا المنهج وتطبيقه على النص المقدس دون الخروج عما جادت به قريحة علمائنا القدامى من دراسات قرآنية متباينة كالتفسير وعلوم القرآن والحديث، وعلوم اللغة والبلاغة، وعلوم الخطاب وتحليله.... إذ وقع اختيارنا على سور بعينها، وهي سور تجسد مقامات

الوعظ، وتفصح وتبين عن أهدافه وأغراضه، كسورة"لقمان"، "الأحزاب"، "غافر"، و"نوح".

ولهذا فقد أردنا أن نجيب عن بعض الإشكالات منها:

1-هل ثمة أفعال كلامية لسانية تدرج في الوعظ، فنقول: هل أفعال الوعظ هي أفعال كلامية أم لا؟ بمعنى آخر، هل هذه الأفعال ترقى إلى مستوى الاستعمال ومن ثمة نستطيع دراستها دراسة تداولية؟

2- هل يمكننا تفعيل خطاب الوعظ الذي كان مفهومه مقتصرا على تلك الحالة من الوعظ والإرشاد والنصح إلى آليات بحثه في دائرة هذا الخطاب، والكشف عنه وإظهار أبرز الأفعال التي أدت دورها في مجال الاستعمال الحقيقي في واقعها، وبالتالي تحقيق التواصل المنشود في هذه السور خاصة أم لا؟

3- هل أثرت هذه الأفعال القيمية في تشكيل النص، وخرجت به من المعنى الحقيقي إلى معاني ثانية كانت خفية قبل هذا ؟

فكان من أهداف البحث، أنه أراد أن يبرز طرق الوصل إلى المعنى في القرآن الكريم (في هذه السور بعينها)، من خلال تحليل المكونات الرئيسية التي تشكلها الأنساق اللغوية في محورها الآني، وربطها بالسياق الناسب لها بمراعاة أحوال المتكلم، أحوال المستمع، الظروف الإجتماعية، ومراعاة نقطة الاشتراك بين المخاطب والمخاطب.

كما ركزت الدراسة في البحث في علاقة الخطاب القرآني ببيئته التي نزل فيها، بدراسة الملابسات المحيطة بعادات العرب وحياتهم الاجتماعية والتاريخية والثقافية، من قرآن مكي وأغراضه إلى قرآن مدني وسماته.

وفي الأخير حاولنا الوقوف عند مختلف الأفعال المذكورة في هذه السور(من أفعال نصح وإرشاد)مع محاولة ربطها بعلم المعاني تحت اسم الخبر والإنشاء عند القدامى، واستخراج الدلالات والمعاني منها..

أما عن المنهج المعتمد هنا، فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي يخدم مثل هذا المنحى من وصف وتحليل للظاهرة الوعظية وأحوالها في خطاب القرآن، دون أن ننسى التتبع التاريخي لأخبار صانعي الأحداث في السورة الواحدة، بل في الآية الواحدة.

وعليه فقد سارت الخطة معنا كالآتي: مقدمة ومدخل وثلاثة فصول، كان منها الفصل الأول نظريا والفصلان الأخيران تطبيقيين، وخاتمة.

أما المدخل ففيه حديث عن التواصل ونشأته عند القدامى، باعتباره لا يتحقق بمعزل عن تحليل الخطاب المرتبط عندهم بالإبلاغ وبالعملية الإبلاغية، ومن ثم التأثيرية ضمن دائرة الباث والمتلقي، وبعناصر فاعلة كالزمان والمكان والرسالة وفحوى الخطاب، ولعلها العناصر التي تتعالق مع مفاهيم البلاغة والخطاب وعلم اللغة، والحديث موصول بدراسة نشأة التواصل عند المحدثين بتسمياته المختلفة.

ثم الفصل الأول: الذي ركز على دراسات السابقين لمبحث الخطاب وتعريفاته وخصائصه ومميزاته، خاصة الخطاب القرآني، إضافة إلى مبحث: مستويات التقبل من طرف العرب لهذا الخطاب من نواحي كثيرة، كالناحية اللغوية والجمالية والفنية، وإفراد المبحث الثالث: بحديثه عن الخطاب الوعظي خاصة، من خلال مميزاته، وورود الآيات التي تبحث فيه، مع دراسة التداولية ونشأتها وعلاقتها بهذا الخطاب.

أما الفصلان الثاني والثالث فهما مخصصان لدراسة خطاب الوعظ الموجودة في السور الأربعة، فكان الفصل الأول منهما بعنوان "آليات التواصل في خطاب لقمان والأحزاب" بتقسيمه إلى أربعة مباحث في كل مبحث منها دراسة تطبيقية لمختلف الآليات التواصلية الموجودة فيها. فمثلا : سورة لقمان بدأنا بدراسة ألفاظ العبادات فيها، ثم ألفاظ المعاملات كالصبر وطاعة الوالدين والتواضع ..ثم وقفنا لدراسة مختلف الآليات المستخدمة في السورة كالآليات اللغوية من استعمال النداء والحذف والتكرار والتقديم والتأخير، ووظيفة كل واحدة منها من الناحية التداولية، إضافة إلى الآليات الغير لغوية، إلى آليات السياق (من علاقة الآيات فيما بينها داخليا وخارجيا) وهكذا فعلنا مع كل سورة على حدة، من خلال الفصل الثاني بعنوان "آليات التواصل في خطاب غافر ونوح".

ثم خاتمة البحث التي جمعت خلاصة نتائج الفصول والمباحث، مع ثبت للمراجع والمصادر موصولا بفهرس الموضوعات.

وفي أثناء البحث، استفدنا من أهم هذه المصادر والمراجع التي تتكلم عن هذا الموضوع، إذ كانت خير معين لنا لتسهيل الطريق، وتوضيح المبهم والغامض، منها: كتب التفسير القديمة والحديثة، كتفسير الطاهر بن عاشور الذي كان مرجعيتنا المهمة في تخريجاته اللغوية والبلاغية، وتفسير

الشعراوي الذي أجاد فعلا في هذا المجال، إضافة إلى ما جادت به قريحة "تمام حسان" حين وضع يده على أهم القضايا المطروحة في دراسة المعاني الدقيقة في سور القرآن، فكان منها كتاب" خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم"، وكتاب "مقالات في اللغة والأدب"، وكتاب "مفاهيم ومواقف في دراسة اللغة والقرآن "وغيرها.

كما لا ننسى كتب التفسير الأخرى منها: تفسير النسفي، والقرطبي، وابن كثير، وسيد قطب والطاهر بن عاشور و غيرهم كثير....ولعلها قد تشعبث وتنوعت في طرق تفسيرها .

ومن كتب تحليل الخطاب التي اعتمدها البحث، كتاب "الخطاب القرآني" لخلود العموش و"استراتيجيات الخطاب" للشهيري ولعلها تبحث في آليات الخطاب وأدواته المنشئة له، دون استغنائه عن المتكلم والمستمع، مع الاستفادة من المقام وشروطه وأهمية دراسة الظروف التي تحيط بالنصوص القرآنية لفهم المغزى من الحادثة التي بين أيدينا، خاصة "غزوة الأحزاب" التي أولى الدارسون بها خير عناية وتركيز لما فيها من أحداث متشعبة وكثيرة، فكان من اللازم على هؤلاء رصد التطورات التي حدثت فيها، لأخذ العبرة والعظة..إضافة إلى عنايتهم بدراسة تماسك النص وانسجامه مع الآيات في السور المكية فهذا إبراهيم صبحي الفقي في كتابه "علم اللغة النصي" يحاول تطبيق هذا التماسك على هذه السور وبالتحديد على سورة "نوح"، حين أحصى وحداتها اللغوية التي لعبت دورا هاما في إحداث التأثير للمتلقي من خلال الظاهر اللغوية الفعالة، كظاهرة التكرار والحذف والتقديم والتأخير وغيرها. هذا وإن لكتب الحجاج والمقالات التي تهتم بهذا المجال دورا آخر في تحقيق المضامين وتوضيح المفاهيم، حيث أفادتنا مثل هذه الكتب، منها:كتاب "الحجاج في القرآن" لعبد الله صولة، في إبرازه لآليات هذا الأسلوب، خاصة وأن مضامين الآيات التي جاءت في شكل وعظ وإرشاد ما هي إلا حوارات دارت بين الأنبياء وأقوامهم، ومن المعروف أن أسلوب الحوار يحتاج إلى المحاجة المقرونة بالإقناع، مع الإتيان بالبرهان والحجج المنطقية الضرورية لإثبات وحدانية الله تعالى، وإثبات إرساله الرسل للناس كافة ولعل أطروحة الباحث "بلقاسم حمام" المعنونة بـ "آليات التواصل في الخطاب القرآني "قد كشفت الغطاء عن أهم الآليات المعتمدة في دراسة هذا التواصل، فكان منها نوعان هما: آليات التواصل العامة، وآليات التواصل الخاصة، وقد استفدنا من هذه الدراسة، من خلال سرده وشرحه لهذه الآليات، فنجده قد تحدث عن دعوة القرآن الفرد إلى التفكير، ودعوة الجماعات إلى التعارف والتحاور، وتسجيل ذلك في الأمم السابقة، مع مراعاة

السامع أثناء الكلام، ثم تحدث عن آلية الشفوية والقول وأهميتها، ثم انتقل إلى الآليات الخاصة التي حددها بالفعل الإنجازي المتمثل في الأوامر والنواهي التي يغلب عليها طابع التوجيه والإلزام، مع الآليات الأخرى التي تزخر بها الآيات من حذف والتفات وتكرار...وقد درسها من باب الإعجاز، بلمسه تداولية ارتبطت بأفعال الكلام التي لا تخرج عن دائرة الرسالة والمرسل والمرسل إليه، دون أن ننسى المقام الذي أولى به عناية، لما له من علاقة وطيدة بالخطاب القرآني، سواء كانت علاقاته داخلية أم خارجية، مع الاستفادة من مبحث الناسخ والمنسوخ والمصالح المرسلة، والسياق الاجتماعي الذي يعرف بالعرف.

إضافة إلى كتب أخرى في مجالات أخرى، كالتي تبحث في الحركات الجسمية وتلك التي تهتم بالدراسات النفسية والانفعالات... وغيرها كثير لمن أراد أن يستفيد منها.

و لا يخلو البحث من استفادته الجمة من الكتب التي تبحث في التداولية، ذلك أن الكلام لا يفهم إلا أثناء الاستعمال، فقد حاولنا تطبيق بعض ما جاء به علماء الغرب من نظريات في هذا المجال، على السور التي أخذناها نماذج حية على مدى فعاليتها في الواقع الذي نزلت فيه أو في واقعنا الحالي، فهو الخطاب الإلهي الموجه لكل زمان ومكان ..إلا أن ثمة صعوبات اعترضت بحثنا هذا، باعتبار أن القرآن لا يفهم خارج سياقه العام، فكانت الصعوبة هنا في الإلمام بمناسبات النزول للآيات في السورة الواحدة وعلاقة كل منها بأخرى تليها وهكذا..فكان على الدارس للخطاب القرآني أن يراعي دائما الآيات القرآنية التي واكبت الأحداث والوقائع، وبالتالي مراعاة زمن الخطاب وأطرافه، وسياق التخاطب وأحوال المخاطبين هذا وإن الصعوبة الأخرى التي واجهتنا هي الحذر أو الخوف من الوقوع في مزالق ومتاهات قد تخرجنا عن فهم النص فهما صحيحا كما أراده الشارع، وخاصة عند إخضاعه للدراسة التداولية التي تحتاج إلى تطبيق بعض النظريات الغربية، كنظرية أفعال الكلام ونظرية الملاءمة ....على الرغم من حرصنا الشديد لعدم الخروج عن فهم سلفنا لهذا الخطاب، فهم مرجعيتنا في الاستفادة من دراساتهم خاصة تلك المتعلقة بأسباب النزول ومناسباته، والظروف المحيطة بالتنزيل من علاقة الآيات فيما بينها، من داخلية و خارجية، فكانت الصعوبة الأخرى في تقييد المواضيع المحيطة بالبحث، لتشعبه وأخذه مناحي كثيرة في التحليل والاستنباط .

ولأنه لا يمكننا الادعاء بأننا وفينا موضوع البحث بالعناية والاهتمام، ذلك أن الانشغال بمجال الدراسة في القرآن يحتاج دائما إلى جهود جبارة تعيد قراءته قراءة حصيفة، إلا أنها تعد خطوة

أولى تحاول الكشف عن مواطن الإعجاز وجماليات النص القرآني بنظرة تداولية حديثة.

وفي الختام لا يسعني سوى أن أشكر الله تعالى –أولا–على منه وتفضله علي ببركة الجهد والتوفيق والتسديد، ثم الشكر الموصول والثناء المتواتر لكل من كان له إسهام في إثراء هذا البحث سواء من قريب أو بعيد، ولئن كنت أخص بالشكر والتقدير فإنني أوجهه لأستاذي الدكتور" سامي الكناني" الذي أشرف على هذا العمل، وعلى حسن رعايته له منذ كان فكرة إلى أن صار مشروعا للقراءة.

فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ أو نسيان فمن نفسي ومن الشيطان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مدخل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التواصل عند القدماء:

شهدت الدراسات القديمة ظهورا بارزا لعلوم لغوية وأخرى أدبية، كانت قد انصهرت في بوتقة استعمال وممارسة العرب للشعر والخطابة منذ العصر الجاهلي إلى نزول القرآن الكريم، فكان منها دراسة للبلاغة والنقد والشعر والعروض ..التي مهدت لظهور مصطلحات علمية متخصصة لكل مجال.

وإذا ما أخذنا مصطلح "التواصل" كحقل من حقول اللسانيات، فإننا لانجد له ولادة عند القدامى سوى ما كان من تحليل لظواهر كلامية موصوف بها القرآن والحديث وكلام العرب، كالمجاز والبديع الاستعارة والكناية ...منهم الفراء(ت206هـ) في كتابه "معاني القرآن «و أبو عبيدة (ت 210هـ) صاحب كتاب "مجاز القرآن"(*) الذي يتحدث عنه قاصدا به "الوضع اللغوي.... الذي هو طريق للوصول إلى فهم المعاني القرآنية "[1]، و قريبا من هذا المفهوم، ما جاء به ابن قتيبة(ت276هـ) في كتابه: "تأويل مشكل القرآن" إذ يقول:« وللعرب المجازات في الكلام ومعناها: طرق القول ومآخذه ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير.... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة... فالعجم لم تتسع في مجاز اتساع العرب»[2] كونها هي البلاغة بحد ذاتها، وهي العرف الذي يجري به مدار الكلام بواسطة الألفاظ.

هذا وقد أرجع سر التفاوت الموجود بين مستويات الكلام إلى «تعدد طرق القول اعتمادا على هذه المجازات، التي تعد-بحق- أدوات تحقيق أدبية، كما تعد المهارة في التصرف فيها سبيل التفاوت بين بناءأدبي وآخر»[3].

والملاحظ هنا أن "فهم المجاز على هذا النحو كان سائدا منذ القرن الثاني للهجرة، تحت اسم "البيان"، ارتبط بالقرآن نفسه، وبتعليمه وتقويم اللسان من خلاله، حيث جاءت آيات كثيرة

(*)-أبوعبيدة معمر بن المثنى،مجاز القرآن،ت: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي،القاهرة، ج1، ص16-19.

(1)_بدوي طبانة، البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط6، 1976، ص29.

(2)_أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن،ت: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، ص20-21.

(3)_ المصدر نفسه، ص56.

تمدحه وتأمر به كقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾[الرحمن 3-4]

وقوله: ﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٨ ﴾[آل عمران: 138] ليكون جسرا يتواصل به كل البشر، وجانبا هاما من جوانب تبليغه من الرسل إلى الناس كافة، وذلك لهدايتهم إلى طريق الله المستقيم.

ولعله البيان الذي ذكره الجاحظ(ت255هـ) في كتابه بقوله: «...لأن مدار الأمر على البيان والتبين، وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد. كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد .المفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل إلا أن المفهم أفضل من المتفهم، وكذلك المعلم والمتعلم »[1].

ثم إن حديث ثعلب (ت 291هـ)من خلال شرحه لقواعد الأدب والشعر، نبهنا إلى أمور أربعة تعد من صميم هذا العلم، وهي أمر ونهي وخبر واستخبار... وهي تدخل، ضمن "علم التداولية الحديثة" والتي تبحث عن الخبر والإنشاء. وليس بعيدا عن تسمية البيان لكل ماهو حسن وفصيح من كلام وإشارة بتسمية "البديع" كمصطلح وضعه ابن المعتز(*) (ت296هـ)في عنوان كتابه الذي جمع فيه ثمانية عشر نوعا من أنواع البديع، كالاستعارة والتجنيس، والالتفات، الاعتراض، الرجوع، حسن التضمين، التعريض وغيرها.

كما عرف الرماني (ت386هـ) البلاغة التي ارتبطت عنده –كذلك– بالتواصل في كتابه: "النكت في إعجاز القرآن"بقوله :«هي إيصال المعنى في أحسن صورة من اللفظ»[2] "، فاشترط بذلك حسن البيان والإيضاح المنبثق منه حسن الإحضار بما يظهر به تميز الشيء من غيره في الإدراك وهو أربعة أقسام :كلام وحال وإشارة وعلامة، وكلها عناصر لا يحسن القول ولا التلفظ إلا بها، كونها تحقق شروط التواصل انطلاقا من تركيز علماء اللغة على دراسة الكلمة أولا ثم الكلام، ومدى تأثيره على المقام الذي يتشكل بعنصرين هامين هما المتلقي والباث

ومن الطريف أن يضع ابن جني (ت392هـ) كتابه الخصائص ليبدع في جمعه لشتات اللغة

---

[1]_ الجاحظ، البيان والتبيين، ت:عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7(1998)،ص 11.

[*] –نقلا عن أحمد حسن المراغي، في البلاغة العربية (علم البديع)،دار العلوم العربية، بيروت، ط1(1991)، ص11-12.

[2]_أبو الحسن الرماني، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، دار المعارف،مصر،ص98.

العربية من مصادرها الأصلية مركزا على وظيفتها من باب التذكير بقداستها وعراقتها.

ولابن جني بابا سماه :"باب القول على الفصل بين الكلام والقول." [1]يقدم فيه فروقا بينهما.

فالكلام لفظه يستقل بمعناه، وهو مفيد دائما عند النحويين، أما القول فهو إما مفيد أو غير مفيد، إذ قد يكون تاما أو ناقصا، وفي هذا يقول:«ومن أدل الدليل على الفرق بينهما، إجماع الناس على أن يقول القرآن قول الله ذلك أن هذا موضع ضيق متحجر»[2].

لينتقل بعد ذلك في تعريفه للغة بقوله:«..أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[3]والتعبير عن الأغراض ما هو إلا تحديد لوظيفة اللغة التي نتواصل بها.

وفي حديثنا عن موضوعات فنون البديع وروائع الكلام المنقول من الأدب والشعر والمتضمن معاني الخبر والاستفهام، الأمر والنهي، حديث عن أبي هلال العسكري(*) (ت395هـ) الذي أفرد له بابا كاملا في كتابه"الصناعتين "ليشرح فيه مصطلح البيان من استعارة ومجاز وكناية مقسما إياه إلى خمسة وثلاثين فصلا لكنه "ركز على هذه الموضوعات واستدرك منها أربعة أنواع هي :المشتق، حسن الرد، التخييل، الخبر، والوصف في صورة الاستفهام ..."

وما يضاف إلى هذا، أن معظمهم تحدث عن أرقى الصناعات الكلامية التي لا توجد إلا في القرآن الكريم منهم الباقلاني (ت403هـ)، ابن وهب(ت466هـ)، وابن أبي الأصبع (ت654هـ) "ذلك أن ورودها في صورة أبهى وآنق قد يكون من وسائل الاحتجاج في إثبات تفوقه على كلام البشر "[4].

مركزين –دائما – على ما يسمى بالبيان الذي يوجد في الكلمة وفي العبارة بواسطة اللسان والبيان هو ما يقصد به التواصل عند المحدثين، كما جاء عن نصر حامد أبو زيد قوله:«البيان أم الإنباءهو القدرة على التواصل بهدف نقل الخبرة والمعرفة من جيل إلى جيل داخل المجتمع الواحد،

---

[1] _ ابن جني، الخصائص، ت:محمد علي النجار،عالم الكتب،ص 48.

[2] _ المصدر السابق، ص48.

[3] _ المصدر نفسه، ص68.

[*] _انظر :أبو هلال العسكري،الصناعتين،ط مصر 1952، ص 204.

[4] _ جميل عبد المجيد،البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص17.

أومن مجتمع إلى مجتمع »[1].

كما تواصلت أفكار العلماء في مجال الأدب والشعر والبلاغة، حتى اختلطت هذه الأبحاث بمسائل النقد الأدبي في كثير منها، باختلاف المناهج وتعددها منهم :قدامة بن جعفر(ت337هـ) في كتابه "نقد الشعر"، والآمدي(ت371هـ) في "الموازنة بين أبي تمام والبحتري" وابن سنان الخفاجي(ت386هـ)في "سر الفصاحة" والقاضي الجرجاني (ت415هـ) في "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، ابن رشق القيرواني(ت463هـ)في كتابه" العمدة "وابن طباطبا (ت478هـ) في "عيار الشعر"، وقد التفوا حول دراسة محاسن القول وفنونه وقوفا على دراسة اللفظ وائتلافه بالمعنى ومخارج الحروف وعلاقتها بالفصاحة، فكان من أهم تعريفات الصناعة الكلامية المرتبطة بجودة القول"أنها ملكة نفسانية تصدر عنها الأفعال الاختيارية من غير روية، حتى قيل هي العلم المتعلق بكيفية العمل"[2].

أما عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) وهو الذي جاء بفكرة النظم فإنه «يضع حدودا نقدية لتعرف اللفظ وبيان معناه من ناحية العلاقة الحميمية التي تربط بينهما، فوجوب ائتلاف الكلمة المفردة في تركيب معين حتى تصير إلى الصورة التي تفيد بها الكلام غرضا من أغراضه في الإخبار والأمر والنهي والاستخبار والتعجب، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة وليس بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون إحداهما أدل على معناها الذي وضعت له من الأخرى» [3] فيكون بذلك قد ميز بين نظم الحروف التي تتوالى في النطق مع نظم الكلام الذي تظهرآثاره في المعاني المرتبة في النفس، يقول عبد القاهر الجرجاني :«..لا نظم في الكلم ولا رتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب تلك، وهذا مالا يجهله أحد ولا يخفى على أحد من الناس ...» [4]

---

[1] _ بدوي طبانة،مرجع سابق، ص111.(الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع في تحرير التحبير، ابن وهب في البرهان في وجوه البيان) .

[2] _ بدوي طبانة، المرجع السابق، ص156.

[3] _المرجع نفسه، ص156(انظر عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت:محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط97،ص56-57.

[4] _المصدر السابق، ص59.

وبعد، فإننا نستطيع القول هنا أن الذين جاؤوا بعد عبد القاهر الجرجاني قد لخصوا زبدة المعارف المختلفة إن بالشرح والتحليل، أو بعرض الفكرة بصورة بسيطة، كما نجد هذا عند السكاكي (ت626هـ) في كتابه "مفتاح العلوم"، وابن الأثير(ت637هـ)، العلوي ت(749هـ) في كتابه الطراز في "المثل السائر"، وغيرهم كثير ممن كانت أفكارهم تحتضن مواضيع البلاغة القديمة، وتستوعبها لتضعها في قالب واحد، هو تفسير الكلام المنظوم بأسلوب جميل يستميل قلوب وأسماع الآخرين، بواسطة اللغة بعدها ضمن أدوات التواصل الأساسية.

إضافة إلى أن تحقيق أغراضها قد كان مرتبطا بفكرة المقام الذي يناسب المقال "برؤية علمية قد تكون في غاية الدقة لتوضيح طبيعة وجوهر العملية الإبلاغية التي يراعى فيها الشروط الذاتية المتصف بها الخطاب وصاحبه، وتلك إشارة هامة إلى وجوب التوفيق عند المتكلم بين خطابه ومقام المستمع المتلقي"[1]لما للكلمة من تأثير فعلي على أي مقام تقع فيه .

ولأهميتها في مجال اللغة، وضع ابن خلدون (ت 808هـ) مصطلحا آخر لدراسة اللغة العربية تحت اسم "اللسان العربي" وعده ملكة فطرية تتميز بها أمة العرب بقوله «اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان... وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد»(2).

ولأنها تعد من أهم الشروط المحققة لعملية التواصل، فإن مفهومها يناسب ما قرره علم التداولية في معناها القديم باعتبارها ضربا من الكلام الذي استخدم تحت اسم "الخبر والذي شرطه "القصد"، وفي هذا كما جاء عن أبي حامد الغزالي (ت505هـ) قوله«يصير الخبر خبرا بقصد القاصد إلى التعبير عما في النفس"[2]، فيميز هذا "المعيار بين الكلام المنجز فعلا وبين حديث النفس»(4)

وفي كل لحظة من لحظات استعمال اللغة " قصد لفائدة معينة طبقا لسنن المواضعة العامة في جهازها، مع تكريس مظهر من مظاهرها العملية في الممارسة"[3]. خاصة إذا ربطت بإرادة المتكلمين "فالقصودات أمور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضا، وتلك

---

[1] _ منقور عبد الجليل،علم الدلالة (أصوله ومباحثه في التراث العربي)، دار الكتاب العربي الحديث، ا(2010،ص21

[2] _ عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية،الدارالعربية للكتاب، صط2(1989)،ص146.

[3] _خليفة بوجادي،المرجع السابق، ص170.

التصورات هي أسباب قصد الفعل"(2)

وخلاصة القول فإن العرب قديما ركزوا على الخطاب الشفوي، واعتبروه الأساس والمنطلق لدراسة كل ما هو لغوي لساني دون تحديد خاص لما يسمى بالتواصل، باعتباره ملكة لسانية وحاجة اجتماعية ملحة، القصد منه الإفادة، خاصة إذا طابق المقال مقتضى الحال، وإن كانت تسمية التواصل تندرج ضمن مصطلحات الإبلاغ، التبليغ، والعملية التبليغية ....

التواصل عند الغربيين:

توجه علماء اللغة المحدثين، إلى أن مفهوم التواصل ينحصر في ذلك التبادل الفعال بين مرسل ومرسل إليه، من خلال ما قدمه هؤلاء أثناء تفسيرهم لدورة الخطاب كما جاءت عند دى سوسير ودورة التواصل حسب جاكبسون، وذلك بوصفهم للشرط الأنجع لهذه العلمية، ألا وهو اشتراك كلا الطرفين في موضوع التواصل.

هذا وقد تعددت مصطلحاته في المعجم، بتعدد المادة الأصلية من "تواصل "، "إيصال" اتصال، وصل، إبلاغ، إخبار (تخاطب) أو مخاطبة فما جاء به طه عبد الرحمن أنه «ميز بين الفئة الأولى ذات الجذر المشترك، حيث جعل التواصل، مقولة كبرى تشمل الوصل الذي هو نقل الخبر، مع اعتبار المخبر، والاتصال الذي هو نقل الخبر مع اعتبار المخبر والمخبر إليه معا»[1]. وبما أنه « إخبار برسالة معينة تحمل معلومة أو أكثر، فإنه غالبا ما يستعمل التواصل بغرض الإبلاغ، ولهذا فإن القاموس عندما يحدد كلمة "يتصل" يجعلها تدل على نقل الأخبار والمعلومات والمشاعر والسلوكات والتصرفات... حتى إذا لم يكن هناك إبلاغ فلا يمكن القول بانعدام المعنى أو الدلالة في التواصل، فرسالة تهدف إلى إقامته هي رسالة دالة بفضل سننها اللغوي...» [2].

المعجم التاريخي للسان الفرنسي Le Robert وهي كلمة commumication آخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر من المشتق اللاتيني communicatio ويعني اشتراك في شيء، تبادل، قول، إبلاغ، ودخلت الفرنسية بمعنى عام هو طريقة الكون معا واعتبرت منذ

---

(1)_عمر أوكان، اللغة والخطاب إفريقيا الشرق، ط(2001)، ص35.

(2)_المرجع نفسه، ص 36.

الفرنسية القديمة طريقة مفضلة في العلاقات الاجتماعية»[1]، التي هي أصل في التفاهم وتبادل الآراء والأفكار وبناء المعارف ووضع القيم والأخلاق.

وعليه فإن آراء الغربيين تتضارب أحيانا، وتتقاطع أحيان أخرى، وذلك بحسب التوجه والاختصاص«فمن وجهة هابرماس الاجتماعية الفلسفية ينبغي أن تندرج النظرية في اللغة في نظرية في العمل، وهي نظرية يسميها "الفعل التواصلي"، وما تتصف به هذه هو أن كل عمل محدد الغاية، يكون بقدر ما تعتمده الأطراف الاجتماعية من استراتيجيات ناجعة ومعقلنة لتحقيق الإجماع»[2].

« ويرى امبرطو إيكو أن كل فعل تواصلي موجه إلى كائنات إنسانية أو متحقق بينها، يفترض نسق دلالة (خطاب) كشرط ضروري له، على أنه من المعلوم أن كل سلوك يوجد داخل، ثقافته معطاة في شكل متواليات (خطابية) أو تجمعات من الوحدات الثابتة والتعاقدية، ماهي إلا وحدات ذات معنى»[3]. وهي مرتبطة بالثقافة التي تحدد السلوك البشري باعتباره تواصلا آخر من تواصلات الإنسان مع أخيه الإنسان، كما يرى فرانز بواس.ثم إن السلوك هو الوحيد الذي يستطيع فعلا أن يحدد نمط التواصل ويحقق بذلك شروطه التي تكون إما سلبا أو إيجابا أوموافقة وإن هذه المقولات مجتمعة، قد خصصت لكل أسلوب من أساليب الكلام، فعلا تواصليا توجيهيا، بواسطة اللغة ليتسع الكلام إلى ما يسمى بالتواصل الاجتماعي والثقافي فهذا «روسي لاندي يذهب إلى أن التواصل الإنساني هو عبارة عن انجاز لبرامج خطابية.... وكل سلوك إنساني هو سلوك له معنى يناسب القول، وكل عملية اجتماعية تؤثر خلالها جماعات، ويمكن للبرنامج (نظام الخطاب الذي يسند هذا التفاعل، أن يشخص ويقدم للبرنامج في آن واحد، وصفة للأدوار الفردية أو الجماعية، وللعلاقات التي أقيمت بين منجزي البرامج على اختلافهم»[4].

«هذا وإنه مما يراه جيرولد كاتز وهو يتحدث عن التواصل اللغوي أنه مسار يكون المعنى الذي يقرن به المتكلم الأصوات هو نفس المعنى الذي يقرن به المستمع الأصوات نفسها ولعل نجاح

---

[1]_باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة :عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دارالسيناتري، المركز الوطني للترجمة، تونس، ص 109.

[2]_المصدر نفسه، ص26.

[3]_عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص، المؤسسة الجامعية، ط1(2008)، ص161.

[4]_معجم تحليل الخطاب، المرجع السابق، ص 163.

هذه العملية يؤكد إرسالها عبر استعمال نفس القواعد اللغوية التي يستعملها المستمع إليه لكي يلتقطها ... »[1]. فيكون بذلك قد حدد أهم المميزات والخصائص التي تحكم عملية التواصل بين الناس.

أهمها أنه «نشاط مشترك بينهم، يتمكنون من خلاله تأسيس علاقاتهم والمحافظة عليها مع اشتراكهم في عنصري المكان والزمان، وكذا المعتقدات...» [2]. وهو بذلك «ليس فعلا عشوائيا ولا حدثا غفلا بل هو فعل مخطط له، وموجه لتحقيق أهداف معينة كالتبليغ والإقناع ولأنه يجري وفقا للأعراف الاجتماعية فهو يختلف من شخص لآخر»[3].

إن التواصل الأكثر شمولا لعملية الخطاب والذي يحتاج إلى التأويل الدلالي ليتسع إلى التأويل السياقي (الداخلي والخارجي)، ليتجاوز بذلك عملية التفسير الشكلي للقول من مكوناته الصوتية والتركيبية والدلالية إلى التفسير التداولي والمتضمن معنى القول ومقتضاته.

ولعل أطروحة كرايس الحوارية تنص على الفائدة من هذا التواصل الكلامي من خلال «مساهمات الأطراف المشاركة في التخاطب والتي يحكمها مبدأ عام...مقبول ضمنيا من المتخاطبين وهو الذي يسميه مبدأ التعاون، ويتجلى في تلبية المتخاطب لما هو مطلوب منه بحسب الكيفية التي جرت بها المحادثة أو الوجهة التي اتخذتها، فيصوغ كرايس هذا المبدأ على النحو التالي: «لتكن مساهمتك في المحادثة لحظة حصولها وفق ما يقتضيه هدف المحاورة اللغوية التي انخرطت فيها أو وجهتها المقبولة»[4].

فكان البحث في مصطلح التواصل هو ما تتوافق غاية البشر أثناء تفاعلهم معه، باعتباره سلوكا إنسانيا محضا في إطار ما يسمونه بالتواصل الاستدلالي الإشاري، فهذا سبربر ويلسن يعرفه «بكونه السلوك الذي يجعل قصدية إبراز شيء ما بارزة بمعنى أننا نمرر في التواصل اللساني الذي يعد هذا النوع أحد أنواعه إلى مستويين من المعلومات أولاهما المعلومة المتضمنة في القول، وثانيهما المعلومة

---

[1]_عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل، دار هومة، الجزائر، ط(2003)، ص37.

[2]_عبد الهادي بن ظافر الشهيري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1(2004)، ص10.

[3]_المرجع نفسه، ص 11.

[4]_مولود هيد الله مزاييط، " التداوليات المعرفية، تطبيقات على آيات من القرآن الكريم، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 3، سنة 2013، الدار البيضاء، المغرب، ص 15.

التي تفيد أن إنتاج المعلومة كان قصديا»[1].

وعليه فإن القصد من التواصل الذي اعتنى به المحدثون كما اعتنى به القدماء، لا يتحقق إلا من جهتين هما: «جهة المتكلم وجهة المخاطب، ذلك أن عاقد الكلام لا يسمى متكلما إلا إذا كان قاصدا التوجه بسمعه إلى المتكلم، إذ السامع الذي يقع الكلام في سمعه صدفة لايسمى مخاطبا، والتواصلية إذا كانت تعني من جانب المتكلم أن يكون للكلام معنى فهي تعني من جانب المخاطب أن يكون لهذا الكلام قيمة أو قيم متعددة»[2].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1]_المرجع نفسه، ص 17.

[2]_حافظ اسماعيلي علوي، التداوليات :علم استعمال اللغة، مقال: "التأويل التداولي للملفوظات وأنواع الكفايات المطلوبة في المؤول، "إدريس سرحان، عالم الكتب الحديث، ص124.

الفصل الأول:

الخطاب الوعظي وتداوليته

المبحث الأول:الخطاب القرآني والعربية:

1-تعريف الخطاب لغة واصطلاحا

2-تعريف الخطاب في القرآن

3-تعريفه عند الغرب

المبحث الثاني :ارتباط القرآن بالعرب

1-ارتباط تاريخي وجغرافي

2- ارتباط معرفي وأخلاقي

3-مستويات تقبل النص القرآني عند العرب

المبحث الثالث:مميزات الخطاب القرآني

1-من الناحية اللغوية

2-من ناحية الموضوعات والأغراض

المبحث الرابع: تداولية الخطاب الوعظي القرآني:

1-نشأة التداولية (عند القدماء والمحدثين)

2- التداولية وعلاقتها بالخطاب القرآني

3- الخطاب الوعظي(تعريفه وروده في القرآن الكريم)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:الخطاب القرآني والعربية:

1-تعريف الخطاب:

لغة: هو من «خطب الخطب والمخاطبة، المراجعة في الكلام... كما أنه الخطبة التي تختص بالموعظة، وأصل الخطابة الحالة التي عليها الإنسان إذا خطب، كالجلسة والقعدة... ومنها كذلك فصل الخطاب، أي ما ينفصل به الأمر من الخطاب»[1]، حيث وصف داوود عليه السلام به في القرآن الكريم، وقيل من معناه أن تقول "أما بعد" هذا وإنه قد ارتبطت كلمة "الخطبة" عند العرب بالمنبر الديني، إذ عرفها الفيروز أبادي (ت 817هـ) بقوله: «خطب الخاطب على المنبر خطابة بالفتح، وخطبه بالضم، وذلك بالكلام الذي قد يكون منثورا أو مسجوعا ونحوه، ويقال: رجل خطيب أي حسن الخطبة»[2].

ثم إن من معاني الخطابة، ما ذكره علماء اللغة من أنها «قياس مركب من مقدمات مقبولة، أو مظنونة من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم، تماما كما يفعله الخطباء والوعاظ»[3].

ولعل الكلمة نفسها وردت في القرآن الكريم بصيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾[المؤمنون 27]وقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان 23] وقوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴾ [النبأ:37].وهي تعني القول أو الكلام أو المواجهة بإبداء رأي ما، أو الرد على مسألة أو الاستفسار أو غيرها ...

أما اصطلاحا فما ورد عن علماء الأصول كالآمدي (ت371هـ) والشاطبي (ت790هـ) أن مصطلح الخطاب لا يكون خطابا إلا إذا عبر عنه بالكلام عن طريق أصوات قابلة للفهم مما يعني أن «هذا الكلام المبحوث عنه في علم الأصول هو مما يقع به التخاطب ويصح فيه التساؤل والتجاوب، حتى أمكن توجيهه وبيان القصد من خطابات الله تعالى التي تضمنها كتابه وحديثه

---

[1]_ الراغب الأصفهاني، معجم مفردات لألفاظ القرآن، ت:يوسف الشيخ البقاعي، دار الفكر، بيروت، ط1(2006)، ص116.

[2]_ الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ت:يوسف الشيخ محمد البقاعي، دارالفكر، بيروت، ط2005، ص76.

[3]_ السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، ت:محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص87.

للنبي ﷺ من نحو قوله: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» وقوله: «أطيعوا الله ورسوله»... وكل ذلك خطاب لمن بلغه من الموجودين وقت النزول وورود الوحي»[1].

كما ورد عن أبي حامد الغزالي في المستصفى قوله :- إن «الكلام اسم مشترك قد يطلق على الألفاظ الدالة على ما في النفس، كأن تقول سمعت كلام فلان فصاحته، وقد يطلق على مدلول العبارات، وهي المعاني التي في النفس، إذ إن هناك تلازما بين الدال والمدلول باعتبار أن كل واحد منهما يستلزم الآخر»[2].

وبما أن الخطاب كتابة من الجمل والملفوظات المركبة تركيبا منطقيا، فقد أخذ المصطلح" مسارا آخر مع القاضي عبد الجبار (ت 575هـ) الذي عده طاقة ذاتية لا متناهية من هذه الجمل التي تقتضي صياغة لغوية ارتبطت أكثر ببنائها اللغوي، ويحدد من خلال تلك البنى دلالة أجناس الخطاب من خبر أو أمر أو نهي أو استخبار»[3] كونه لا يخرج عن دور المتكلم في عملية إقناع الآخرين، ولوجود حمولات وطاقات تعبيرية إيحائية لاتتشكل إلا إذا كان هناك « تكاملا واتحادا بين مسارين يؤدي كل واحد منهما إلى الآخر، وهو الخطاب الإبلاغي الذي يحمل هذه الطاقة التعبيرية التي تساعد على توسيع مدارك المتلقي»[4] لما لهذه المادة الخطابية، من طاقة مستمدة من المتكلم تمتد لتطال المستمع.

وهذا ما تعرض له الجرجاني عندما انبثق مفهوم الخطاب عنده « من تصوره له من ناحيتي اللغة والبلاغةباعتماده على الحدث اللغوي الذي لا يتم له وجود فعلي إلا بوجود طرفين أساسين هما المنشئ والمتلقي، فللأول دوره الإنتاجي وللثاني دوره الاستهلاكي»[5] ولعل «وجود الاتصال بين المتكلم وخطابه، يحدد طبيعة العلاقة السياقية التي يثبت الخطاب من خلالها، علاقة تقتضي بشكل أو بآخر مراعاة المقام تمهيدا لفهم الخطاب»[6].

وفي الأخير فإنه «انطلاقا من هذه الدلالات اللغوية لمادة "خطب"، "يمكن القول إن الأصل

---

[1]_ إدريس حمادي، المنهج الأصولي في فقه الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1(1998)، ص21.

[2]_ عبد الواسع الحميري، م س، ص13.(انظر:المستصفى من علم الأصول :ت سليمان الأشقر،ص 93-94-95)

[3]_ فائزة محمد محمود المشهداني، المرجعيات في النقد والأدب واللغة، مقال:"مرجعية الخطاب بين القدماء والمحدثين"، العراق، مجلد"2"، ص181.

[4]_المرجع نفسه، ص178.

[5]_المرجع نفسه، ص 179.

[6]_المرجع نفسه، ص180.

في هذه المادة اللغوية أنها قد تضمنت مدلولات أساسية....فإذا كان من شأن مدلول الخطب بالسكون انه يحيل في الأصل- على مقام التخاطب وسياقه أو على الخلفية المرجعية لكل من الخطبة والخطاب، أي على السياق الاجتماعي أو التاريخي الذي يستدعي الخطاب أو الخطبة كضرورة له»[1]. فإن «الأصل المرجعي له من منظور البيان والبلاغة، أنه مشروط بالإقناع والتأثير أو الجاري مجراها»[2].

ثم إن الخطاب في اصطلاح المفسرين وعلماء الأصول، مرتبط بحالة المخاطب عند توجيه الكلام إليه فمن قائل بأنه الكلام اللفظي أو النفسي الموجه دائما للإفهام ومن مخبر بالعناصر التي تشارك في عملية التخاطب والتي لا تفهم إلا من الوجهة المقصدية المعبر عنها.

3- الخطاب في القرآن الكريم:

إن مبدأ اللغة التي قيل أنها اجتماعية هي التي دفعت بمستعمليها أن يتخذوا نسقا معينا في تواصلهم فيما بينهم. ولعل خطاب القرآن كان لغويا بالدرجة الأولى فما فتئ أن ربطت معانيه وألفاظه بالواقع المعاش أنداك في عصر السيادة اللغوية والملكة الكلامية التي انبثقت من الواقع.

فطبيعة هذا الخطاب تفرض على دارسية أن يكونوا متخصصين في ميادين مختلفة فهو مرتبط باللغة أولا وبالواقع الاجتماعي ثانيا، ولأنهما دعامتان أساسيتان للفهم والإحاطة بمناط التنزيل «فإن هذا النص ما هو إلا حدث لساني، وظفت فيه الطاقات الإخبارية والتأثيريه للاختيارات اللغوية توظيفا يهدف إلى إبلاغ الرسالة عبر هذا اللسان، كما يهدف إلى استمرارها بالفاعلية ذاتها عبر العصور والأزمان»[3]. ثم إنه لكي نحدد طبيعة الخطاب الشرعي والقرآني منه على الخصوص، ونحافظ على السمات الدينامية التي وجدت فيه، وهي تضمن له حواريته الايجابية مع الواقع، علينا أن نبرز في إطار علمي نظري خصائص خطابه اللغوي وسماته البنيوية، وقواعد سلامة التركيب التي تتعالق وقواعد سلامة الإسقاط الدلالي[4]. مع وجوب استحضار الظروف المناسبة لهذا التعالق الدلالي

---

[1]_ المرجع السابق، ص14.

[2]_ المرجع نفسه، ص15.

[3]_ محمد عبدالباسط عيد، النص والخطاب، قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2009، ص126.

[4]_ منقور عبد الجليل، النص والتأويل، دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، ديوان، المطبوعات الجامعية، ط2010، ص15-16.

لوحداته اللسانية، ذلك أن«تبادل الأدوار في التشكيل والتشكل بين النص والبيئة، يمثل الصورة الحقيقية لجدل الخطاب والواقع الثقافي، ولعل التنزل الأول للقرآن الكريم في تشكله وفق أنماط التخاطب والفهم والإحالة في المجتمع الأول، قد سطرت وفقه أنماط التخاطب آليات جديدة للفهم تتماشى وسنن التخاطب اللغوي المستحدث ضمن الحركية الاجتماعية العامة»[1].

ولهذا أضاف علماء الأصول عنصرا جديدا من عناصر الخطاب ,وهو العنصر الذي قد يكون غائبا عن المخاطب في وضعياته المختلفة، ألا وهو «الجانب النفسي الذي ارتبط عندهم بالإفهام وبحالة المخاطب عند توجيه الكلام له »[2]، فانقسم بذلك إلى قسمين : كلام نفسي أو أزلي وكلام مكتوب في المصاحف ومقروء بالألسنة .

هذا وإن الكلام عندهم محكوم بخطاب الشارع للناس ,وهو يتكون من مجموع الأوامر والنواهي، التي تنبثق عن خطابين رئيسيين هما: «خطاب تكليف يحتوي على جميع التكليفات ويعبر عنه بلغة إنشائية طلبية هي لغة الأمر ,النهي ,الإباحة، ويتعلق بأحكام خمسة من وجوب وتحريم وندب وكراهة وإباحة وآخر: خطاب الوضع ويسمى خطاب الاختيار وهو خمسة أيضا»[3].

وعليه فإن المتلقي في «ضوء هذه الرؤية، شرط الخطاب الذي يتلقى عبر النص في بلوغه تمامه دلالة، وشرط الخطاب في حصوله أداء، كما أن الخطاب يعد من هذا المنظور أيضا شرط الكائن المخاطب في حصوله يقينا»[4].

إن هذا الخطاب الذي لا يخلو من مخاطب ومخاطب، ما هو إلا منظومة لغوية بأبعادها التواصلية، باعتبارها تنعكس مباشرة على مستعمليها والمشاركين فيها، لأن «علماء القرآن لم يتوقفوا إزاء الطرح اللساني وحده، رغم انشغالهم البالغ به، لكنهم اعتنوا عناية بالغة بتنزيل الخطاب في سياقه الثقافي والاجتماعي، والنص اللغوي-في هذا المنظار-أداة لممارسة الفعل على المتلقي، كي يستجيب لمنظومة من الأوامر والنواهي التي يتحدد حظ المؤمن من التقوى بمقدار ما يتمسك

---

[1]_ المرجع نفسه، ص37.

[2]_ المرجعيات في النقد والأدب، م س، ص181.

[3]_ عبد الواسع الحميري، م س، ص33.

[4]_ المرجع نفسه، ص17.

بها»[1].

وخلاصة القول، فإن هذه المفاهيم التي تنوعت عند علماء التفسير و الأصولين، تدل على سعة المضامين وكثافتها في إطار من تلون للخطابات الموجودة في القرآن الكريم «وهو الملزم دائما-أن يراعي تلازم أركان ثلاثة هي: مخاطب يأخذ مبادرة الحديث، ومخاطب: يكون له تأثير في اختيار المخاطب ألفاظه وتعابيره وأسلوبه، وظرف جرت فيها عملية الخطاب مما يؤدي إلى نجاحه أو فشله»[2]. وهو بهذه الصفة المتكاملة «يملك سلطة خاصة في قول الواقع الموضوعي ويفرض أنماطه الذاتية وسننه الظرفية كما ينتقل بالدلالة من الزمن المحدود-زمن القول- إلى الزمن اللامحدود»[3].

تعريف الخطاب عند الغربيين: لعل تعدد وتنوع معاني الخطاب يرجع إلى «بروز الدراسات الألسنية الحديثة التي تأثرت بها نظرية الأدب والنقد الأدبي، مع ظهور تيار البنبوية في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن الماضي، فهو يعني الوحدة اللغوية المكتملة التي تمتد فتشمل أكثر من جملة »[4].

وعليه فقد ارتبط مفهوم الخطاب بالملفوظ أثناء عملية التلفظ دون الخروج عن السياق الاجتماعي الذي يلعب دورا هاما في تشكيلة، فكما حدده بنفنست بأنه كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، بأن يكون هدف الأول التأثير على الثاني بطريقة ما يجد هاريس من منظوره اللساني بأنه «ملفوظ طويل أو عبارة عن متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة، يمكن من خلالها معاينة سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية، وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض»[5].

كما فعل غاردنار الذي ارتبط عنده كذلك باللسان من خلال الشفرات المستعملة للتواصل.

هذا ولو تصفحنا معجم"تحليل الخطاب" لوجدنا المصطلح يقابل مصطلحات لسانية تارة ومصطلحات التلفظ تارة أخرى، فهو«خطاب مقابل جملة يمثل من خلالها وحدة لسانية متكونة كذلك من جمل متعاقبة ... وخطاب مقابل لسان من خلال تحديد اللغة بأنها نسق قيم مقدرة

---

[1]_المرجع السابق، ص17.

[2]_ محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، (2006)، ص196.

[3]_ منقور، النص والتأويل، م سابق، ص45.

[4]_الحميري، المرجع السابق، ص37.

[5]_ الشهيري، المرجع السابق، ص37.

تقابل هذا الخطاب واستعمال اللغة في مقام خاص استعمالا ينتقي القيم ويمكن أن يحدث فيها جديدة »[1].

فكما رأينا عند بنفنست الذي اشتهر بإطلاق مصطلح "التلفظ" على خطابه إذ قد يكون المتكلم باللسان في ظروف تسمح له بالكلام هو مركز التواصل ومحور وظائف اللغة التي لا تستغني عن التلفظ الفعلي أثناء استخدام اللغة، بوصفه فعلا "حيويا"[2] في إنتاج النص.

كما نظر آخرون من «زاوية تداولية بوصف الخطاب حوار أو مونولوجا شفويا أو كتابيا»[3] فهذا "فان ديك" يقول أن الخطاب هو «فعل الإنتاج اللفظي... وفي بنية كلية عامة تتمثل في المقدمة، المشكلة، الحل، إضافة إلى بنيات جدلية متعددة الأنواع» [4]، مع وصف كلي آخر لأعمال الكلام التي حددت من طرف الفلاسفة الغربيين أمثال: ج.ل أو ستين (1962) و.ج.ر سيرل (1969م حيث «نشرت على نطاق واسع فكرة أن كل ملفوظ هو عمل (وعد، اقتراح، أكد، سأل ...) يهدف إلى تغيير وضعية، وفي مستوى أعلى تندمج هذه الأعمال الأولية ذاتها في أنشطة لغوية من جنس معين مرتبطة هي نفسها بأنشطة غير كلامية»[5].

أما باختين وتودوروف، فقد نظرا إليه على أنه تلفظ يشترك فيه جماعة من الناس باعتباره حدثا اجتماعيا «والذات المتلفظة وإن بدا عليها أنها مأخوذة من الداخل إلا أنها تعد بصورة كلية نتاجا لهذه العلاقات الاجتماعية المتداخلة، ما يعني أنه ليس التعبير الخارجي هو وحده ما يقع ضمن حدود الأرض الاجتماعية، بل إن الخبرة الداخلية المعبر عنها بعملية تحويلها"التلفظ" إلى موضوع خارجي تقع بكاملها ضمن هذه الأرض»[6].

فكان التلفظ بهذا نتيجة لتفاعل كلا الطرفين مع بعضهما بعضا، ومن هذا التفاعل سيضع كلاهما الواقعة الخطابية، التي ستذكرنا فعلا-بأن هذا «الخطاب يدرك زمنيا وفي لحظة آنية، على

---

[1]_المرجع السابق، ص180.

[2]_ الحميري، المرجع السابق، ص92.

[3]_المرجع نفسه، ص92.

[4]_المرجع نفسه، ص94.

[5]_ المعجم نفسه، ص182.

[6]_ الحميري، المرجع السابق، ص99.

خلاف النسق اللغوي الذي سيكون افتراضيا وخارج الزمن»[1]. وكما يقول غوسبان (1971)، أن «إلقاء نظرة على نص ما من حيث هيكلته في اللسان يجعل منه ملفوظا، ولعل الدراسة اللسانية لظروف إنتاج هذا النص هي التي تجعل منه خطابا»[2]، تماما كالذي «يذهب إليه غرايس من أن للكلام دلالات غير ملفوظة، يدركها المتحدث والسامع دون علامة معلنة أو واضحة...» [3].

قد تحيط بها دائرة النظم التي قد تكفي لرفع للبس عن بعض الغموض في استعمالات الكلام بمختلف وضعياته سواء كانت اجتماعية أم سياسية أم ثقافية أم دينية..

هذا وقد تطور مفهوم الخطاب عند الغربيين، حيث أنه ارتبط بعلم التداولية التي تهتم بدراسة الروابط المنطقية له، فما ورد عند موشلار وربول أنهما يعتبرانه «متكونا من مجموعة من الملافيظ التي يوجد بينها رابط، وهو متعدد الأنواع: موضوعي، مرجعي، قضوي وحجاجي»[4].

ولعلها «الأطروحات الأربع التي عالجها منقينو في تعريفاته للخطاب وذلك من وجوه خمسة، هي:

1-أن يكون مرادفا للكلام.

2-و أن يكون وحدة قيس أكبر من الجملة الملفوظة .

3- تطلق كلمة خطاب على الملفوظ الذي له أبعادا تفاعلية على الآخر لتكون مؤثرة في وضعية تلفظية ما.

4-أن يفيد هذا الخطاب معنى المحادثه فيكون رديفا لها.

5-أن يكون رديفا للغة كنظام افتراضي له خصوصية الإنجاز في مقامات محددة...» [5].

---

[1]_ بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة: -سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1(2003م)، ص13.

[2]_ المعجم السابق، ص181.

[3]_ نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1(2000م)، ص13.

[4]_ عزالدين الناجع، "مقاربة تداولية لحكمة عطائية"، مجلة الخطاب: منشورات معجم تحليل الخطاب،، جامعة تيزي وزو، ع3، ماي 2008، ص28.

[5]_المرجع السابق، ص 28-29.

المبحث الثاني :-ارتباط القرآن بالعرب:

للنص مكوناته المرتبطة بمرجعيات خارجية، تتعلق أكثر بالمكان والزمان، وهي تؤثر فيه ويؤثر فيها، وبما أن القرآن الكريم هو خطاب الله تعالى للناس، فهو يعد من أرقى النصوص وأسماها على وجه الأرض، لأنه يصدر عن ذات عليا منزهة عن كل خطأ ونسيان كما أنه نزل بلغة العرب، وأسس لها أرضية خصبة لنهوضها، آخذا بعراقة هذه الأمة وعاداتها، عالقا علوقا تاريخيا وجغرافيا بها من جهة، ومعرفي وأخلاقي من جهة أخرى.

وقد اختار الله أن ينزل هذا القرآن في هذه البيئة الصحراوية بالذات، لأنها بيئة متميزة، انحدرت من ذرية إسماعيل- العدنانيين- الذين يعدون رافدا من روافد حضارة اللغة العربية الراقية ا«فالعرب هيئوا تاريخيا لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية... وما كان الله ليجعلها لغير هذه الأمة العظيمة، فلا ينهض بالجليل من الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال، ولا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس»[1].

ولأن نظرة التاريخ لهؤلاء كانت نسبية، فهي تتفاوت بين مفرط ومغال في دور العرب عبر الزمن، إلا أن« القرآن وحده هو الذي أنصفهم...فوجب علينا —كذلك- ألا ننظر من وجهة واحدة، بل ننظر من جهات متعددة، وفي العرب نواح تجتبى ونواح تجتنب، وجهات تذم وتقبح، وجهات يثني عليها وتمدح»[2].

ثم إن ميزان أخذ الشرف من هذا الاصطفاء، أنه ميزان عقل وعاطفة، جعلا العربي يتزن في عقليته التي استقامت بظهور هذا الدين الجديد.إذ رأى «ألسنتهم تقود أرواحهم، فقادهم من ألسنتهم، فنزل منهم منزلة الفطرة الغالبة التي تستبد بالتكوين العقلي في كل أمة، فتجعلها كأنما تحمل من هذا العقل مفتاح الباب الذي تلج منه إلى مستقبلها»[3].

«وبذلك استطاع القرآن-فعلا- أن يؤلف من العرب أكبر جماعة نفسية عرفها تاريخ الأرض، وكان عملها فيها وفي تاريخها على حساب ذلك في روعته وغرابته وقوته وفائدته، إذ وجدت من

---

[1]_ عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تعليق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2(2003)، 389.

[2]_المرجع نفسه، ص393.

[3]_ مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، مراجعة: درويش الجويدة، المكتبة العربية، بيروت، ط1، (2000م)، ص74.

آداب القرآن قلبا اجتماعيا عاما استولى على ما فيها من التصور والفكر والإدرك والاعتقاد، وأحالها كلها فكرا واحدا استمد قوته من الخلق الذي قام به»[1]. وهو لديه تأثير قوي على ارتقاء المجتمعات وتطورها. فصفة واحدة من صفات الأخلاق قد تعبر عن انتماء حضاري لحاملها، فما بالك بمجموعة الأخلاق الكريمة التي ميزت هؤلاء عن غيرهم من العوالم، مع مدى تأثير القبائل في بنيتها الثقافية على عملية التفكير، والنظر إلى الأشياء وتحليلها بكيفية مختلفة.

أما الحديث عن المكان والزمان وقضية الانتماء إليهما، فهما يعتبران الركيزة الأساسية في تكوين الذات البشرية، ممثلة في عملية الكلام، إذ يشهد التاريخ ما للأمكنة من تأثير قوي في تكوين اللهجات التي اختلفت باختلاف القبيلة-مكانيا- فلغة الشمال غير لغة الجنوب، كما أنها غير لغة الساحل، وهكذا وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما أخذه "رولان بارث" في مقولة:« اللسان مؤسسة اجتماعية ونظام من القيم»«فإننا نكون قد وقفنا على أساس مكين يؤكد أثر المكان في تشكيل الكلام المكون من التركيبات التي تستطيع الذات المتكلمة بفضلها استعمال شفرة اللسان قصد التعبير عن فكرها الخاص... فالمجتمع على نحو ما هو نتاج العلاقة مع المكان أولا وأخيرا... ونظرة عجلى إلى المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية، تمكننا من ملاحظة أثر المكان في بنية اللغة لذلك المجتمع، وبالتالي تمكننا من ملاحظة ذلك في تشكيل النص»[2].

ثم إن هذا القرآن راعى هذه التباينات الجغرافية للمجتمع مثبتا بأنه إذا نزل فإنه سينزل في هذا المكان المحدد وبلغة محددة، وهذه اللغة هي اللهجة المتشكلة من هذه البيئة، فقد صرح النبي ﷺ في حديثه بأن هذا القرآن أنزل بسبعة أحرف والأحرف هنا هي اللهجات.

وعليه فإنه: «مهما كانت نظرتنا للنص، فإننا نعتر دائما على أثر للمكان فيها نقرأ، حيث أنه كلما قرأنا نكتشف أمكنة جديدة... ومن معرفتنا لها ستكون مقدرتنا أكبر على معرفة النص... لما نسجته من خيوط أساسية لمعاودة الألفة، لأنها ستكون منتخبة بمقتضى الضرورة التي أملت خلق هذا النص»[3] أو ذاك.

ولعله من الملفت للانتباه، أن هؤلاء الذين هيئوا لتبليغ رسالة القرآن، قد اعتنى بهم بأن

---

[1]_ الرافعي، المرجع السابق، ص87-88.

[2]_ سعد كموني، العقل العربي في القرآن، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 200م، ص33.

[3]_ سعد كموني، المرجع السابق، ص34.

«أخذوا حظهم كاملا من التربية قبل الناس كلهم، فنجد كثيرا من الآيات القرآنية في مراميها البعيدة إصلاحا لحال العرب وتطهيرا لمجتمعهم وإثارة لمعاني العزة والشرف في نفوسهم »[1].

هذا وقدا استشهد "ويل ديورانت" صاحب كتاب "قصة الحضارة" عندما رأى أن الفضل كل الفضل لهذا التنزيل الذي كان له شأن كبير في رفع حال المسلمين أخلاقيا وثقافيا واجتماعيا، بأن حرر عقولهم من الزيف والانحراف بقيود العادات والتقاليد الواهمة، وأخضعهم لسلطة الحق والعدل والقانون.

ثم إن الشيخ "رشيد رضا" يصف تأثير القرآن في أخلاق العرب فيقول: «لم يعرف في تاريخ البشر أن كلاما قارب القرآن في قوة تأثيره في العقل والقلوب، فهو الذي قلب طباع الأمة العربية وحولها في عقائدها وتأييدها وصرفها عن عاداتها وعدواتها... وبدلها بأميتها حكمة وعلما، وبجاهليتها أدبا رائعا، وألف من قلوبها المتفرقة أمة واحدة سادت العالم بفضائلها وعدلها وحضارتها وعلومها وفنونها»[2].

فكان هذا الرقي والإباء والفخر لهؤلاء بأن لسان القرآن هو لسانهم، ولغته هي لغتهم، أنه أصبح فيما بعد مصدرا مهما من مصادر اللغة والأدب، وذلك باستخدام أسلوبه البياني شاهدا من شواهد رواية اللغة وتدوينها، ومعيارا من معايير صحة قواعدها، وهذا من باب تيسير النطق والتخفيف على أصحاب الصنعة والمتكلفين في كلامهم، بإقامة الحجة عليهم من نطق الحروف نطقا سليما نابعا من مخارجها السليمة.

وعليه نستطيع القول، إن اللغة العربية خالدة في تاريخها، متميزة في أدائها (حروفا ومبان ومعان). وما زادها رفعة هو ارتباطها بلغة القرآن الكريم المعجز في ألفاظه ومعانيه.

ولعل من الصفات المادية التي جعلت صفة اللغة من صفات العرب، أن المعنى الأصلي لمدلول الكلمة مأخوذ مما هو محسوس في بيئاتهم كلفظة السماء، الإنسان، البيت، العقل، الشرف، وغيرها..

---

[1]_عبد الحميد بن باديس، المرجع السابق، ص389.

[2]_ بغدادي بلقاسم، المعجزة القرآنية، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، ص174-175.(انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ج13، ص68).و(كتاب:تفسير القرآن ,محمد رشيد رضا , ج1,ص203)

فكان من دواعي الانتباه لهذه المفردات وغيرها، أنها أثرت اللغة العربية وأصبحب «تدل على تفكير العرب ونظرتهم إلى الأشياء، ففي تسميتهم لها باسم بعينه وفي إطلاق لفظ دون غيره، واختيار صفة من صفاته ما يدل –فعلا– على اتجاههم في التفكير، وفهمهم للأشياء ونظرتهم إليها»[1].

ثم إن تلك العربية التي نقلت هؤلاء من حال إلى حال بفضل تأثيرها السحري عليهم "ما كانت لغتها تطمع في أن يتعدى سلطانها جزيرتها ... وتنمو في أحضان حضارة ترعرعت بين سمع المدينة وبصرها، وتستأثر دونها بالمكان الأسمى في ممالك ما كان العربي يحلم أن يحياها....لكن القرآن الكريم انتزعها من أحضان الصحراء، وأتاح لها ملكا فسيح الأرجاء، تأخذ منه لألفاظها ومعانيها، وأغراضها وأسلوبها....حتى أصبحت غنية في فنون الحياة بإقبال الناس عليها، وانصرافهم إليها مدفوعين بالحاجة إلى التفاهم مع أوليائهم من العرب، وإلى معرفة أحكام الدين وأداء واجبات الإسلام»[2].

ومن صفات العربية أنها لغة موسيقية، ارتبطت بطبيعة سماع العربي المرهف الحس والخيال، فكان أن تعلق هذا الوصف بسماعة لكل قول وكلام حتى كان تراثها كله تراث الأذن التي تميز بها في إدلاء الأحكام على نصوص نثرية وأخرى شعرية، وفي هذا حكمة من نزول القرآن بفواصل اتسم بها من ناحية خطابه، جعلته يقترن في مقابل هذا بما يسمى بالسجع أو القافية في الدراسات الأدبية.

وفي صفات النحو والصرف صفات العربي كذلك"فالاشتقاق في اللغة مثلا" هو التصرف الواسع بالمادة اللفظية المحدودة لأداء مضامين جديدة، وهو تماثل مع التصرف الواسع للعربي مع الرمل الجديب والقحط الرهيب إذ اشتقت الأشياء من الأشياء لأداء إيقاعات جديدة للحياة تقتضيها الضرورة المستجدة، وكذلك أن العربي لا يبدأ كلامه بساكن ولا يقف على متحرك، فيها تماثل مع العربي الذي يبدأ مع المدى الممتد أمامه يسعى فيه إلى الإقامة المكانية، فهو لا ينطلق من مكان ساكن، فالسكون مكان للإقامة»[3]. وبهذا فإن «ظاهرة لغوية كهذه فريدة في تاريخ اللغات، وقد مرت من المرحلة اللهجية الجاهلية إلى لغة منظمة فنيا، لكي تنقل فكرة الثقافة الجديدة والحضارة

---

[1]_ محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر للطباعة والتشر، بيروت، ص306.

[2]_ أحمد حسن الباقوري، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، دار المعارف، القاهرة، ط4، ص49.

[3]_سعد كموني، المرجع السابق، ص33.

الوليدة»[1]. حتى إننا لا نستطيع تقريبا وبحال من الأحوال أن نفضل لغة العرب عن التنزيل الإلهي «إذ كانت المفتاح المباشر الذي فتح الأبواب لدخول عالم النص القرآني، والإيمان بدين الإسلام، فهم قد آمنوا به لأنهم رأوا فيه كتابة لاعهد لهم بما يشبهها–فنقول– باللغة تغير كيانهم من الداخل، وباللغة تغيرت حياتهم، تماهوا معه–لغة وتعبيرا–فصار هو نفسه وجودهم»[2].

–مستويات تقبل النص القرآني عند العرب:

لا يختلف اثنان عن قوة الارتباط الموجود في خطاب القرآن الكريم مع العرب كمتلقين له، وذلك من خلال تأثيره على ثقافتهم وحضارتهم وبيئتهم التي يعيشون فيها.

ولعل عمق هذا الارتباط ما هو إلا من عمق هذا الانتماء خاصة: الانتماء اللغوي والاجتماعي. وللحديث عن مستويات التقبل لهذا المنتج العظيم، من طرف هؤلاء، كرؤية علمية تطبيقية، سنحاول فيها إسقاط نسبة التقبل (الايجابية منها والسلبية) بنسبة الارتباط في إطار من فهم للفظ والمعنى.

من المعروف أن سر هذا الإنسان العربي قديما مع الخطاب ومدى تقبله له، أنه قد يعول «على الإحساس والذوق في هذا التقبل....أكثر مما يعول على الملاحظة والعلم، وبذلك يمارس قراءة فطرية أساسها "الطبع" لا العلم المسبق بأسرار الصناعة، الناتج عن التحصيل والاكتساب»[3].

وهكذا تعامله مع كتاب الله تعالى الذي لم يستطيع بحال من الأحوال أن يصنفه من أي جنس هو، فكان تعامله معه فطريا، وهو نابع–فعلا– من الطبعة الكلامية الأصلية، كما كانت نظرية له أنه وحي سماوي يستحيل على أي كان من البشر أن يأتي بمثله، وان كانوا أشهر الناس وأعلمهم بأساليب الخطابة وفنون الكلام.

ولأهمية الشعر الذي يعد ديوان العرب، فقد استعان به أهله في شرحهم للألفاظ القرآنية، انطلاقا من استخداماتهم اللغوية والبلاغية، فيما "روي صاحب الطبقات عن يونس قوله: قال ابن أبي إسحاق في بيت الفرزدق:

---

[1]_ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، تقديم: محمد عبد الله دراز، ومحمد محمود شاكر، دار الفكر، دمشق، ط9، (2009)، ص191.

[2]_أدونيس، النص القرآني وآفاق الثقافة، دار الآداب، بيروت، ص21–22.

[3]_ أحمد الوردني، قضية اللفظ والمعنى، ونظرية الشعر عند العرب (من الأصول إلى القرن 7ه)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1(2004م)، ص667.

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع * * * من المال إلا مسحتا أو مجرف.

أن العرب تقول: سحته وأسحته، وبهما يقرأ القرآن جميعا، إذ من قرأ ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ طه: 62، فهو من أسحت يسحت فهو مسحت، وهي التي قال بها الفرزردق، ومن قرأ "فيسحتكم" فهو من سحت يسحت فهو مسحوت.....فكان موقف أبو عمرو بن العلاء ويونس وابن سلام من هذا البيت أنهم ساهموا في تعميق حيرة القارئ أكثر مما ساهموا في تبديدها، حيرة في قراءة "مسحت" على النصب وعلى الرفع... ولعل وجود أكثر من طريقة في تخريج لفظ البيت يعكس فعل القراءة التي ستستفز عقل المتقبل وتحرك فيه ثقافته اللغوية، فيكون الشعر بذلك مطية لخدمة اللغة بإظهار قواعدها وتوظيفها في تنويع –هذه القراءة".

وعلى الرغم من الصراع القائم بين ما جاء به نبي الله ﷺ من قرآن بتذكيرهم باليوم الآخر، وما عند هؤلاء من تراث ومعتقدات لآباء وأجداد، إلا أن هذه المواجهة المتناقضة نتج عنها بناء حضارة وثقافة أخرى قد أسست «لمرجعيات ثقافية وأخرى حضارية كانت مغايرة للمرجعيات السابقة...وهذا يعني أن الانطلاقة الجديدة للعرب ستصطدم باختلاف الرؤية بين محمد ﷺ الملتزم بما أمره به القرآن الكريم، وبين كبراء قريش الذين هم مصرون على ما وجدوا عليه آباءهم... فهو الذي يرى أن سلوك هؤلاء ضل السبيل... وهنا التعقيد، فما يراه ضلالا لا يرونه كذلك»[1].

وهكذا نظرتهم التي اختلفت من فئة إلى أخرى، سواء كان غنيا أو فقيرا، حضريا أو بدويا، من سادة قريش أو من عامتهم... ترفض هذا المنطلق وتأبى الرضوخ إلى عدل السماء ومساواة الناس بعضها ببعض.

وعلى الرغم- كذلك- من أنهم متفقون على استحالة إتيانهم بمثل هذا القرآن الذي مصدره إلهي، إلا أن مستوى التقبل لديهم كان مرتبطا أكثر، بما هو خارج عن نطاقهم، فهو أمر غيبي نفسي، تعلق بهداية الإرشاد وهداية التوفيق، وهي لا تكون إلا من الله تعالى.

هذا وإن مستويات الفهم المرتبطة بمدى التقبل، هي تلك العلاقة بمدى فهم الطبقات الاجتماعية لخطابة الموجه إلى كل الناس.فلما لم يكن« المخاطبون بالقرآن على مستوى واحد من الفهم والإدراك، كما لم يكونوا على درجة واحدة في اتصالهم بصاحب الرسالة.فلا يعقل-بهذا-أن

---

[1]_ سعد كموني، المرجع السابق، ص203-204.

يتساوى إدراك أقرب الصحابة إلى الرسول مع الأعراب الوافدين عليه من مناطق نائية، فالمقربون يفهمون مضمون الرسالة بالإيحاء والتلميح دون ذكر التفاصيل، وضرب الأمثلة، ذلك أن أطرهم المعرفية مشتركة، ومن ثمة تكفي الإشارة عن العبارة إلا ما كانوا أبعدين ثقافيا وحضاريا، فإنهم كانوا أحوج إلى الإطناب»[1].

ومما تحدث به الجاحظ عن هذا الاختلاف، ما ذكره عن طبقة الأعراب، وطبقة "بنو إسرائيل" حين أشاد بالكلام المبين انطلاقا من القرآن، باعتباره أبين الكلام وأفصحه في آية: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:195]بقوله: «لكن الإبانة تظل مرتبطة بما يقتضيه المقام، فيتغير الخطاب بتغير المخاطبين، ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطا وزاد في الكلام، فكان أصوب العمل إتباع آثار العلماء والاحتذاء على مثال القدماء بما عليه الجماعة»[2].

ثم إن الكيفية التي نزل بها القرآن أنه «أخرج أوامره ونواهيه مخرج الاستفهام أو الإخبار أحيانا كثيرة، تلطفا وتأنيسا، فالمقربون والمؤمنون يدركون التوضيحات والتلميحات والتلويحات فيطيعون ويستجيبون، في حين أن البعيد أو الذي في قلبه مرض كان يتجافى عقله عن الفهم فيستمر في سلوكه أو يسأل فتأتي آيات أخرى فيها مزيد إيضاح حتى ترفع كل شبهة وتقطع كل ذريعة»[3].

إن هذا التفصيل في المعاني المتضمنة في كلام الله تعالى، هي خاصية الإيجاز الموجودة كذلك في كلام العرب، في بلاغتهم وفي شعرهم ونثرهم، وقد تفتقت مميزات أهل مكة في فصاحتها عن أهل المدينة في صنعتها فكانت معايير الفصاحة هي من كانت ألفاظها تحاكي ألفاظ القرآن الكريم، إذ جاء في الأثر أن أهل مكة قالوا لمحمد بن المناذر وهو الشاعر أن ألفاظهم أفصح من أهل البصرة، فأجابهم ابن المناذر أن ألفاظ هؤلاء هي أحكى الألفاظ للقرآن وأكثرهم موافقة.واستشهد بقوله على لسان الجاحظ: «أنتم تسمون القدر "برمة"، وتجمعونها على "برام"»، ونحن نقول: [4]. "قدر" ونجمعها على "قدور" ومنها قوله تعالى:﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ:13]

---

[1]_محمد مفتاح، المرجع السابق، ص204.

[2]_الجاحظ، الحيوان، ت: عبد السلام هارون، ط2، (1965م)، ج1، ص94.

[3]_محمد مفتاح، المرجع السابق، ص205.

[4]_أحمد الوردني المرجع السابق، ص719.

«فكلما كان الكلام أحكى للفظ القرآن، كان أعلى درجة في سلم الفصاحة والجودة، وهو ما يفسر لنا سلطة هذا الخطاب (القدوة)، وهي سلطة تعود أسبابها بالإضافة إلى أسرار النظم من إشارة ووحي وحذف... وإلى السجلات المعجمية الأفصح من سواها، إلى المراعاة الدقيقة للمعنى السياقي للكلمة، فمهما كان الترادف قويا بين الكلمتين فإن ذلك لايتيح استعمال الواحدة في سياق الأخرى»[1]، فهي في القرآن عاشقة لمكانها، ولا تعوض كلمة كلمة للأخرى تجانسها، ففي"الجوع" لم يذكر إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لايذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك ذكر"المطر" لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر "المطر" وذكر "الغيث"[2].

وعليه نستطيع القول إن لهذه المستويات انعكاسا على الفئات التي خوطبت في القرآن، انطلاقا من مميزات وعادات المجتمع العربي بنظامه القبلي«وبيئته البدوية التي اتسمت ببعض السمات كشظف العيش، وذلك نظرا لقساوة الطبيعة والعنف بين القبائل من خلال الإغارة التي تنمي الأخلاق الخشنة والغلظة في المعاملات وفي كثير من الأحيان التقلب في المواقف»[3].

ولعل هذا الذي جعل النبي-ﷺ- يواجه«بعد تأسيسه للأمة في المدينة آثار تلك الخصال في المجال السياسي، فكثيرا ما يتعرض عند المفاوضات مع القبائل لإقناع أهلها على اعتناق الإسلام والدخول في نظامه الأمني أو الحياد إلى التقلبات المفاجئة في المواقف ونكث العهود من طرف بعضهم لأطماع مادية وأخرى اقتصادية»[4].

فكان منها هذه الفئة التي تدعى بفئة الكفار والمنافقين والمشركين، وهي تناقض فئة المؤمنين والتائبين، وإن كان غرض القرآن-أولا وأخيرا-هو بناء عقول ونفوس هذه الفئة الأخيرة، فهي من حيث الأولوية والأهمية، قد فهمت أغراضه حق الفهم والإدراك، وخاصة فئة الصحابة، فكيف كان تلقيهم له؟

---

[1]_المرجع نفسه، ص719.

[2]_البيان والتبيين، المرجع السابق، ج3، ص182-185.

[3]_رشيد ميموني، البعد الاجتماعي في القرآن، مقاربة سوسيو معرفية، مخبر علم الاجتماع الاتصال للبحث والترجمة، ط2009، ص294.

[4]_المرجع نفسه، ص234.

من المعروف أنهم كانوا« يتلقونه للتنفيذ والعمل، لا للثقافة والاطلاع، ولا للتذوق والمتاع، ....يتلقون القرآن ليتلقوا أمر الله في خاصة شؤونهم وشأن الجماعة التي يعيشون فيها، وشأن الحياة التي يحيونها، فكانوا يعملون به فور تلقيه... ومن ثم اختلط القرآن بذواتهم، وتحول في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي حركي جدي، وإلى ثقافة حية متحركة لا تبقى داخل الأذهان أو بطون الصحائف....فهو قد جاء... ابتداء لينشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر، وأن تقوم عليها حياتهم»[1]، فغرضه دائما إصلاح نفوس الفئات المتضادة بدعوتهم إلى طريق الله الراشد. فلا يتوانى عن مدح الفئة المؤمنة من الأعراب التي تجاوزت التضامن القبلي الجائر على حساب الحق، وكذا أخلاقها الغليظة ونزعتها التمردية، إذا أطاعت أوامر الرسولﷺ وأنفقت ما وجب عليها، من مال بصدر رحب مخالفة بذلك القاعدة السوسيولوجية التي تقضي بمنع الموارد عن إطار القبيلة والبخل النابع من قساوة العيش، تلك الفئة الاجتماعية التي ستوسع تدريجيا وستنظم للإسلام فتوحاته الإسلامية، بعد أن عرفت تحولا نوعيا دينيا وأخلاقيا واجتماعيا..»[2].

و أخيرا وبعد وضعنا للكيفيات التي كانت عليها مستويات التقبل، والتي تأرجحت ما بين حسنات المجتمع وبين نقيضها، فهي لا تخرج عن قسمين:

1-قسم يخص المجتمع الذي بعث فيه النبي ﷺ.

2-وقسم يخص إنسان هذا المجتمع.

وكاستراتيجية لنطاق التغيير الذي شمل جميع المستويات الاجتماعية، إضافة إلى المجتمع بحد ذاته، وفي إطار من توسيع بؤرة التغيير نحو إصلاح المجتمع والفرد، فإن ما جاء به النبي العربي من تعاليم دين جديد أرسله الله تعالى، فهو من أجل ترسيخ عقيدة وقيم جديدة، وهي مجسدة في شخصيات النموذج المثالي الأول «مع تثبيت القيم الصالحة الموجودة في القوم، ثم وبطريقة موازية أمر الله بنشر دعوته تدريجيا قصد إحداث قاعدة اجتماعية جديدة مكونة من شخصيات مثالية تالية لهؤلاء- وهي النموذج "ب"، والتي مدحها القرآن بفضل وفائها وخصالها وتضحياتها وهم الصحابة، وبفضل توسيع

---

[1]_صلاح عبد القادر الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار الشهاب، باتنة، ص34.

[2]_ رشيد ميموني، المرجع السابق، ص273.

قاعدة فئة المؤمنين وقع في مكة صراعا حادا بين النماذج السلوكية المتناقضة، نمط الجاهلية ونمط الإسلام للسيطرة على الوضعية إلى أن جاءت الهجرة التي أحدثت تطورا كميا (بانضمام الأنصار)»[1]، فتأسست بذلك أمة الإسلام، التي تحولت طبيعة التحالفات بين القبائل فيها من الصراع من أجل المصالح والجاه إلى تحديد الموقف السياسي والديني تجاه هذه الأمة، التي تدرجت في استبدالها لكل هذه المواقف إلى سلوكات جديدة، كانت أكثر تأثرا بمن حملوا لواء التغيير بجميع مستوياته، وبدون ضغط أو حصار، فقد جعل هذا الخطاب القرآني للمتلقي الآخر، مساحة قد يرفض فيها هذا المعتقد، وقد يتمسك به أكثر من باب "لا إكراه في الدين".

المبحث الثالث : مميزات الخطاب القرآني:

1-من الناحية اللغوية:

إنه كلام الله تعالى الخارق لعادة العربي، الذي تعود فصاحة في النطق، وبلاغة في التعبير. لم يستطع كسر جدار البلاغة المعجزة في قرآنه، حتى انشغل طوال وقته بفهمه، واستنباط معانيه، فكان منها هذه الدراسات التي كشفت عن مميزاته وخصائصه في أصواته وحروفه وألفاظه، ومن ثم في جمله وتراكيبه.

1-1-نظام الصوت: لعل من أبرز ما يهتم به علماء الأصوات حين تتجه دراساتهم إلى اللغة؛ هو الكشف عن البنية الداخلية لها، ومن ثم الناحية الصوتية والإيقاعية. ولا أدل من أن هذه الدراسة يتميز بها خطاب الله تعالى، فهو لا يختلف عن اللغة في حروفها وحركاتها وكذا اشتقاقاتها.

والبحث في سماته الصوتية هو البحث في إيقاعه الموسيقي أولا وفي فواصله المتشكلة في أواخر كلماته ثانيا، ذلك أن «أول شيء أحسته تلك الأذن العربية هو هذا النظام الصوتي في نظم القرآن، فقسمت الحركة والسكون تقسيما منوعا تجدد نشاط السامع، كما وزعت في تضاعيف حروف المد والغنة توزيعا بالقسط يساعد على ترجيح الصوت به إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها

---

[1]_المرجع السابق، ص273.

راحته العظمى»[1]. وبما أنه «ائتلاف رائع يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس، فهذه الطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام من منظوم ومنثور»[2].

هذا وإن الصوت ماهو إلا مظهر من مظاهر الحالات النفسية التي يعتريها الانفعال من غضب وفرح وشدة ويسر... ويعد السبب الأكيد في "تنوعه بما يخرجه فيه مدأو غنه أو لين أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب مافي النفس من أصولها"[3].

ولعل في هذا إثبات لمخارج حروف العربية التي فيها تنوع أخاذ في كل واحدة منها «فتشعر بلذة في وصفها في خطاب حروف القرآن فهذا يهمس وذاك يجهر... فيتجلى لك جمال لغته حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة الجامعة بين ماهو لين وشده وخشونة ورقة، مع جهر وخفية...هذا وقد امتزجت فيها جزاله البداوة في غير خشونة برقة الحضارة من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة، ...»[4].

وفي إيقاعه الموسيقي البارز، نشعر به- كذلك-أثناء قراءته، بأنه «يأسر قلوبنا ويسحرها ويجعلها تصغي إلى معاني الآيات....فيحرك المشاعر من خلال تآلف حروفه مخرجا وصيغة وحركة أولا، ثم من وزن الكلمة ونوعها واشتقاقها وطولها أو قصرها وحركة المدود فيها ثانيا... ومن نظام الجملة ونسقه واتساقه وتساويه ثالثا...» [5]وهكذا...

وهاهو الرافعي يتحدث عن نوع الإعجاز الموجود في النظم الموسيقي في القرآن، حين أرجع ذلك لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، مع مناسبة بعضها لبعض، «وما يقال عن تكوين الحروف يقال أيضا عن تكوين الكلمات...فهي تصف الموسيقية في القواعد، والموسيقية في المعاني إلى الموسيقية الملحوظة من مجرد النطق أو السماع بغير معنى يتم به التخاطب بين المتكلمين»[6].

---

[1]_ محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم" نظرات جديدة في القرآن"، دار القلم، الكويت، ط4، (1977م)، ص103.

[2]_ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط2008 ج2، ص223.

[3]_ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (2000م)، ص153.

[4]_ الزرقاني، المرجع السابق، ج2، ص225.

[5]_ عبد السلام أحمد الراغب، الدراسة الأدبية (النظرية والتطبيق)، نصوص قرآنية، دار القلم العربي، ط1، (2005م)، ص80.

[6]_المرجع نفسه، ص81.

ثم إن المفردات العربية تعتمد في تركيبها الفني على "الوزن"، ولعله «أساس التفرقة بين أقسام الكلام...فالفرق بين الكلمة ومشتقاتها هو فرق بين أفعال وأسماء وصفات وأفراد وجموع»[1] وهي كلها إيقاعات تبين معنى العنف أو الشدة، الهدوء والرقة فيتدفق منها بمقدار مناسب للمعنى المراد.

هذا وان « الإيقاع الذي تشكله الفاصلة القرآنية يستدعي من المتلقي نفاذا حيويا كبيرا إلى بنية مقاطع السورة القرآنية لإدراك صياغة كل نسق إيقاعي ودلالي في درجة اتساقه وانسجامه مع بقية المقاطع والفواصل التي تستند إلى مبدأ التنوع العفوي الرقراق»[2].كما أنه لا ينفصل أداؤه عن الجمالية التي يضفيها على الجمل والتراكيب «فإذا كان لكل كلمة طاقة إيقاعية، فإن التراكيب تتفاعل معها لتؤسس بنية متكاملة في الإيقاع والدلالة تنسجم مع الفاصلة وتؤدي مفهوم تماسك أجزاء كل مقطع قرآني، أو كل سورة من السور[3]. «فالفاصلة بهذا هي أهم منجز أسلوبي، وهي الأكثر بروزا في النص الكريم»[4].كما أنها الأبرز في أداء الصوت فيها، خاصة في قصار السور، حيث تشعر بإيقاعها الداخلي في سياقاتها، باعتبارها فواصل سريعة.

وعليه نستطيع الإلمام بخصوصية الجو الإيقاعي الذي تعيشه مع الآية والآيات كما يلي:

1-قد «يتنوع أسلوب الموسيقى وإيقاعها بتنوع الأجواء التي تطلق فيها .فهي في جو التحريف والزجر سريعة الحركة، قصيرة الموجة، قوية المبنى في جو سرد القصص، وانية الحركة، رخية الموجة، متوسطة الطول، وفي جو الدعاء متموجة رخية طويلة خاشعة»[5].

2-قد«يتم التصوير الفني في القرآن باللون وبالحركة وبالإيقاع، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور التي تتملاها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان»[6].

2- نظام الحروف والكلمات:

---

(1)_المرجع السابق، ص81.

(2)_ حسين جمعة، التقابل الجمالي في النص القرآني، منشورات دار النمير للطباعة، دمشق، ط1، (2005)، ص209.

(3)_المرجع نفسه، ص209.

(4)_ عبد الباسط عيد، المرجع السابق، ص128.

(5)_بغدادي، المرجع السابق، ص319، (انظر في ظلال القرآن، ص97).

(6)_المرجع نفسه، ص319.

إن أهم ما يميز الحرف في العربية، أنه قد يدل على معنى في غيره، وقد يستخدم للاستعلاء ولانتهاء الغاية، وللظرفية والتعقيب وغيرها، أما في خطاب الله تعالى، فقد قال العلماء أن كل حرف له مدلوله الخاص به، وقد أجاد هذا التعبير في استخراجها لإيصال المعنى.

وفي الحديث عن مدلول اللفظة التي لاتستغني بدورها عن مكانها في الجمل القرآنية، حديث عن مساهمتها الفعالة في تشكيل الدلالة التي تفردت بها في أسلوبه، فالمفردة هي « المجموعة الصوتية التي تدل على معنى، وهذه المجموعة هي وحدة كلامية تقوم مقام الجزء من الكل في الجملة، كما أنها الجزء الأولي في بناء النظم، والوحدة المكونة له، فلا يغني أحدهما عن الآخر»[1].

ولو رجعنا إلى كنه وأسرار الكلمات باعتبارها الوحدات اللسانية الأصغر نقول إنها «ليست أشياء غامضة تغلفها الأسرار والألغاز، وإنما هي أحداث لها بعدها الزماني والمكاني، بمعنى أن لها بعدا ماديا، وأن لها معاني ترمز إليها» [2].

ثم إن القدماء قد تنبهوا لهذه الأهمية التي تكتسيها مفردة البيان الرباني، ولا أدل من ذلك في اعترافهم بحيويتها وديناميتها وخصوصيتها وانسجامها، ثم تأثيرها في المتلقي، وفي سياق بلاغة القرآن حتى أنها تضفي «جمالا حسيا بصريا...في توصيل الصورة الفنية إلى الذهن، كما تعمل على تجسيم المعنويات وتشخيص الأشياء وبث الحركة والحيوية في الصورة، وهو جمال حسي سمعي يبين جوانب موسيقية فيها من حيث وقع حروفها، وصفات هذه الحروف، وملاءمتها للمقام.... إضافة إلى أنه جمال نفسي للقلب فيه النصيب الأكبر في تلقيه....ذلك أن جمال المفردة القرآنية تصويري، صوتي، فكري، ومعنوي»[3].

هذا وان كلماته سبحانه وتعالى لا مداد لها ولا أقلام، وذلك امتثالا لقوله جل وعلا: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:27] ولعلها إشارة لطيفة إلى أن عملية التواصل فيه لا تنفذ أبدا، فخطابة متواصل ومتسلسل وغير منقطع، حتى لو أخذ الله الأرض ومن عليها. وبذلك يتشكل هذا الخطاب من كلمة

---

[1]_ أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، إشراف: نور الدين، عتر، دار المكتبي، دمشق، ط1، (1994م)، ص20.

[2]_ محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان، ط1(1994م)، ص68.

[3]_ أحمد ياسوف، المرجع السابق، ص20.

اتصلت بغيرها في بناء موحد، فكانت تمهيدا لمناخ التأقلم مع نوع الخطاب الموجه إلى «تغيير أوضاع متلقين له.... مستخدما خصائص الكلمة التقويمية والاقتضائية القائمة في اللغة... ذلك أنها أكثر تأثيرا في ذهنهم على أساس أن الكلمة المختارة أعلق بعالم خطابهم وأمضى أثرا فيه بما لها من زوائد معنوية جاءتها من استعمالات هذه اللغة»[1] القرآنية التي من يتداولها سيجعلها فعلا «مؤهلة — بطبيعتها لتكون ذات صبغة حجاجية»[2].

«وفي العلاقة بين المعاني التي تلج في صدر الإنسان، والمظاهر التي تستجيب للحس، علاقة متينة... تؤكد أن البيئة التي تحيط بالفرد تؤثر عليه في جميع جوانب حياته، خاصة في الطريقة التي يقصدها لتوضيح معنى دون غيره»[3].

ولعل عملية الفهم في العصر الجاهلي، كانت أبسط في الإدراك، وأسهل في الوصول إلى المعنى المقصود ذلك «أن فهم البدوي يرتكز على البداهة والارتجال، .... فهي لديهم أكمل من رويتهم... وميلهم إلى التفسير الحسي هو الطاغي مقارنة بالتفسير العقلي»[4] الذي كان سائدا في العصر الإسلامي فكان منها هذا التحول للألفاظ العربية التي «تجردت كثيرا من معانيها العامة القديمة، بأن أصبحت تدل على معان خاصة تتصل بالعبادات والشعائر وشؤون السياسة والإدارة والحرب.... ففتح القرآن الكريم أمام اللغة العربية آفاقا جديدة نقلها إلى ميادين واسعة هي من عمق الإحساس والتفكير، بعد أن كانت تدور في فلك المشاعر والعواطف البسيطة، من خلال حياة البادية وطبيعة نظام القبيلة»[5]، وهي كلها عناصر سياقية لا يتخلى عنها الكلام بإشارات ومواقف تخدم المعنى وتقويه، فكان منها أن توصل العلماء القدامى إلى أهمية دراسة المعنى إلى جانب الدراسة التركيبية للجمل بإبراز أهم الملامح التي تعتري مكوناته من فعل وفاعل ومفعول به ومبتدأ وخبر...

وعليه فإن هذا القرآن هو الذي «أضاف إمكانات كبيرة للنحو بالمفهوم الجمالي التركيبي، واستحدث طرقا فنية للربط بين مفرداته وجمله وعباراته، مع خلق دلالات متنوعة تتوافق مع أغراضه

---

[1]_ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دارالفارابي، بيروت، ط3(2007م)، ص69.

[2]_ المرجع نفسه، ص74.

[3]_عبد الله عبد الناصر جبري، لهجات العرب في القرآن الكريم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(2007)، ص218.

[4]_عباس أمير، المعنى القرآني بين التفسير والتأويل، دراسة تحليلية معرفية في النص القرآني، الانتشار العربي، بيروت، ط1، (2008)، ص149.

[5]_ عبد الناصر جبري، المرجع السابق، ص220.

وأهدافه، كما يؤكد لنا أمرا شديد الأهمية، وهو أن تركيب الصيغ والعبارات شديد الالتحام بعملية الإبداع»[1] الذي انبثق فعلا من وشائج القرابة التي تكونها الألفاظ مع تراكيبها.

يقول الخطابي: «اعلم أن القرآن إنما صار معجزا، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني»[2]، فالائتلاف القائم في التراكيب، إنما هو الإعجاز بعينه، ذلك أن النظم الذي تحدث عنه عبد القاهر الجرجاني هو وجه من وجوهه إذ «أعجزت –العرب– مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص سياق لفظة، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها...فوجدوا اتساقا بهر عقولهم...ونظاما والتئاما وأحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول»[3].

فالصيغ المذكورة في جمل القرآن–على هذا الأساس– لا تختلف عن الصيغ الموجودة في عصر الجاهلية، وخاصة في شكل بنائها المعروف، وهي تتميز بأمرين، أولاهما: «ورود ألفاظ اكتست دلالات إسلامية ضمن التراكيب القرآنية كالصوم، الصلاة والزكاة...وغيرها من الألفاظ التي اكتست دلالات شرعية أو قانونية أو عرفية جديدة، وأخراها: ائتلاف الألفاظ بعلاقات خاصة بعضها مألوف وبعضها الآخر غير مألوف، والمراد به نسج الألفاظ في بناء تركيبي يحمل دلالات كثيرة، ويحمل على التفكير والتأمل واحتمال المعاني المتعددة بأساليب مختلفة» [4]. فمهما تعددت الآراء حول أنماط التراكيب والجمل المبنية في السياق القرآني ,إلا أنها لاتعدو أن تكون نظما عربية صاغها الشعراء في جاهليتهم بقصائدهم الجميلة.

2–مميزاته من ناحية الموضوعات والأغراض:

لعل أهم موضوع يميز خطاب الدين هو موضوع الخطابة التي تعد من أبرز وسائل التواصل بين البشر، وذلك لما لها من أهمية كبيرة في العصر الجاهلي، ثم هي ذات مكانة عالية في عصر الإسلام.

ولأنه جاء مخاطبا شغاف القلب إضافة إلى أنه يتماشى أكثر مع العقل فقد «ألغى بمجيئه

---

[1]_ البلاغة والأسلوبية، المرجع السابق، ص22.

[2]_كريم حسين ناصح الخالدي، الخطاب النفسي في القرآن، دار صفاء للنشر، عمان، ط1، (2007)، ص22.

[3]_المرجع نفسه، ص33.

[4]_المرجع نفسه، ص34.

بعض الأغراض اللغوية التي تتنافى مع ما يسمو إليه، كالمفاخرات التي تثير الحقد والضغائن، وأبقى بعض الأغراض التي رأى فيها الخير لأمته كالكرم ومكارم الأخلاق، والمؤازرة والنجدة والضيافة، كما استحدث أغراضا جديدة متسقة مع ما تفرضه حيثيات هذا الدين»[1]...وقامت بذلك أكبر أمة يذكرها التاريخ، بعراقتها وأصالتها وتراثها، ولغتها الموحدة بما أرسى لها هذا الدين الجديد قوانين ومبادئ جليلة النفع عظيمة الجدوى في الحياة والممات.فقلب نظام حياة العرب رأسا على عقب، بأن غير نمط حياتهم من كل جوانبها، قصد إسعاد الناس جميعا، إضافة إلى شموليته وعالميته وإحاطة تعاليمه بكل تفاصيل الخلق والمخلوقات هذا وقد أشار مالك بن نبي إلى هذه الخصائص حين تحدث عن الموضوعات التي تناولها التنزيل الحكيم بقوله:« إن رحابة الموضوعات القرآنية، وتنوعها لشيء فريد، طبقا لتعبير القرآن: ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ﴾ [الأنعام:38]فهو يبدأ حديثه من ذرة الوجود المستودعة باطن الصخر، والمستقرة في أعماق البحار، إلى النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم، وهو يتقصى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني، فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس، وهو يتجه نحو ماضي الإنسانية البعيد ونحو مستقبلها، وكيما يعلمها واجبات الحياة وهو يرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابع، ثم يدعونا إلى أن نتأمله لنفيد من عواقبه عظة واعتبارا..» [2].

ولعلها مهمة القرآن الأساسية في سرد أحداث السابقين بالقصص أو المثل، وذلك لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، كما هي طريقته في السرد التي تختلف عنها عند العرب، وإن كان عندهم منها فهو الشيء القليل، ذلك أنه « اتسع في ذكر قصص الأنبياء السابقين في أسلوب تهيج له النفوس وتدفعها إلى الاستزادة منه، وتعرف ما عند الأمم الأخرى كاليهود والنصارى حتى نصب أنفسهم لذلك النوع منهم: تميم الداري، وهب بن منبه، وكعب الأحبار»[3].

وعليه فإن طبيعة القصة فيه تختلف عنها في الكتب السماوية الأخرى، فهو لا يستهدف منها فقط سرد أحداثها التاريخية كما هو الحال بالنسبة لقصص بني إسرائيل في العهد القديم، وإنما يسوقها-كما ذكرنا سابقا- وعندما كان أسلوبه متفوقا عن كل أسلوب، اشرأبت له الأعناق

---

[1]_ عبد الناصر جبري، المرجع السابق، ص222.

[2]_ بغدادي بلقاسم، المرجع السابق، ص54، (انظر الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص195).

[3]_ أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، م س، ص115.

والقلوب لتنهل منه ومن معانيه التي لا تنضب أبدا، فكان كالنبع الجاري الذي لا تدري أوله من آخره فهو«أحيانا يلين حتى يريهم الماء في سلاسته والنسيم في رقته ولطفه، وأحيانا يهدأ ليدع لهم فرصة يتعلمون فيها منه أصول الدين ومكارم الأخلاق»[1].فتكون خطاباته-بذلك- متلونة باختلاف المناسبات والأحوال التي تعكس المجتمع الجاهلي، بعدما كانت المنفعة الذاتية والشخصية طاغية أكثر من المنفعة الجماعية، وما يزال محور القرآن فيهم هو تقويم أخلاقهم وإصلاحها، باعتبارهم﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾كما جاء في سورة آل عمران: الآية: 110.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقر فكرة الجزاء مبدأ للإيمان بالله وحده، والفوز بالنعيم والجنة في اليوم الآخر، إضافة إلى الإيمان بالجزاء العاجل في الدنيا، كما حصل للأمم البائدة من عذاب وعقاب لهم من مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام:11].

هذا وإن من أهم الطرق الموصلة إلى استمالة قلوب الناس وإقناعهم، أنه استخدم طرقا عملية في دنيا البشر وجميع الكائنات الحية وهي:

1-طريقة الخطاب عن طريق التصوير الفني.

2-طريقة الخطاب النفسي والعقلي.

3-طريقة الخطاب بالنظر الثاقب في الكون والحياة

أما الطريقة الأولى فقد كانت السمة الغالبة لتعبيره سبحانه «بتصويره للمعاني الذهنية وللحالات النفسية عن طريق إبرازها في صور حسية لمشاهد طبيعية وحوادث ماضية وقصص مروية، مع مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب»[2] ولعلها طريقة البلاغة في عرض أنماط التصوير الفني الذي أشار إليه القدماء، وهي مقسمة عند "سيد قطب" إلى طريقتين:

«**أولاهما** طريقة تجريدية: معانيها تخاطب الذهن والوعي وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجملية، أما **الثانية:** فهي الطريقة التصويرية التي يعبر فيها عن المعاني بصورة محسوسة مشخصة تبدو

---

[1]_المرجع السابق، ص127.

[2]_سيد قطب، النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، دار الشروق، ط7، (1993م)، ص148.

للقارئ وكأنها شريط يتحرك أمام عينيه...إذ تخاطب الحس والوجدان، وتصل إلى النفس من منافذ شتى، من الحواس بالتخيل- ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء»[1].

ثم هو يؤكد نجاعة هذه الطريقة من الناحية النفسية، فيقول :« إن لها شأنا فوظيفة الفن الأولى هي إثارة الانفعالات الوجدانية، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الآثار، وإحاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات، وتغذية الخيال بالصور لتحقيقه هذا جميعه.... وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل»[2].

هذا وقد تنبه الباقلاني في كتابه"إعجاز القرآن" إلى طريقة التصوير الفني متحدثا عن مكمن البلاغة فيها فيقول «وتصوير مافي النفس، وتشكيل مافي القلب، حتى تعلمه، وكأنك مشاهده، وإن كان يقع بالإشارة، ويحصل بالدلالة والإمارة، كما يحصل بالنطق الصريح والقول الفصيح، فالإشارات أيضا مراتب، وللسان منازل»[3].

ثم تأتي طريقة الخطاب النفسي والعقلي لتوضح أفضل أسلوب تخاطب به الإنسان-هو عقله ومشاعره وأحاسيسه، ففي الأول إقناع بالحجة والبرهان وفي الثانية تحريك لنوازع الخير علها تتأثر بفطرتها إلى ما يهدف النص القرآني إلى توجيه النفوس بالتوغل في أعماقها وغرس الإيمان السليم والعقيدة السوية.

ثم إن من أهم «الموضوعات التي حوت المشاعر والأحاسيس، تلك التي ارتبطت بالإنسان، وبمواقفة المختلفة.....خاصة المواقف الحرجة مثل موقف مواجهة الموت (كعرض سلوك المنافقين عندما يدعون إلى الجهاد) أو في مواطن الخوف والهلع الشديد أو عند الغضب أو الطمع أو الفرح، أو الإعجاب أو الحسد أو التكبر أو العناد...مع ملازمة هذه الصورة الداخلية بالسمات الخارجية كملامح الوجه أو نبرات الصوت وحركات الجسم»[4].

يقول رمضان البوطي« إن القرآن لا يخاطب العقل وحده على نحو ما، فهو يعلم من الطبيعة

---

[1]_ رشيد ميموني، المرجع السابق، ص125-126، (انظر التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص195.

[2]_ سيد قطب، المرجع نفسه، ص148.

[3]_المرجع نفسه، ص126.

[4]_ رشيد ميموني، المرجع السابق، ص126.

سائر أنواع الكلام، ولكنه يخاطب كلا من العقل والخيال والشعور معا....سواء كان يأمر أو ينهى أو يخبر ويقص أو يعلم أو يشرع أو يحدث عن غيب أو يحذر من عذاب»[1].

«ففي النفس الإنسانية قوتان–قوة وجدان، وحاجة كل وحداة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معا»[2].

وفي الأخير طريقة الخطاب المتميزة بنظرة ثاقبة للكون والحياة، ذلك أن القرآن كان ولا يزال منبعا لثقافات شتى وميادين مختلفة، من فكرية وعلمية وأدبية، فيلفت نظرنا إلى هذا الكون بشكل واسع ودقيق.

ولعل هذا الالتفات إنما هو دعوة للإيمان باختلاف مدارجه ومسالكه، « فهو يرى أن نظر الإنسان إلى العالم يدعم إيمانه ويقوي يقينه، ففي الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، والإبل كيف خلقت، والسماء كيف رفعت....هي آيات الله، كما أن في الأحداث التاريخية من الأنبياء وأممهم ما يدعو إلى الإيمان...» [3].بلغة سليمة تدعو إلى التواصل بها، ذلك أنها وسيلة للتأثير في العالم وتغيير سلوكات الناس..

---

[1]_المرجع السابق، ص127، (انظر: من روائع القرآن، البوطي، ص991).

[2]_ عبد الله دراز، المرجع السابق، ص113.

[3]_ أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، (2005م)، ص248.

المبحث الرابع :تداولية الخطاب الوعظي القرآني:

1-نشأة التداولة:

لقد انشغل القدماء بدراسة "السياق" وخاصة "المقام" المقترن بالظروف الخارجية، وبأحداث قد تؤثر في ذات المتكلم والمستمع من جهة، وبالخطاب المعبر عن مقاصد متعددة بإحالته إلى سياقات الكلام والتعبير من جهة أخرى. فكان منها أن ارتبطت التداولية كعلم حديث، بما يتعالق وخصوصية هذه السياقات باعتبارها فعلا"للإيجاز" والاستعمال، فإذا ما رجعنا إلى القدامى نجد أنهم لم يكونوا ليهملوا «استعمال اللغة في مدوناتهم، بل التفوا إليها من زاويتين:

أولاهما النظر إلى الاستعمال بوصفه سابقا عن التنظير، لاستخراج القواعد اللغوية، وثانيهما هي إبرازهم لبعض هذه الاستعمالات المرتبطة بما أسميناه –بالسياق»[1].

فتكون الدراسة هنا متجاوزة «للنحو والدلالة دون إهمالهما، ثم دراسة المتكلم صاحب المنطوق اللغوي، مع ما يتصل به من تعلقه بالرسالة، كيف نطقها؟ ولماذا؟ وما هو هدفه منها؟»[2].

هذا وقد تناول الشاطبي مصطلح "السياق" تحت اسم "المساق" وعرفه بأنه قد «يختلف باختلاف الأحوال والنوازل، شرط الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال ولا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره، فبذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف»[3].

وعليه فإن التداولية بهذا المفهوم، تدرس في علم المعاني والبيان، فتخصص البلاغة بذلك جزء للعناية بها والحديث عنها تحت اسم "الخبر والإنشاء"، ولعل هذا التصنيف يعود في أصله إلى «مدرسة السكاكي الذي اكتفى بتقسيم الكلام من حيث مطابقته أو عدم مطابقته للواقع ثم قام شارح السكاكي الأول-أي القزويني-وسائر من تبعه من الشراح بتقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء

---

[1]_الشهيري، المرجع السابق، ص26.

[2]_علي محمود حجي الصراف، فن البراجماتية: الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، 1، 2001، ص7.

[3]_ المرجع نفسه، ص128.

معتمدين على مجموعة من المعايير التي ميزوا على أساسها بينهما»[1].

1-معيار قبول الصدق والكذب: وهو التمييز الأشهر بينهما، إذ إن الخبر يقبل الصدق أو الكذب، أما الإنشاء ما لا يقبل الصدق أو الكذب.

2-معيار مطابقة النسبة الخارجية: فالخبر هو الكلام التام المفيد، وهو الخطاب التواصلي الذي لنسبته الكلامية نسبة خارجية، والإنشاء ليس له تلك النسبة.

3-معيار إيجاد تلك النسبة الخارجية: فما تم من الكلام وأمكن السكوت عليه يتضمن نسبة المسند إلى المسند إليه، فإن كان القصد منه الدلالة على أن تلك النسبة حصلت في الواقع بين معنى المسند ومعنى المسند إليه، فذلك الكلام خبر، وإن كان القصد منه الدلالة على أن اللفظ وجدت به تلك النسبة فالكلام إنشاء.

4-معيار قصد المتكلم: التي اتخذها العلماء قرينة مساعدة، فيصبح الكلام خبرا إذا انظم إلى اللفظ قصد المتكلم الإخبار به، وإنشاء إذا انضم إلى اللفظ قصد إيجاد النسبة الخارجية.

5-معيار عدد النسب: للخبر ثلاث نسب وهي: كلامية وذهنية وخارجية، أما الإنشاء فله نسبتان: كلامية وذهنية.

وبهذا تعد ظاهرة الخبر والإنشاء «في التراث حقلا مشتركا بين تخصصات علمية متعددة اشتغل ببحثها الفلاسفة وعلماء البلاغة والنحاة وعلماء الأصول.... إذ ألفوا فيها مؤلفات، وعمقوا البحث فيها أمثال: سيبويه والفارابي، وابن سينا والجرجاني، والقزويني والسكاكي والآمدي... وهم وإن تعددت أراؤهم حول الظاهرة، فإنهم يلتقون على صعيد إجرائي هام ولاسيما المتأخرين منهم، إذ أنهم توغلوا في استعمال أدوات التحليل المنطقية التي كانت على قدر كبير من الدقة والتجريد»[2].

أما التداولية باعتبارها من المناهج الحديثة، فقد دخلت مجال الدراسات اللغوية المعاصرة، لتنكب على «الاهتمام بكشف الدوافع النفسية للمتكلمين، وردود أفعال المتلقين، وتبين الطابع

---

[1]_المرجع السابق، ص101-102.

[2]_ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب(دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1 (2005م)، ص50-51.

الاجتماعي للكلام» [1].

فكان أول استعمال لمصطلح pragmatique ينسب للفيلسوف الأمريكي شارل موريس، وذلك سنة 1938م، حين عدها« جزء من السميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات وبمستعمليها»[2]، «وبظروف استعمالها، وبآثار هذا الاستعمال على البنى اللغوية»[3]. حتى استقر «في ذهنه أن التداولية تقتصر على دراسة ضمائر التكلم والخطاب، وظرفي المكان والزمان مع التعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئيا خارج اللغة نفسها، أي من المقام الذي يجري فيه التواصل»[4].

ولا يخرج الفيلسوف فتجنشاين عن تقديمه للغة من ناحيتها العملية فهي « عنده وسيلة الاتصال بين الناس، وقد طوروها بحيث تخدم أغراضهم المختلفة، لنشاطات حياتهم المتعددة»[5]، كما «أصبح تحليلهم لها بمثابة الكشف عن التشكيلات اللغوية التي تستخدم فيها الألفاظ... وأصبح تحليلهم معنى اللفظ لا يعني البحث عما يشير إليه، بل هو الكشف عن الطريقة التي يستخدم بها في اللغة بالفعل»[6]، فاتصفت بأنها علم كثيف وغزير، خاصة حين اعترف كارناب بأنها في إطار اللسانيات دائما هي «تحاول الإجابة عن أسئلة اللغة، من مثل: ماذا نصنع حين نتكلم؟ وماذا نقول بالضبط؟»[7].

بينما يرى ليتش أنه قد يكون هذا «المنهج التداولي حلا لبعض مشكلات المرسل والمرسل إليه، إذ يبحث الأول عن أفضل طريقة لإنتاج خطاب قد يؤثر في المرسل إليه، والآخر يبحث عن أفضل كيفية للوصول إلى مقاصد المرسل كما يريدها عند إنتاج خطابه لحظة التلفظ وفقا لعناصر

---

[1]_ محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد، ط1(2006)، بيروت، 279.

[2]_ أرمنيكوفرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة-سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، ط، 1986، ص08.

[3]_ محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقيه، منشورات الاختلاف، ط1، (2008)، ص48.

[4]_آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ترجمة، سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1(2003م)، ص29.

[5]_ الكواز، المرجع السابق، ص280.

[6]_المرجع نفسه، 280.

[7]_ منذر عياشي، العلاماتيه وعلم النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، (2004م)، ص23.

السياق»[1].

هذا وقد أجاد كل من اللسانيين: آن ماري دبير وفرانسوا ريكاناتي حين عرفاها بقولهما: «هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب مشاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية»[2]. مع موافقة فرانسيس جاك لهما بهذا التعريف باعتبار أن «التداولية تتطرق إلى اللغة، كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معا»[3]. فلا وجود لها خارج نطاقها، ذلك أن علماء الغرب قد أجمعوا على تحديد ماهيتها في دائرة دائرة القدرة والاستعمال، فاستنبطت بذلك أهم نظرية في هذا المجال، وهي نظرية الأفعال الكلامية التي قامت على آليات تبادل الكلام والمعلومات بين الطرفين بشرط قدرة هذا الفعل الكلامي على تغيير ما يعتقده الطرف الآخر من مفاهيم وأفكار وسلوكات، كانت تتحكم فيها بشكل أو بآخر بيئة ومجتمع الفرد أو حتى تربيته الشخصية داخل المنزل ولعل هذا قمة التواصل الناجح، ذلك أن التغيير هو نتيجة حتمية لتواصل فعال وبناء، فلا يفهم الفعل الكلامي إلا إذا وضعناه في بوتقة العلوم الإنسانية التي تستقطبه، كعلم النفس وتقنيات التعبير من بلاغة وخطاب....

وبهذا اختلفت التوجهات والآراء باختلاف التخصصات إذ« تستأثر هذه النظرية باهتمام الباحثين في جوانب النظرية العامة لاستعمال اللغة، فعلماء النفس يرون اكتسابها شرطا أساسيا لاكتساب اللغة كلها... ونقاد الأدب يرون فيها إضاءة لما تحدثه من تأثير في المتلقي....أما في الدرس التداولي فإن الأفعال الكلامية تظل واحدا من أهم المجالات فيه، إن لم يكن أهمها جميعا»[4].
جميعا»[4].

كما تظل هذه الأفعال كذلك وليدة الفلسفة التحليلية، التي من روادها الألماني: غوتلوب فريجة ولودفيغ فيتجشتاين، وتبعهم أوستين الذي يرى أن اللغة ما هي إلا مساحة هامة تتاح لإنجاز الأعمال والأفعال، فنجده قد تأثر بما جاء به فتجنشاين" من أنها قد تستخدم لوصف العالم من حولنا، بيد أن هناك حشدا من الاستعمالات الأخرى لها لاتصف وقائع العالم، كالأمر والاستفهام والشكر والتحية والدعاء....أطلق عليها ألعاب اللغة...لأن له قواعد يتفق عليها مستعملو اللغة،

---

[1]_المرجع السابق، ص23.

[2]_ أرمينيكو فرانسواز، المرجع السابق، ص8.

[3]_المرجع نفسه، ص8

[4]_ محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية، (ط2002)، ص40-41.

كما يتفق اللاعبون على قواعد اللعبة»[1].

هذا وقد ميز أوستين بين ثلاثة أنواع من الأفعال الكلامية وهي: «عمل قولي يتحقق بمجرد التلفظ بالشيء، ثم العمل المتضمن في القول والذي لا يتحقق إلا بقولنا شيئا ما، أما الثالث فهو عمل بالقول يتحقق نتيجة قولنا شيئا ما وهو عمل التأثير بالقول»[2].

ولأنها أعمال لغوية، فهي لا تخرج عن خمسة أقسام كذلك:

«1-الحكميات:-حكم يصدره قاض أو حكم.

2-تنفيذيات: تدور في بوتقة اتخاذ القرارات كالتعيين والعزل والطرد ونحوهن.

3-الوعديات: المتمثلة فيما يقطعه المتكلم على نفسه من عهود ووعود.

4-السلوكيات: يكون فيها رد فعل لحدث ما، كالإعتذار والتعاقد والقسم.

5-الفرضيات أو التبينيات: وتتمثل فيما يستخدم لأجل الإيضاح أو بيان وجهات الرأي»[3].

أما تلميذه سيرل، وهو فيلسوف أمريكي، فقد ركز جل اهتمامه على الأعمال المتضمنة في القول حيث« ميز داخل الجملة بين ما يتصل بالعمل المتضمن في القول في حد ذاته، وهو ما يسميه القوة المتضمنة في القول وما يتصل بمضمون العمل وهو ما يسميه بالمحتوى القضوي»[4].

ورغم مخالفته لأستاذه في تقسيم الأعمال اللغوية، إلا أنه يؤيده في مضامنيها وهي: التقريريات[5]، الطلبيات[6]، الوعديات[7]، الافصاحات[8]، والتصريحات[9].

أما عند فرانسوا أرمنيكو فهي ثلاث درجات:

---

[1]_المرجع السابق، ص60.

[2]_ فرانسواز، المرجع السابق، ص31-32.

[3]_ نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية، المرجع السابق، ص4.

[4]_ محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف، ط1(2008م)، ص33.

[5]_ التقريريات: الغرض منها هو وصف واقعة تحتمل الصدق والكذب.

[6]_ الطلبيات: الغرض منها حمل المخاطب على أداء فعل أو عمل معين.

[7]_ الوعديات: أن يلتزم المتكلم بالقيام بعمل ما في الزمن المستقبل.

[8]_ الافصاحات: الغرض منه التعبير عن حالات نفسية انفعالية تجاه الوقائع.

[9]_ التصريحات: الغرض منها إحداث تغيير في العالم الخارجي.

«**1-تداولية الدرجة الأولى:** تهتم بدراسة الرموز الإشارية، ولها سياق خاص هو السياق الوجودي أو الإيحالي.

2-تداولية الدرجة الثانية: تدرس تعبير القضايا في ارتباطها بالجملة المتلفظ بها في الحالات العامة.

3-تداولية الدرجة الثالثة: وهي نظرية أفعال اللغة، والسياق هو الذي يحدد فيها التلفظ الجاد أو الدعاية»[1].

و الملاحظ على هذه التداوليات المتدرجة، أنها مرتبطة كلها بالسياق العام للكلام، فمنها الذي يفهم بالإحالة الخارجية، ومنها المقترن بالمفاهيم الضمنية والتي لا يكون تفسيرها إلا بواسطة التأويل.

أما عن مصطلح التداولية، فإننا نجد تعددا في تسمياتها، فمرة يعرفونها بالبراغماتية، وأخرى بالذرائعية، والأشهر فيها هو مصطلح التداولية.

فالبراغماتية بالمفهوم اللساني« تشير إليها الكتابات المتخصصة على أنها توجه معرفي يعتني بخصائص استعمال اللغة، وبالدوافع النفسية للمتكلمين وردود أفعال المستقبلين والنماذج الاجتماعية للخطاب وموضوعه، ثم سرعان ما تحولت فيما بعد مع أوستين الى دراسة أفعال اللغة، وامتدت واتسعت لتشمل نماذج الاستعمال والتلفظ، وشروط الصحة والتحليل الحواري»[2].

في حين أن الذرائعية ما هي «إلا نظرية تهتم بالفائدة العملية لفكرة ما من حيث معيار صدقها»[3]، إلى أن جاء مصطلح التداولية كحقل شامل لجميع الاختصاصات لتعرف في الدرس العربي بأنها «الفرع العلمي المتكون من مجموعة العلوم اللغوية التي تختص بتحليل عملية الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام»[4].

«فهي بهذه المفاهيم المتعددة ليست علما لسانيا صرفا يقف عند البنية الظاهرة للغة فقط، بل

---

[1]_ شيتر رحيمة، "التداولية وآفاق التحليل"، شير رحيمة، جامعة مجلة بسكرة، جوان 2008م.

[2]_نعمان بوقرة، اللسانيات، اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، ص161.

[3]_المرجع نفسه، ص161.

[4]_المرجع نفسه، ص162(انظر كتاب بلاغة الخطاب وعلم النص، ص10).

هي كما أكده جاك موشلار، علم جديد للتواصل يسنح بوصف وتحليل وبناء استراتيجيات التخاطب اليومي والمتخصص بين المتكلمين في ظروف مختلفة»[1].

هذا وإن من أقسامها التفريعية المتاحة في عملية التواصل، مع أوجه الإسقاطات العملية والتطبيقية لأحوال هذه العملية بمختلف ظروفها أنها وظفت الإشارة في اللغات الطبيعية، فكانت أساسا للتواصل المباشر بين الناس، منها إشاريات شخصية وإشاريات زمانية وأخرى مكانية واجتماعية، خطابية ونصية وهكذا....

وكذلك منها الافتراض المسبق الذي يجمع المعلومات التي ينجزها أي فعل لديه خصوصية الإنجاز لإنجاح منطوق جملة أو عدة جمل، مع مراعاة مقتضى الحال وشروط الملاءمة.

أما الاستلزام الحواري، فقد صاغه غرايس، ويقوم على تعدد المعاني التي يقدمها الخطاب، إذ إن الكلام بقسمين:الأول ظاهر وحرفي دلالي، والثاني قضوي وهو مقسم إلى أربعة قواعد هي: قاعدة الكم، والكيف، والجهة، وقاعدة الملاءمة.

هذا وإننا إذا قارنا بين الافتراض المسبق والاستلزام الحواري نقول إن للأول مهمة« افتراض المتكلم للشيء قبل التفوه بالكلام، أي هو موجود عند المتكلمين، وليس في الجمل، أما الثاني فهو شيء ينبع منطقيا مما قيل في الكلام، أي أن الجمل هي التي تحوي الاستلزام وليس المتكلمون»[2].

2-التداولية وعلاقتها بالخطاب القرآني:

حين كانت السمة الغالبة في تركيب الكلام هو المقام، فقد أولى القدماء والمحدثون عنايتهم به من وجهة تداولية وبلاغة، خاصة من ناحية البعد التأثيري في المتلقي، فكان هذا « الأسلوب محكوم به وبرعايته، إذ لولاه لكان الوصول إلى الطرف الأعلى من البلاغة هينا، ولأصبح كلام الناس لونا واحدا وطعما واحدا، ولكن الأمر يرجع إلى حسن الاختيار من هذه المتنوعات بحسب ما يناسب الأحوال والمقامات»[3]، ثم إن «وضع المتكلم-كذلك- وموقعه من العملية التواصلية، وغرضه من الخطاب، كلها معاني وظيفية، تدرس على نصوص القرآن والسنة النبوية ولعلها المعاني

---

[1]_المرجع السابق، ص162.

[2]_جورج بول، التداولية، ترجمة: قصي العتابي، دار الأمان، الرباط، ط1(2010م)، ص51.

[3]_ جمال حضري، المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1(2010)، ص232.

التي تطرأ على القول وتتغير من مقام إلى آخر»[1].

ولأن بعض الظروف والملابسات قد تكون مرتبطة بأسباب النزول في القرآن، ومحيطةبهذا النص الشرعي ومفسرة له، فقد عمد الأوائل إلى الإحاطة بها لما لها من أثر في فهم المعاني، فكانت منها أسباب خاصة وأخرى عامة، حصرت في الأحداث التي كانت تقع للمسلمين حيال موقف أو فعل، أورد فعل عما يحيط بهم من الطبقات الأخرى كاليهود والمشركين، أما العامة فهي الملابسات التي تدخل ضمن عادات العرب وحياتهم الاجتماعية والتاريخية، فكان مما نلحظه على الآيات أنها« تنزل لقضية واحدة، وإن وجدت في مواطن متفرقة من المصحف، لها ثابت بنيوي تنطلق منه لتفصيله أو تكميله أو تبيينه في الآيات المكية أو لتفصيله أو تقييده في الآيات المدنية»[2].

ولعلاقة ما تربط فيما بينها، فإنها توصف بعلاقات داخلية وأخرى خارجية، مقترنة بعناصر سياقية تساعد على فهم أعمق وأرسخ للظاهرة الكلامية كالبيئة، عادات العرب، المستوى الثقافي والاجتماعي.

فالبيئة مثلا لها الدور البارز في تشكيل سياقات الكلام مع الظروف المحيطة به، وبالمجتمع الذي هو جزء من هذه البيئة لما له من« أثر في تحديد معاني الألفاظ، لأنه يتداولها على نحو يختلف به عن مجتمع آخر، بل داخل المجتمع الواحد يختلف تداول اللفظ من زمن لآخر، فتداولها في عهد الجيل الأول من الصحابة، ليس هو تداولها فيما بعد»[3]. هذا وقد كان لنزول القرآن على العرب دور بارز في تشكيل خطاباته وتعدد أغراضه ومعانيه، سواء كان ذلك في الأوامر والنواهي، أم في الوعد والوعيد أم حتى في الإقبال على الشيء، أم الإدبار عنه، مشكلا بذلك منظومة من الأحكام العامة التي لا تخرج عن هذه البيئة التي صنعت أحداثها فاحتواها القرآن بقوالبه وصيغه اللغوية المختلفة.

فنجد أن للقرآن المكي أغراضه التي نشأ منها خطابه وذلك لخصوصية المجتمع المكي، الذي

---

[1]_ المرجعيات في النقد والأدب واللغة، مؤتمر النقد الدولي 13، (ط2010)، المجلد الأول، مقال« التداولية وتنوع مرجعيات الخطاب، حدود التواصل بين لسانيات الخطاب والثقافة»، عبد الفتاح يوسف، ص674.

[2]_ أشواق محمد إسماعيل النجار، الاقتضاء، دلالاته وتطبيقاته في القرآن الكريم، دار دجة، الأردن، ط1، (2008)، ص56.

[3]_ أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام، أعمال الندوة العلمية الدولية للرابطة المحمدية للعلماء، يونيو 2007، ط1، ص238.

شمل جميع المفاهيم والمعتقدات التي يشترك فيها، مع مدى تأثره بدائرته التي احتوته أثناء الدعوة المحمدية والتي انقسمت إلى قسمين:دعوة سرية وأخرى جهرية . ولعل الفرق واضح بين دائرة الدعوة في مكة والدعوة في المدينة« فالأولى-بقسميها- وخاصة الدعوة الجهرية مرت بمراحل من التصعيد وصولا إلى اليأس من قريش، وقرار الهجرة في ظل الدائرة المكية سياق من التخاطب مع من آمن من قريش وهم القلة، وتخاطب مع من كفر من قريش وهم الكثرة»[1]. «أما الثانية فتتسع فيها الدوائر تزامنيا وتعاقبتا، لوجود مخاطب جديد وهم أهل الكتاب، اليهود أولا، والنصارى ثانيا، إضافة إلى بداية التحول نحو الدولة، أي انتقال الإسلام من الدعوة إلى الدولة، وما يترتب على ذلك من سياقات تداولية تختلف باختلاف الطورين»[2]، كما لاننسى الخطاب الموجه للمنافقين وهم جمهرة غير قليلة في المدينة.

هذا وإنه لو رجعنا إلى عادات العرب في أقوالها وأحوالها نجدها قد اعتمدت في فهم ألفاظها من معرفتها لعادات المتكلم إذ «لا بد أن يكون هناك متكلم قد عرفت عادته ومستمع قد عرف عادة المتكلم بذلك اللفظ...ثم إن العادة شرط كل تواصل لغوي، بواسطة الكلمة التي تتحدد ضمن ما يعرفه المخاطب من سياقها اللفظي، وسياقها الثقافي الاجتماعي»[3]، ذلك أن «مرجعها هو عبارة عن معطى موجود في العيان والوجدان.... والناس لا يشتركون في العادات الملموسة، بل في المعاني المنطبعة في قلوبهم تتضمن المقتضيات النفسية والعقلية والاجتماعية التي ولدت فيها-ولها- الكلمة»[4].

وفي حديثنا عنها، حديث عن خصوصة الكلام في القرآن الكريم، ذلك أنه يراعي المستويات الثقافية والطبقات الاجتماعية الموجه لها الخطاب.

فنجد أن حديث الأغنياء يختلف فعلا عن حديث الفقراء، وحديث المؤمن لا يتشابه مع حديث الكافر أو المنافق... وهكذا مع المقيم والمسافر، المجاهد في سبيل الله، والمتخلي عن الجهاد

---

[1]_ مقاصد الخطاب القرآني بين المفسرين والتداوليين، إعداد: نارت محمد خيريحي قاخون، إشراف: نهاد الموسى، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العلمية، الأردن، ط2009، ص46.

[2]_المرجع نفسه، ص123.

[3]_أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية، المرجع السابق، ص239.

[4]_نادية رمضان النجار، اللغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين، مراجعة:عبده الراجحي، دار الوفاء، الإسكندرية، ص216.

لسبب من الأسباب ... وكذا حديث الرجل وحديث المرأة.. وهي طبقات كثيرة لا حصر لها، وما على المفسر سوى أن «يدرك هذه الخصوصيات التي تتبع مقتضيات المقام... ويراعى معها نزول الآيات التي لم تكن اعتباطا، بل نزلت لسبب من سؤال أو حادثه تقتضي نزول آية مع مراعاة كل طبقة من طبقات الناس.... لأنه يكلمهم على قدر عقولهم، ويرد جوابهم بحسب مقولهم، ويحاول تارة بأوضح عبارة، ويلوح بألطف إشارة...ولعل هذا كله دليل واضح على تداوليه الخطاب القرآني»[1].

3-الخطاب الوعظي(تعريفه وروده في القرآن الكريم):

الوعظ: لغة:

هو« زجر مقترن بتخويف، حيث قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب ومنه العظة والموعظة، كقوله تعالى: ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:90]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم ﴾ [سبأ:45] هذا وإن من اشتقاقات "وعظ" ما جاء في لسان العرب: «الوعظ والعظة والموعظة: أي النصح والتذكير بالعواقب من قول ابن سيده: هو تذكيرك للإنسان، بما يلين قلبه من ثواب وعقاب، وفي الحديث: «لأجعلنك عظة، أي موعظة وعبرة لغيرك»، والهاء فيه عوض من الواو المحذوفة، وفي التنزيل﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فالموعظة هنا في معنى الوعظ حتى كأنه قال: فمن جاءه وعظ من ربه، وقد وعظه وعظا وعظة، ... وفي الحديث: «على رأس الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم، يعني حججه التي تنهاه عن الدخول فيما منعه الله وحرمه عليه والبصائر التي جعلها فيه...» ويقال: السعيد من وعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره»[2].

وعليه فإن "الوعظ" بأشكاله حسب وروده في سياقات معينة، ماهو إلا تذكير ونصح ووصاية، سواء كان بالأفعال أو بالأقوال.

أما اصطلاحا:

« فهو استثارة المشاعر وترقيقها... وحفز لها من مراقدها لتنشط، وتنبعث عاملة بهذا الدين

---

[1]_ أشواق النجار، المرجع السابق، ص56.

[2]_ لسان العرب، مصدر سابق، م 9, مادة "وعظ" ,ص349.

المدعو إليه... إنه عملية قلبية عاطفية تقوم بدورها الفعال، حتى إذا عرضت حقائق الإسلام على العقل، كانت أشواق القلب دافعا إلى قبولها، بل والدعوة إليها»[1].

فالوعظ بهذا مرتبط بالدين- لا محالة-ذلك أنه الحامل لأفعال النصح والإرشاد فنجد خطابات القرآن تتنوع من خطاب تشريع يتسم بإصدار الأحكام من حلال وحرام عن طريق الأمر والنهي، إلى خطاب إرشاد ونصح ووعظ بذكر الأمثال والحكم.

فمن باب ملامسة هذا المصطلح لشغاف القلوب والنفوس للذي يريد النجاة في الدنيا والآخرة، يعرفه المناوي بقوله: «اهزاز النفس بموعود الجزاء ووعيده»، وفي تعريفات الجرجاني: «الموعظة هي التي تلين القلوب القاسية، وتدمع العيون الجامدة وتصلح الأعمال الفاسدة» (التعريفات ص199).

أما ابن الجوزي فإنه يعرف الوعظ بأنه "تخويف يرق له القلب"، مع ماذكره النسفي بأنه «خلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة» وفي تعريف محمد رشيد رضا في تفسير المنار:«أنه أي الوعظ هو: الوصية بالحق والخير، واجتناب الباطل والشر، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب، فتبعث على الفعل والترك»[2] مع كثير من الوعد والوعيد لما حدث للأمم السابقة.

وبما أن خطاب الوعظ له أثر كبير في حياة الفرد والمجتمع، فقد تردد ذكره في القرآن 24 مرة وبجميع اشتقاقاته منها:

1-أن الموعظة جاءت بمعنى الأمر والنهي كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ﴾ [النساء: 66]أي يؤمرون به، في مقابل قوله:﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:17] أي ينهاكم، فكان من شأن « إطلاق الوعظ على الأمر والنهي، أنه يقترن بما تحمله على امتثاله له من الترغيب والترهيب»[3].

2- بمعنى الحكمة والقول الحسن، وهما الأثر الذي تتركه الموعظة في قائلها ومستمعها، وبهما

---

[1]_ ابن منظور، لسان العرب، م 9، ص349.

[2]_ عبد الله بن رفود السفياني الخطاب الوعظي، مراجعة نقدية لأساليب الخطاب ومضامنيه، دراسة استطلاعية، ط1، بيروت، (2014)، ص30.

[3]_ابن باديس، المرجع السابق، ص322.

يحصل المقصود منها «كترقية للقلوب للحمل على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة... كما يحصل المقصود منها إذا حسن لفظها، بوضوح دلالته على معناه، وحسن معناها بعظيم وقعه في النفوس فتعذب في الأسماع وتستقر في القلوب وتبلغ مبلغها من دواخل النفس البشرية لتثير تلك الرغبة والرهبة وتبعث الرجاء والخوف، دون تقنيط من رحمة الله ولا تأمين من مكره، وتنبعث عن إيمان ويقين، وتنادي بحماس وتأثر لتلتقطها النفس من النفس، ويتلقفها القلب من القلب»[1].

3-أنها تأتي وصفا لكتاب الله تعالى الذي أنزل هدى للناس، كقوله تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران 138]، فهو حمال أوجه للأوامر كلها، وللنواهي كلها، وللوعد والوعيد، وللزجر والتقريع، باستخدامه للين في مواضعه، وبتحذيره وتذكيره في أخرى، وما على القلب سوى أن يزن هذا وذاك فيتجنب النواهي ويمتثل للأوامر ... وهكذا « فيتكون الخطاب إذا من لغة خاصة تقوم على الأمر والنهي "الحث على الفعل أو الترك" بأساليب اللغة المباشرة في الأمر والنهي والتحذير والإغراء، وبين الأمر والنهي ارتباط وثيق، فالأمر يتضمن نهيا، والنهي يتضمن أمرا، وينتج عن هذه اللغة أثر على المتلقي من خلال عملية التواصل»[2].

وعليه فقد تنوعت الموعظة في كتاب الله تعالى وبحسب السياقات والمواقف التي يكون عليها خطابه.فبماذا تكون الموعظة؟

-« قد تكون بذكر الله في الأمم الخالية، وباليوم الآخر، وما يتقدمه، وما يكون فيه من مواقف الخلق وعواقبهم ومصيرهم إلى الجنة من نعيم، وما في النار من عذاب أليم، وبوعد الله ووعيده»[3] كما تكون بغيرها «كتذكير الإنسان بأحوال نفسه، ليعامل غيره كما يجب أن يعامل به، وهو من أدق فنون الوعظ وأبلغها...» [4].

وهكذا يتجه هذا الخطاب بأنماطه المتعددة، لإسعاد النفس الواعظة أولا، ثم التي تتلقى الوعظ ثانيا، فكان منها الذي يدخل في ميدان الدعوة، والذي يعد طريقة عملية لإقناع الناس عن طريق أساليب الحجاج المتنوعة.

---

[1]_المرجع السابق، ص323.

[2]_المرجع نفسه، ص323.

[3]_المرجع نفسه، ص322.

[4]_المرجع نفسه، ص322.

فموضوع الدعوة إلى الله تعالى هو موضوع شائك وخطير، ذلك أنها مسؤولية الداعي أمام مدعويه لكي يتبعوه في دعوته. وإن كان « لا ينقطع عنها، ولو لم يتبعه أحد، لأنه يعلم أن أمر الهدى والضلال إلى الله فيصبر على ما يلقى من إعراض وكيد وأذى، دون أن يجازي بالمثل، أو يغتر في دعوته من أذاه لعلمه أن الذي يجاري إنما هو الله»[1]. فكان من طرقها هي هذه المجالس التي تعتبر مجالس «... تعريف المسلمين بدنيهم، وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به، مع تحبيبهم فيه، ببيان ما فيه من خير وسعادة لهم»[2].

كما لا تنس مجالس الوعظ لهؤلاء الخصوم والمعاندين لدين الله كي ترشدهم وتوجههم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة« فمجادلة المدعو بلطف وحسن، قد تدخل في قلبه الاطمئنان وتزيل من عقله حجاب الرفض... ومن ثم تنفتح عنده باب القابلية للسماع، وبعد السماع يكون حرا في قبول العرض أو رفضه من باب قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت34] [3].

أما الوعظ فهو طريقة ناجعة لإقناع الناس، وطريقة الحجاج الذي يعد فعلا من أهم « المؤشرات اللغوية والروابط المنطقية التي قد تضفي على الأفكار تماسكا وانتظاما»[4]، خاصة إذا كان قادرا على الإقناع.

ولعل من «أهم هذه الأساليب تواترا: الاستفهام التوجيهي الذي يضطلع بوظيفة التأثير في المتقبل، فتجعله يتجه نحو الإجابة التي يريدها الحجاج منه»[5] من ذلك أسئلة "مؤمن آل فرعون" لقومه حين أتقن تقنية استدراجهم بالاستفهام، حتى تصل إلى غرض أسمى في هؤلاء الخصوم، وهو إرجاعهم إلى الطريق الصحيح.

---

[1]_المرجع السابق، ص327.

[2]_المرجع نفسه، ص314.

[3]_ شايف عكاشة، مدخل إلى عالم المنهج الإسلامي، قراءة في القرآن والإنجيل والتوراة، الأمر، ديوان المطبوعات الجامعية، ج1، ص34.

[4]_ مقال : "من تجليات المنزع العقلي في أدب الجاحظ، الحيوان نموذجا، مقاربة لبعض ملامح حضور العقل في الأدب"، بسام الشارني، مجلة رحاب المعرفة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، س 8، ع 45، 2005، ص78.

[5]_المرجع نفسه، ص78.

هذا وقد امتثلت مثل هذه الأساليب « للتدليل والميل إلى التأثير في المتقبل بمخاطبة وجدانه وشعوره عن طريق استثارة مجالات العاطفة الإنسانية، ومختلف نوازعها الكامنة فيه من ألم وضرر أو شر ونفع أو فساد أو جميل وقبيح، وذلك باعتماد أسلوب الترغيب والترهيب، أو التقبيح والتجميل»[1].

ثم إن العلاقة الكامنة في واعظ مرشد لخصم عنيد أو جاهل، ماهي إلا علاقة استبدالية رأسية، سميت في اللسانيات "بالعلاقة العمودية الاستعلائية" «ولعلها العلاقة الوعظية التي تعتمد النصح والتوجيه قصد تقويم سلوك طائش أو تعديل مسلك منحرف»[2]. تماما كما في سورة لقمان وغافر ونوح التي « نهضت بصيغ التوجيه الإلزامي فكانت تهدف-دائما –إلى التأثير في المستقبل بحمله على إتيان أنماط من السلوك القويم وتجنب ما انحرف عن الجادة وخاصة منها صيغ الأمر وصيغ النهي»[3].

-وروده في القرآن:

-إن مصدر الموعظة في القرآن، يعد مصدرا مهما لإصدار الحكم والأمثال، فكثيرا ما تأتي الأوامر الإلهية مقترنة بالعظة والتذكير، أو بالهداية والتوضيح، أو برجاء الله في اليوم الآخر... ولعل من الآيات التي تبرز هذه المصادر: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:90] وقوله: بعد إشارته إلى تحريم الربا وأكله مع وجوب طاعة الله ورسوله والمسارعة إلى مغفرة الله﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 138]

هذا وقد ذكرت في آية الطلاق بعد أن بين الله تعالى كيفيته ووقته وطريقة معاملة المرأة المطلقة دون غيرها﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ

---

[1]_المرجع السابق، ص80.

[2]_المرجع نفسه، ص80

[3]_المرجع نفسه، ص81.

مَخۡرَجٗا ۝٢ ﴾ [الطلاق: 2].

ثم إن كثيرا ما تختم القصة في القرآن بإشارتها إلى الغاية والهدف منها، وهو أخذ العبرة، وخاصة في قصص بني إسرائيل مع أنبيائهم.مثال: جاءت الإشارة إلى أصحاب السبت، وما عوقبوا به في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة:65]

كما جاءت الإشارة الموجزة إلى الأنبياء بعد كل موقف ينتهون إليه مع أقوامهم في قوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يوسف 111] .

أما مقام الحوارات والجدال فهي كثيرة كذلك، لما للموعظة من مكان فسيح ومقام رفيع احتلته، باعتبارها أحد أساليب الدعوة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: 125].وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾ [سبأ:46].

وبهذا نقول أن العظة تكاد تبسط أجنحتها في كل سورة، بل في كل آية والمتتبع لألفاظها يؤكد أن الخطاب الوعظي لا يقل أهمية عن بقية الخطابات الموجهة لأي فئة من الفئات، وبأي وسيلة وطريقة كانت، سواء كان اتعاظا بكتابه سبحانه وتعالى، أم إسقاطا بكلامه وبكلام الأنبياء والرسل وحتى الصالحين منهم، فكان ارتباطها بالحكمة سواء لقوم معينين كما في الشعراء، أم للأهل والأقارب كما في لقمان، أم في أحكام المعاملات كما في المجادلة والطلاق.

والملاحظ في هذه الخطابات أنها مقصودة وموجهة إلى فئات بعينها، ثم يعمم خطابها إلى كل من يتلقاه مسموعا أو مقروء شرط التفكر والتدبر.

كما أنها مقيدة بزمن معين، ومكان معين، وبفعل معين، يترتب عنه رد فعل معين، فهي بذلك آنية زمنية راهنة، خاصة إذا ما ربطنا ها بمحاور اللغة التي تتحرك فيها أفقيا أو عموديا، فهي

في الوعظ-كما ذكرنا سابقا- تسير وفق محور الاستبدال العمودي، الذي يكون الوحدات اللغوية داخل حقول دلالية تتغير بتغير سياقات الزمان والمكان.

مثال:مجموع الأوامر والنواهي الصادرة عن لقمان الحكيم لابنه، وهو يعظه، هي صالحة لكل زمان ومكان، وبتحديد السياق والموقف يتحدد معناها، ذلك أنها موجهة من الأعلى (الأب) الى الأدنى (الابن)، كالآتي:

1-إقامة الصلاة

2-إيتاء الزكاة

3-بر الوالدين

4-عدم المشي بالخيلاء

5-عدم رفع الصوت...وهكذا

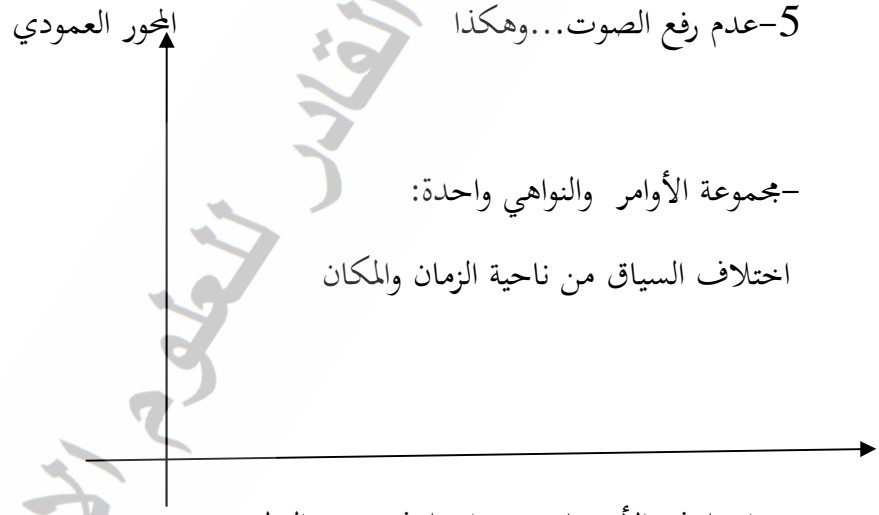

وفي اختلاف الأشخاص مع اختلاف نسبة التطبيق.

هذا وإن من الخطاب الوجاهي الذي يتسم بالوعظ والإرشاد، أنه يقتضي إقناعا وتأثيرا في الطرف الآخر، ولعله مقصد القرآن كله من إرساله إلى الناس كافة، إذ وصف هذا الخطاب نفسه على « أنه تغيير لوضع، وحل لمعضلة ونبذ للعنف، واستجابة لسؤال المتلقي، وكلها ذات علاقة بالحجاج الذي يرمي إلى إصلاح وضع ذهني قائم، يترتب عليه ضرورة تغيير وضع مادي.... نطق بألوان من الحجج والبراهين، التي بعضها يوافق طبيعة الذهن العربي بوضوح مقدماته، ونتائجه، وبعضها جاء على ما عرف بعد عند المتكلمين من اعتماد المحاجة المستندة إلى الأدلة الدقيقة المعقدة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أي اعتماد حركية فكرية يتجاوز فيها الفكر ذاته ليتعامل مع من يعارضه أو يناقضه» [1].

«ولا شك في أن الموعظة أسلوب إصلاحي ناجح، يجب الاستمرار فيه، ولكن مع العناية بآدابه، ففي قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ إشارة إلى أن من المواعظ ماهو خارج عن الحسن والحكمة» [2].

هذا وإنه إذا ما نظرنا إلى الموعظة من وجهة تداولية عملية، فإننا لا ننفي عنها دراسة أحوال الناس بمراعاتها للموصوفين بحالة الوعظ وهم المخاطبون بهذا الخطاب. ولعل هذه المراعاة متوقفة على مدى موافقة الواعظ وموازنته بين الترغيب والترهيب وذلك بجناحي الرجاء والخوف«فمستقى الرجاء من بحر الرحمة، ومستقى الخوف من بحر الغضب، فمن لاحظ صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام، وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة مما زجتها للرجاء» [3].

فمثلا إذا وجدنا على «أحوال الناس أن الغالب عليهم في زمن من الأزمان الإفراط والتساهل كان الترهيب أولى وأصلح، وأكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصي» [4].

وفي الأخير ومهما كانت «الاعتبارات التي ينظر بها إلى موضوع الترغيب والترهيب كثيرة والزوايا متعددة... لكن مراعاة زوايا النظر وأحوال الناس ومحاولة التوازن هو الأمر المطلوب مع ملاحظة متابعة الخطاب الوعظي وواقعه وما هو الغالب عليه» [5].

---

[1]_ آليات الحجاج في الخطاب القرآني "الاستفهام نموذجا"، مفلاح عبد الله، المركز الجامعي، غليزان، على صفحات face book.

[2]_ مقال: الخطاب الوعظي، ماذا بقي منه، عبد الله الوشمي، السعودية، ط2003، ص1-2.

[3]_ الخطاب الوعظي، المرجع السابق، ص202.

[4]_المرجع نفسه، ص202.

[5]_المرجع نفسه، ص203.

الفصل الثاني :

آليات التواصل في خطاب الوعظ في سورة لقمان والأحزاب وأغراضها التداولية

المبحث الأول: – آليات التواصل في سورة لقمان

أ)– الآليات اللغوية

ب)– الآليات الغير لغوية

ج)– آليات السياق(الداخلية والخارجية)

المبحث الثاني :أغراضها التداوية

المبحث الثالث : آليات التواصل في سورة الأحزاب

أ)–الآليات اللغوية

ب)–الآليات الغير لغوية

ج)–آليات السياق (الداخلية والخارجية)

المبحث الرابع: أغراضها التداولية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1)- المواضيع الرئيسة في السورة:

تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام:

ففي القسم الأول منها، وصف لمآل فئات معينة كالمؤمنين والمحسنين، والمستكبرين المعاندين وهي من "1" إلى "11" ...أما القسم الثاني وهو من "12" إلى "19" ففيه حديث طويل عن المحاور التي تدور حولها السورة بأكملها وهو موضوع "الحكمة"، وفي الآيات الأخيرة من "20"إلى"34" تفصيل وإظهار لنعم الله تعالى على عبده بخلقه لكل شيء في الوجود من سموات وأرض وأشجار وأنهار... وعليه يعود التقسيم في هذه السورة المكية للفئات إلى محسن يعمل صالحا وآخر منحرف يرتكب الكبائر ويفسد في الأرض.

والملاحظ على هذا التقسيم أنه جاء على غير عادة القرآن في تقسيمه للفئات خاصة في سورة البقرة، والتي كانت من مؤمنين إلى كافرين إلى منافقين، ومع ذلك يشرح ابن كثير(ت774هـ) الآيات الأولى لسورة لقمان انطلاقا من تفسيره للآيات الأولى الموجودة في سورة البقرة، فيقول إن هذه السورة تقدم للأخرى وتكملها " ففي أولها عامة الكلام على ما يتعلق بصدرها..وهو أنه سبحانه وتعالى جعل القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ....فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ...وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ووصلوا أرحامهم وقراباتهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ الآية 5 أي على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي "وأولئك هم المفلحون «أي في الدنيا والآخرة»[1].

أما عن تفسيره لآيات "الضلالة" والتي كانت عن طريق ما سماه الله بـ"لهو الحديث"، فإن المقصود به كما جاء بإسناد منه، أنه يعني "الغناء" فهذا الذي ضل عن السبيل باشتغاله باللهو «يستكبر عن سماع آيات الله تتلى عليه، فكان من صور الإعراض الكثيرة لهذا المقبل على اللهو والطرب أنه إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها، وأعرض وأدبر، وتصامم وما به

---

[1] – الحافظ بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ط2002، م 3، ص1444.

من صمم كأنه ما سمعها لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع ولا إرب فيها»[1]

هذا وإن هناك أساليب بلاغية تتخللها الآيات لتدل على إعجاز القرآن منها: أسلوب التكرار والتهكم والسخرية، مع أسلوب الإضراب وغيرها ..

ففي التكرار مثلا «ضمير الغيبة يتكرر في قوله تعالى: ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾الآية 4، ليدل على أن الإيمان بالآخرة أمر مؤكد لا شك فيه، مع أن الناس يؤمنون بهذا اليوم، ويؤمنون بأنهم محاسبون، وأن الله لم يكلفهم عبثا..إلا أنها قد تكون مسألة بعيدة في نظر الكثيرين»[2].

أما في قوله: ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾الآية 7 ففيه أسلوب التهكم والسخرية خاصة و«نحن نعلم أن البشارة لا تكون إلا في الخير..لكنها هنا استخدمت بمعنى العذاب ..على سبيل التهكم والسخرية منهم واستخدام البشرى في العذاب كأنك تنقله فجأة من الانبساط إلى الانقباض، وفي هذا إيلام للنفس قبل أن تقاسي ألم العذاب»[3].

أما الآيات التي تبدأ من "12" إلى"19" فإن محور اهتمامها هو حديثها عن "الحكمة"والموعظة الحسنة"، ففيها الوصايا المعروفة "بوصايا لقمان" وهي تقسم إلى محورين هامين هما:"محاور رئيسية " و"أخرى جزئية":

المحاور الرئيسية	المحاور الجزئية
1-الحكمة	1-الشكر والشرك
2-الموعظة	2-طاعة الوالدين
3-الكبر	3-إقامة الصلاة
	4-الأمر بالمعروف
	5-الصبر وتحمل الأذى

---

[1] – المرجع السابق، ص1445.

[2] – تفسير الشعراوي، مجمع البحوث الاسلامية، القاهرة، م 19، ص11576.

[3] – المرجع نفسه، ص 11592.

1)- المحاور الرئيسية:

أ)- الحكمة:

جاءت «الحكمة في الإسلام وأخذت معنى الخيرية الواسع في مفهومه، وقد شملت المعارف الدينية والخلقية والممارسات السلوكية ...كما تشمل مجموعة معان منها: الحلم والرفق، والعفو والترغيب ...»[1].

هذا وقد بدأت السورة بوصف الكتاب بأنه حكيم، والحكيم يتضمن معنى الحكمة. كما وصفت لقمان بأنه حكيم من خلال وعظه لابنه . حكيم «في أحكامه، في معالجاته، ...في ترتيب سوره، في ألفاظه، في طريقة مخاطباته ...في كونه يضع كل شيء في محله، ويجعل أهله يضعون الأشياء في مواضعها»[2]، كما وصفت لقمان بأنه حكيم من خلال وعظه لابنه.

وبما أن الإنسان يأخذ من صفة من يكون معه، فمكانته بمكانة هذه المعية، فكذلك الذي يحمل هم الرسالة كالرسل والدعاة، يأخذون صفة الكتاب المنزل . فالحكمة في هذا القرآن والحكمة في الذين يبلغون هذه الرسالة، والحكمة في الذين يعتبرون بأوامره ونواهيه، ثم إن «استعمال اللفظة هنا مناسب -كذلك- لموضوع "حكمة لقمان" كما أن خاتمة الآيات هي موعظة، وذلك من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ خَبِيرٌ ﴾.

والحكمة هي ضرب من الأمثال، تأثرت بها البيئة العربية حتى إن «الرسول ﷺ عمل على تأصيل وظيفتها التعليمية ضربا وتمثلا بأن جعلها تجري في باب الخبر، واصطنع منها وسائل بيانية لرد الكفار والمشركين.. وفي دور المثل والتمثيل يشير الجرجاني إليه في "أسرار البلاغة" من خلال أغراض القول كالمدح والذم والحجاج والاعتذار والوعظ ...فحاور النص القرآني باقتدار تلك البيئة الثقافية التي احتل فيها المثل مكانة مرموقة ونال بها الرسول ﷺ مزيدا

---

[1] – عباس محجوب، الحكمة والحوار (علاقة تبادلية)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2006، ص12-13. أنور الباز، التفسير التربوي للقرآن الكريم، دار النشر للجامعات، مصر، ط2007، ج3، ص5.

[2] – محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1(2009)، القسم الثاني، ص72.

من الاحترام والتقدير»[1].

ولا ننسى أن تلك الآيات التي تحوي الأمثال والحكم، قد أخذت أبعادا أخرى تربوية وعاطفية إذ من خلالها «يطمئن قلب السامع إليها فيتعظ بها، فإما يؤدي به ذلك إلى الحقيقة فيزود بها علمه، أو يفزع بها من العواقب»[2].

ولعل الأطراف التي تشارك في العملية التواصلية لا تحقق غرض التواصل إلا بواسطة الحكمة والموعظة الحسنة، وهي المرسل والمرسل إليه وموضوع الرسالة والعناصر المشتركة.

فموضوع الرسالة هي الحكمة بحد ذاتها، وهي المحور الهام هنا، خاصة حين ألبسها الدارسون حلة يتزين بها المرء إذ أنها تمنحه قدرة على السيطرة على نفسه، كما ينبغي، بإعمال العقل مع النظر والتبصر، ثم إن الروايات قد اتفقت على أن لقمان الحكيم كان صالحا ولم يكن نبيا ..بينما ذكر غيرهم أنه كان قاضيا على بني إسرائيل في زمان داوود عليه السلام، وأضافت روايات أخرى بأن الله خيره بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة عليها.

فنجده هنا يمارس سلطته الكلامية بحرية واحتراف، موظفا اللغة المناسبة للسياق الذي يجري فيه الحديث «فتصبح موجودة بالفعل، بعد أن كان وجودها بالقوة فقط ....ولعل المرسل هو الذي يوظفها في مستوياتها المتمايزة، بتفعيلها في نسيج خطابه، ذلك التفعيل الذي ينوع طاقاتها الكامنة ويدرك بإنتاجه خطابات»[3] ففي استراتيجية لقمان-إذن- حسن اختيار للعلامات والوحدات التي تتضمن معاني الوعظ والإرشاد والتوجيه، وذلك عن طريق آليتي "الأمر والنهي" التي جاءت متناوبة في الآيات بعد اقتران المرسل هنا بالإيتاء ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ الآية12 والذي يعني الإلهام بإجماع العلماء.

أما الطرف الآخر الذي يوجه إليه المرسل خطابه (وهو هنا الأب لابنه) فقد أشار

---

[1] - ناجي التباب، النص والقراءة في الثقافة العربية الاسلامية، أعمال ندوة 4-5-6 أفريل، منشورات القيروان، مقال:الأمثال والقرآن، ص 290-291.

[2] - المرجع نفسه، ص291.

[3] - الشهيري، المرجع السابق، ص 45-46.

علماء التراث العربي على أن له تأثيرا عجيبا عليه خاصة عند إنتاج الخطاب . وكما لا يخفى على أحد من «أن السامع يحظى بأهمية كبيرة في العملية الإبلاغية ذلك أن المتكلم إذا كان هو منشىء الخطاب ومنتجه فإن السامع هو من ينشأ له الخطاب ومن أجله، وهو مشارك فعلا في الخطاب مشاركة فعالة»[1] بمراعاة الخبر الذي يجب أن يكون في مستوى الإفادة مع وضوحه، لارتباطه بفهم السامع له، وبنوعية العلاقة الموجودة بين الطرفين إذ أنه «كلما كانت العلاقة رسمية، كان خطابه أكثر مباشرة على قصده ليكون الخطاب الأول هو الخطاب الأنسب، في حين كلما كانت العلاقة حميمة، كلما ابتعد المرسل بخطابه عن الدلالة المباشرة ليكون آخر خطاب من هذه الخطابات هو ما يجسد – فعلا- الاستراتيجية الأفضل»[2] ثم إن الافتراض المسبق في علم التداولية يعد من أهم العناصر المساهمة في عملية اختيار هذه الإستراتيجية، ذلك أنه كلما كانت المعلومة مشتركة بين الطرفين، كلما كان الفهم و الإفهام أقنع وأسرع وأوضح .

ب)- الموعظة:

هي الكلمة المركزية هنا، خاصة عندما وضعت ملفوظاتها في سلسلة الأوامر والنواهي، مع انتماء ألفاظ أخرى إلى نفس حقلها الدلالي كالحكمة، الموعظة الوعظ، الإرشاد والتوجيه....هذا وإن من معاني قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾: «التذكير بمعلومة علمت من قبل مخافة أن تنسى ...كما ينبه غفلتك إلى شيء موجود عندك قد غفلت عنه، ..والوعظ للابن يعني أنه كان على علم أيضا بالمسائل، وكان دور الوالد أن يعظه ويذكره»[3].

ثم إن هناك لحظة إنجاز للقول حين كان يعظ ابنه، ولكي يكتمل الخطاب ويتواصل به، وجب أن يتلفظ بحالة القول التي كانت "وعظية"، فهذا التنبيه بقوله ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾يدل على أن «المرسل إليه حاضر في ذهن المرسل عند إنتاج الخطاب ..وهذا الاستحضار له هو مايسهم

---

[1] – بوجادي، المرجع السابق، ص 175.

[2] – خلود العموش، الخطاب القرآني، دار الكتب الحديث، الأردن، ط1(2008)، ص 48.

[3] – تفسير الشعراوي، المرجع السابق، ص 11636.

في حركية الخطاب، بل يسهم في قدرة المرسل التنويعية، ويمنحه أفقا لممارسة اختيار»[1] أفضل للكلام وللعملية التواصلية .

ج)- الكبر:-

لقد احتل الصدارة في السورة، إذ نجده في أول آياتها وفي مستهل الوصايا وفي آخرها. ولعل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ الآية 7 «مشهد فيه حركة ترسم هيئة المعرض المستهين ومن ثم يعالجه بوخزة مهينة تدعو إلى تحقير هذه الهيئة "كأن في أذنيه وقرا" .. إنه الثقل الذي يحجبه عن سماع آيات الله الكريمة ..»[2].

كما أن هناك تصويرا آخر لفعل التكبر حين «نهى لقمان ولده عن التكبر عن خلق الله، وهو خلق نفسي يتجلى في استعلاء الرأس، وإمالة الخد في شموخ كاذب وكبرياء مصطنع، ثم ينهاه عن الإحساس بالذات إحساسا يستخفه فيمشي في الأرض مرحا، حتى إن الإنسان ليكاد يحس بحقيقة هذا المرح عندما يحصل خيرا أو يحقق نجاحا»[3].

وللفظة التكبر معنيان قريبان منها وهما المختال والفخور، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾الآية 18 «فالمختال وجد مزية عند الناس، والفخور الذي يجد مزية في نفسه والله تعالى لا يحب لا هذا ولا ذاك، لأنه سبحانه يريد أن يحكم الناس بمبدأ المساواة ليعلموا أنه تعالى رب الجميع وهو المتكبر وحده في الكون، وإذا كان الكبرياء لله وحده فهذا يحمينا أن يتكبر علينا غيره»[4].

فكان موضوع "الكبر" بهذا أكثر ارتباطا في السورة بما يأتي :

- مرتبط بالشرك الذي يعد ظلما عظيما «المشرك بالله متكبر لأنه أعرض عن ذكر الله».

---

[1] - الشهيري، المرجع السابق، ص 48.

[2] - أنور الباز، المرجع السابق، ص7.

[3] - محمد رجب السامرائي، أسماء في القرآن الكريم، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1(2005)، ص75.

[4] - تفسير الشعراوي، المرجع السابق، ص 11675.

– مرتبط بعقوق الوالدين «المتكبر يسيء معاملته مع والديه فلا يطعهما».

– وهو أيضا مرتبط بالداعي إلى الله تعالى الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر «المتكبر لا يجلب إليه الناس ولا يتعامل معهم بالرفق واللين» «فالدعوة إلى الخير لا تجيز التعالي على الناس، والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير»[1].

2)–المحاور الجزئية:–

تذكر الآيات التي تدخل في الحكمة والموعظة الحسنة، نوعين من الأعمال وهي:

1)– أعمال في العبادات تتضمن معنى المعاملات، كالشكر والشرك، وإقامة الصلاة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الصبر ...

2)– أما الأخرى فهي أعمال في المعاملات وهي تتضمن معنى العبادات منها: طاعة الوالدين، عدم التكبر، المشي مرحا، القصد في المشي، الغض من الصوت ...

أ)– الشكر:–

لو تأملنا دلالة الشكر لوجدناها تدور في فلك النعمة، وكيفية التعامل معها، فهي «عبارة عن معروف يقابل هذه النعمة سواء بالفعل أم بالقول أم بالاعتقاد»[2] كما جاء عن الراغب الأصفهاني أن الشكر ما هو إلا «تصور النعمة وإظهارها»[3] إذ لا يكون شكر النعم إلا بشكر المنعم سبحانه وتعالى، مع تفسيره «إيتاء الحكمة بالحث على الشكر، في قوله تعالى ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ حتى قيل أن الرجل لا يكون حكيما إلا إذا كان حكيما في قوله وفعله ومعاشرته وصحبته»[4].

إنها بحق دلالة غنية بفعلها وفاعليتها، وبها تحققت دلالة الحكمة التي آتاها لقمان اشكر ذلك أنها «الحكمة الأولى في الوجود، لأنك إن شكرت الله على ما قدم لك قبل أن توجد،

---

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط 34(2004)، م 5، ص 2790.

[2] – الشريف الجرجاني، المرجع السابق، ص 68.

[3] – الراغب الأصفهاني، المرجع السابق، ص 389.

[4] – أبوالبركات محمود النسفي، تفسير النسفي، دار إحياء الكتب العربية، ج 3، ص280.

وعلى ما أعطاك قبل أن تسأل، وعلى ما هدى جوارحك لتؤدي مهمتها حتى وأنت نائم، فإنما تشكر لنفسك لأنها ثمرة تعود إليك»[1] ثم إن هناك لفتة هامة حول فعل "الشكر" وفعل "الكفر" اللذين جاءا مختلفتين في الآية، فمعنى الفعل المضارع ودلالته يتجافى عن معنى الفعل الماضي «مما يوحي بعظمة الأسلوب وروعته، ففي الشكر قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ﴾أما في الكفر فقد قال: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ولم يقل "ومن يكفر" وفرق بين الأسلوبين، والكلام هنا كلام رب .فحين جاء بالفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال في الشكر فكونه متجدد ودائم على خلاف الكفر، وكأنه سبحانه وتعالى لايريد من عبده الدوام على كفره فلعله يتوب ويرجع إلى ساحة الإيمان ...» [2] كما أن الآية هنا جاءت بصيغة المضارع مع اقترانها بفعل الشرط، «لأن الشكر يكون في لحظة على كل نعم الله، أما الكفر بصيغة الماضي لأنه يحصل مرة واحدة فقط» [3]

ثم إن أبا هلال العسكري حلل في كتابه "الفروق اللغوية" الأطراف التي تتدخل في عملية الشكر فقال: «علاقات مختلفة بدالة الشكر فهناك فاعل الشكر-المشكور موضوع الشكر- وسيلة الشكر- غرض الشكر وكلها عناصر تشكل هذا الحدث الكلامي الذي نسميه بها»[4] كما أنها تعد أفعالا إنجازية تدخل في صميم العملية التواصلية الإيجابية .

ب)- الشرك:-

هو من الأعمال القلبية التي يعتقد صاحبها أن لله آلهة أخرى تعبد معه، كما فعل العرب في الجاهلية، إذ على الرغم من وعيهم -آنذاك- بوضاعة هذا العمل الذي كانوا يمارسونه، إلا أنه العناد الذي جعلهم يظنون كما ظن آباؤهم من قبل أنهم بهذا الشرك سيحتفظون بمراكزهم وستبقى مصالحهم فوق أي اعتبار فكانوا «لا يتحرجون من أن تطلق عليهم صفة " مشركون"

---

[1] - تفسير الشعراوي، م س، ص 11632-11633.

[2] - المرجع نفسه، ص 11634 .

[3] - فاضل صالح السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني، (محاضرة ألقاها ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام 2002)، ص5.

[4] - محي الدين محسب، التحليل الدلالي في الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري، دار الهدى للنشر والتوزيع، ص159.

لأنهم على وعي بطبيعتهم الإشراكية»[1] حتى إنه تعالى وصفهم بقوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[2].

وبنزول القرآن وجب عليهم أن يتركوا كل عفن في بيئتهم، فيتبعوا الدين الجديد الذي يدعو إلى التوحيد أولا وهو ضد الشرك، فكانت الآيات التي نزلت في هذا الشأن بمثابة «تأثير مباشر في توجيه العمل، ومعانيها تستفاد في جميعها على وجه الاقتضاء، وهي "الشرك كفرا" "الشرك ظلم"، "الشرك إجرام "، "فسوق" "فجور"، وهنا تأتي مشكلة براغماتية الغاية منها: تغيير السلوك والمعتقد وتوجيه العمل»[3] فحين يخاطب لقمان ابنه بقوله ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾إنما هو خطاب موجه لجميع الناس بنهيهم عن هذا الفعل، فهو الظلم العظيم لأنه ضد الحكمة. وهنا تأتي قاعدة التخلية قبل التحلية فابتداؤه بموعظة ابنه "بطلب إقلاعه عن الشرك بالله، إنما لأن النفس المعرضة للتزكية والكمال يجب أن يقدم لها قبل ذلك تخليتها عن مبادئ الفساد و الضلال، فقوله: ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾يفيد إثبات وجود إله وإبطال أن يكون هناك شريك في إلهيته»[4].

هذا وإن التمهيد في الآية بقوله: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾إنما هو تفصيل وامتداد لما سيعظ بعد ذلك من نصائح متعددة الجوانب من عبادات ومعاملات وكأنه يقول لنا لا تغيير في السلوك قبل تغيير المعتقد وتصحيحه، وهذا بعينه «البعد التداولي الذي –تبينه الآيات – إذ ربما ينسى المتلقي التفاصيل الموسومة بالظلم لكنه قطعا قد يخرج بمعنى من الظلم يصعب أن ينسى، وهذه في الواقع وظيفة العلاقة التي تسمى» بالإجمال قبل التفصيل «إنها تضع الجزئيات المتعددة في بؤرة واحدة، ومن صفاتها أنها طاقة الخطاب الفاعلة، من تبوئها مكانا في نفس متلقيها وقلبه»[5] ثم إنها ميزة الخطاب القرآني وخاصة خطاب الوعظ والإرشاد فهو «يرسم

---

[1] – عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ط3(2007)، ص192.

[2] – سورة يوسف، الآية: 106.

[3] – المرجع السابق، ص 195.

[4] – الطاهرين عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الشركة التونسية للنشر، ط1984، ج 21، ص155.

[5] – محمد عبد الباسط عيد، المرجع نفسه، ص 152.

لمعتقديه سبل حياتهم، فلا يكتفي بمجرد التأثير، لكنه يروم تحويل التأثير إلى سلوك تداولي منهجي يلتزم به الفرد والجماعة، وما على المتلقي إلا أن يتفاعل معه تفاعلا كاملا، حيث يغدو داعية له قولا وفعلا ولا ينفصل في القول عن العمل، ولا معنى للفعل بمعزل عن المعتقد»[1].

ج)-إقامة الصلاة:-

لقد انتقل خطاب القرآن إلى «تعليمنا أصول الأعمال الصالحة، فإقامة الصلاة والتي تعد عبادة توجه بها الانسان، إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء وذلك في أوقات معينة، هي شريعة يدين بها لقمان»[2] من خلال قوله ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾الآية 17، ثم هي«توصية لابنه بعظم الطاعات بأدائها مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي ذلك تحصيل لها وللفضائل أجمع»[3] ولعل لفعلها الأثر الكبير لفهم موضوع الحكمة، إذ بها يترسخ الإيمان وتنعكس العبادات على أفعال الإنسان وسلوكاته فكان من نتائج إقامة الصلاة:غيرة العبد على دينه، بفعله لهذا المعروف وتركه لذلك المنكر وهكذا.. إضافة إلى أنها «الوسيلة التي ارتضاها الخالق لعباده حتى يروضوا أنفسهم على التسامي، باعتبارها منهج لتربية الإنسان على محاسبة نفسه كلما أقبل على صلاته »[4].

ولو رجعنا إلى فعل "إقامة الصلاة" المذكورة في الآية، نجد أن هناك «تواصلا إلهيا يستمر إشعاعه في ذات العبد في عبادته ..وقمة التواصل بين الخالق والمخلوق خاصة حين يكون العبد قريبا من مولاه وهو ساجد ..إذ فيها أقصى مظاهر التجلي الروحاني»[5].

و قضية الاقتراب هذه هي «قضية عرفية تداولية كرستها تقاليد العرب في تعارفهم ومراسيم استقبالهم واحتفالهم ومخاطباتهم»[6] على أن كيفية الصلاة عند العرب في الجاهلية

---

(1) - المرجع السابق، ص152.

(2) – أبو عبد الله الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، م7، ج13، ص68.

(3) – الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ج21، ص 164.

(4) - عبد المجيد الشرفي وآخرون، موافقات في قراءة النص الديني، الدار التونسية للنشر، ص 112- 113.

(5) - إدريس مقبول، الأفق التداولي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2011، ص 139.

(6) - المرجع نفسه، ص 139-140.

تختلف أفعالا وأقوالا عنها في الإسلام، إلا أن هذا لا يمنع من أن «إقامتها هو إقام لضرب من التواصل الذي يحتاج منا إلى توقف باعتبارها سلوكا، وكل سلوك كما يذهب "فاتسلافيك" وأصحابه رسالة وتواصل»[1].

د)-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:-

العرف المقصود به هنا هو «ما كلف النبي ﷺ أن يأمر به، ويقال العرف المعروف، والمعروف ما تعارف الناس على حسنه، وهو ضد المنكر»[2]

هذا وقد أمرنا الله سبحانه أن نجعل المعروف مقترنا بالعلاقات الاجتماعية وهو قانون ساد ويسود التعامل الإسلامي في كثير من علاقاته بين الأفراد كما في قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾الآية15، وقوله كذلك: ﴿ **وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** ﴾الأحزاب الآية 32. ثم إنه في كثير من الأحيان، يقترن هذا المعروف بإقامة الصلاة، لأن المصلي لابد أن يتحلى بصفات حسنة، وهي التي ستنهاه عن فعل الفواحش الظاهرة والباطنة، فكذلك الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر «يقتضي إتيان الآمر وانتهاء في نفسه، لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعم ما في الأعمال من خير وشر ومصالح ومفاسد فلا جرم أن يتوخاها هوفي نفسه بالأولوية من أمر الناس ونهيه إياهم..»[3].

هذا ولو تأملنا الشحنة التداولية للملفوظ نقول إنه «ليس قضية قولية كما يتبادر إلى الفهم، بل هو بناء وفعل ...وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلاما يقوله الناس عندما يرى فسادا في الفعل أو يسمع فاحشا من القول، بل هو في سياق الآية وفي نطاق هذا البعد

---

[1] – المرجع السابق، ص 140.

[2] – تمام حسان، البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب ط 2 (2000م)، ص293.

[3] – الطاهر بن عاشور، م س، ص 165.

ملاحظة:- هناك تواصلات في الآيات بين الحين والآخر منها:

1)- تواصل بين العبد وربه في قوله تعالى:"وأقم الصلاة"

2)- تواصل بين الانسان وأخيه الانسان في قوله تعالى:"وامر بالمعروف وانه عن المنكر "

3)- تواصل بين الولد ووالديه في قوله تعالى:" وبالوالدين إحسانا"

التربوي عمل وإنجاز، إذ يضطلع بمهمتين: الأولى هي المحافظة على كيان الدين بالمحافظة على عناصر الإيمان الستة، والمحافظة على النظم المنبثقة من الشريعة، فهو بمثابة الدعامة لهيكل الدين .. أما الثانية فهو تحقيق الخلافة فوق الأرض، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعل يراد به تركيز مشيئة الله في عباده وفي الكون، فتتخذ الظاهرة بهذا التوظيف بعدا تربويا ذا بال، إذ هي مقياس لتجسيم القيم الإسلامية»[1].

هـ)- الصبر:-

هي من الألفاظ المتداولة بكثرة في القرآن الكريم، وقد نعدها محورا ركيزا، لأنها اتصلت بالدرجة الأولى بالدعوة إلى الله تعالى، فكلما خطرت ببالنا هذه الكلمة ربطناها مباشرة بالأنبياء الذين كانوا أشد بلاء من غيرهم، فكان الصبر ديدنهم لتحمل عناء الدعوة ومتاعبها مع أقوامهم . ولو رجعنا لمفهومه لغة واصطلاحا، لوجدنا فيه ثقل المعنى ومرارته، فمما جاء في مدلولاته لغة: «مصدر صبر، يصبر، صبرا بالكسر، فهو صابر وصبار وصبور وجمعه:صبر نقيض الجزع، وهذه الدلالة متطورة من المعنى المحسوس للفظة إذ وردت في الحسيات بمعاني كثيرة، فالصبر عصارة شجر مر واحدته صبرة، وجمعه صبور، واشتق منه الصبر وهو اللبن الشديد الحموضة إلى المرارة، والصبر بالضم نوع من الحجارة يكون غليظا ومجشما، وبقرينة المرارة والشدة سميت الحرب الشديدة والداهية»[2].

ومن المعنى اللغوي أخذ المعنى الاصطلاحي، إذ عن طريقه انتقل اللفظ من المعنى الحسي إلى المعنى المعنوي فكان من «معانيه الأخلاقية حبس النفس عن الهوى، وكفها عن محابها، ومن الحسية التي تطورت إلى المعنى المعنوي أن الصبر فيه معنى المرارة والشدة فهو مر في القلب ومزعج للنفس كمرارة عصارة الشجر المر في الفم، ثم إن الصبور هو الذي يمنع نفسه عن إعطائها شهواتها كما تحبس الدابة وتمنع العلف ...هذا وقد كانت العرب تمدح في الرجل أن يكون صبورا على المعصية، لأن الصبر من آثار القوة والتماسك، فالاستسلام للجزع والحزن

---

[1] – عبد المجيد الشرفي وآخرون، م س، ص114.

[2] – نوال كريم زرزور، معجم ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1(2001)، ص88.

ضعف لا يجمل بالرجل القوي»[1].

وبما أنها ذكرت بكثرة في آيات الذكر الحكيم، فإنها تدل على معان متعددة وذلك بحسب السياق الذي ترد فيه . ثم إن للصبر فوائد جمة، وأبعادا إيمانية لا تحصى، إذ يكفينا القول بأنه نصف الإيمان وقد تحلى به كل الرسل.. وهو «من عزم الأمور، كما جاء في وصية لقمان، وجزاؤه في المنظور الإسلامي ليس بالضرورة الوصول إلى ما حالت دونه الحواجز والعراقيل كما هو الحال في التوراة التي جعلته مفتاح الفرج الدنيوي وحده، ولا هو الحال كما في الإنجيل الذي ربط الصابر بالآخرة فقط، وإنما جزاؤه الحقيقي هو الذي يناله المؤمن الصابر في الدنيا والآخرة معا »[2].

إضافة إلى أن من فوائده الجليلة، ارتباطه بالصلاة، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث جاءت الآيات هنا متسلسلة متناغمة، متواترة ومتلاحمة في سياق من الوعظ والإرشاد، ذلك أنه فعلا «نتيجة طبيعية لهما ..إذ يصيب عباد الله امتحانا لهم وتثبيتا ودعما لإيمانهم فلا يقوى على هذا الصبر إلا مقيم صلاة وآمر بالمعروف، وهوبه يحس صاحبه أنه إنسان في حالات ضعفه وفي حالات قوته، وفي حالات شجاعته »[3].

وفي الأخير فإن أسمى ارتباطاته هو ارتباطه بالله تعالى فهو «خلق قرآني حين يأمر الله تعالى نبيه بقوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾وغايته الله في قوله: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ ﴾فيكون بذلك الصبر أنواع:صبر لله ولحكم الله ولوجه الله، وهو فعلا خلق رباني من حيث المصدر والأمر، ومن حيث الهدف والغاية»[4].

أما الأعمال الأخرى التي تتضمن معنى العبادة فهي أعمال معاملات منها:

---

[1] – شايف عكاشة، المرجع السابق، ج1، ص98-99.

[2] – عبد المجيد الشرفي، المرجع السابق، ص114-115.

[3] – المرجع نفسه، ص 114-115.

[4] – محمود بن شريف، الصبر في القرآن، شركة عكاظ السعودية، ط1(1984)، ص 16. ملاحظة:- ارتباط دلالة الصبر بالأفعال القولية والأعمال التعبدية المختلفة، وكلها أفعال تداولية استعمالية منها:التوكل على الله، الصلاة، التقوى، الجهاد، الاستغفار، ...وغيرها.

أ)- طاعة الوالدين:-

وهو العمل التعبدي الذي يدخل ضمن «الأركان العقيدية، ذلك أنه يقوم أساسا على توجيه فكر المؤمنين وعقيدتهم في اتجاه واحد، ومن ثم توحيد صفوفهم»[1].

وقد اتضح أن طاعة الوالدين هي من طاعة الله تعالى وطاعة لنبيه الكريم ولعل الأمر هنا في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾الآية 14، يبين لنا هذا بوضع حرف الباء الذي «يمنح العلاقة بين المأمور والآمر صفة الملازمة و المصاحبة، لأن من معاني الباء الإلصاق ...»[2].

وعلى الرغم من قلة الكلمات الموجودة في هذا الأمر، ورغم إيجازها، إلا أنها تحمل حمولة دلالية غزيرة وكثيفة، تجعل الإنسان يبتعد عن كل إساءة أو ردة فعل قد تصدر عنه اتجاه والديه.

ونتخيل مع بعضنا بعضا ما تقوله الآية: إنها تقول «على كل ولد يمر بهذه الموعظة أن لا ينسى حق والديه، الذين أحسنا تربيته ..كما أن أمه حملته وهنا على وهن وذاقت الآلام بين حمل ورضاع في عامين لا تعادلهما الأعوام التي يقضيها في محاولة البر وسداد الدين»[3].

هذا وقد استخدم اللفظ القرآني كلمة "وصينا" بدلا من "أمرنا" «ليدلنا على جمال الفرق بينهما، وإشعارا لنا بأن المسألة مفروغ منها تحتاج إلى تحريك النفس نحوها لا إلى الإلزام، والقرآن الكريم بهذه الطريقة يقرر أحكامه الشرعية، لأنه أحاط بالإلزام رفعة المخاطبة مع بعث الرحمة في التوصية»[4] وهي في هذا السياق «رياضة للنفس على الطاعة في إطار من سياق الانفعال البشري السامي في تهذيبها، وتعلقها ..تعلق محبة، فيجعل هذه التوصية مطية الاختيار الأعظم وهو وجه العلاقة بين الإنسان وخالقه ...» [5].

---

(1) – شايف عكاشة، المرجع السابق، ص102.

(2) – سعد كموني، المرجع السابق، ص219.

(3) – محمد رجب السامرائ، المرجع السابق، ص 73.

(4) – أحمد ياسوف، المرجع السابق، ص 112.

(5) – عبد المجيد الشرفي، المرجع السابق، ص112.

ب)- النهي عن التكبر:-

هي من الأعمال المنهي عنها في خطاب لقمان، ولعل من مترادفاتها "الصعر"، "المشي مرحا"، "الافتخار والاختيال" ... وقد نعدها أفعالا إنجازية، لأنها تؤدي بواسطة حركات معينة، كانت الآيات قد وصفتها وصفا دقيقا ومعبرا تماما عن مدى فظاعتها، وكبير جرم الإنسان إذا ما تحلى بهذه الأوصاف .ففي نهيه عن التكبر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾الآية 18 «والصعر داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها ...وقد اختيرت هنا للتنفير من الحركة المشابهة للصعر ...حركة الكبر والازورار وإمالة الخد في تعال واستكبار»[1] وهو ملعون صاحبها .....كما أن من دقائق معاني هذه الحركة، كما جاء تفسيرها عند القرطبي بقوله «لاتمل خدك للناس كبرا عليهم وإعجابا واحتقارا لهم ...وقيل: هو أن تلوي شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره، فالمعنى: أقبل عليهم متواضعا، مؤنسا مستأنسا وإذا حدثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه»[2].

وهناك تقابل لهذا الفعل مع أفعال أخرى وردت في ذات السياق قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾الآية 18 وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ففي الأولى وصف للمشي المرح «وهو فرط النشاط من فرح وازدهاء...حيث انتصب على الصفة لمفعول مطلق معناه "مشيا مرحا" ...وموقع قوله "في الأرض" بعد "لا تمش" مع أن المشي لا يكون إلا في الأرض، إيماء إلى أن المشي في مكان يمشي فيه الناس كلهم قويهم وضعيفهم، ففي ذلك موعظة للماشي مرحا أنه مساو لسائر الناس»[3].

أما الآية الثانية فكذلك تعني الكبر والخيلاء من قوله ﴿ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ «فصيغة الافتعال فيه للمبالغة في الوصف، إذ أن وزن مختال هو مختيل لما تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله قلب ألفا، وعليه فإن قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾الآية 18، مقابل﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ

---

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، ص2790.

[2] – القرطبي، المرجع السابق، ص 70.

[3] – الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص167.

لِلنَّاسِ ﴾وقوله ﴿ فَخُورٍ ﴾ مقابل قوله ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾فمن دلائل الكبر وحركاتها – تصعير للخد، والمشي المرح، إما مشيا في تبختر واختيال بالفعل أو فخر بالكلام .

–ومن حركاتها حركة الخد التي هي التصعير، وحركة المشي التي هي المرح وما على المخاطب هنا سوى الابتعاد عن هذه الأفعال والحركات وبالتالي النهي عنها مطلقا .

والملاحظ في الآيات أن الأمر يعقبه نهي، والنهي يعقبه أمر وهكذا، فبعد نهيه عن المشية المتكبرة وحركة الخد الساقطة يقابل في الآيات بأمرين هامين هما:

–القصد في المشي

–والغض من الصوت

فماذا تعني هذه الأفعال ؟

من المعاني البينة والواضحة للجذر "قصد"أنه يدل على أمرين هما:

«1)–الاستقامة:المأخوذة من استقامة الطريق ...ويقال:اقتصد فلان في أمره أي استقام.

2)–الاعتدال والتوسط:وهي المأخوذة من قولهم:رجل مقتصد أي ليس بقصير ولا جسيم، فسمي به كل شيء بين مستو وغير مشرف ولا ناقص ثم استعملت للدلالة على الاعتدال والتوسط في الأمور ...ما بين الإسراف والتقتير»[1].

هذا وقد ذكر "ابن جني" تداول اللفظة عند العرب وفي كلامها تعني «الاعتزام والتوجه والنهوض نحو الشيء سواء كان اعتدالا أو جورا...وهو أصل المعاني...وإن كان يختص – خاصة– في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل»[2].

أما الغض فهو «نقص قوة استعمال الشيء، يقال: غض بصره إذا خفض نظره فلم يحدق –فغض الصوت:جعله دون الجهر»[3] وقالوا إن الغض هي استعارة «لأن أصلها الحط

---

[1] – نوال زرزور، المرجع السابق، ص125.

[2] – المرجع نفسه، ص125.

[3] – الطاهر بن عاشور، م س، ص 168.

من منزلة علية إلى أخرى دنية، فيقال: غض فلان من فلان إذا فعل به ذلك قولا وفعلا، وغض طرفه إذا كسره وضعفه ..أي كأنه قال: حط صوتك من حال الارتفاع إلى حال الانخفاض إخباتا لله»[1] وأخيرا فإن هذه الحركات والأقوال والأفعال، تبين لنا أبعادا جمالية وأخرى نفسية تعتبر قواعد أساسية لتقويم السلوك الإنساني، ذلك أن «الإسلام ما وضع هذه القواعد إلا على أسس الحق والجمال فجعلها منهج المسلم في حياته ومعاملاته . وجعل الرفق واللين والتواضع من أهم آداب السلوك الاجتماعي ..، والخطاب الوعظي هنا يوجه نظره إلى توخي الحسن والجمال في مشية الإنسان، وفي حديثه بطريقة لائقة محببة إلى النفس، لا تتقزز لها الأسماع أو تشمئز منها الآذان»[2].

المبحث الأول : – آليات التواصل في خطابها:

أ)– الآليات اللغوية:–

وهي الآليات المستخدمة في الخطاب القرآني، وتبحث في الأدوات اللغوية والأساليب والصيغ التي ترتبط بالأغراض التداولية، خاصة عند استعمال اللغة، كآلية النداء والحذف والتكرار والتقديم والتأخير ..ولعلها هنا تتنوع بتنوع أساليب الانتقال في الكلام من مقام إلى مقام .

فالنداء الذي يعد من «مقتضيات المكونات الإنشائية الطلبية، هو من أكثر هذه المكونات اقتضاء وأهمية في أسلوب القرآن الكريم، إذ لا ينادى لفظ الجلالة إلا به.. وقد ينوب

---

[1] – الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ت: علي حمود مقلد، منشورات دارمكتبة الحياة، بيروت، ط 1986، ص 238.

[2] – عيد سعيد يونس، التصوير الجمالي في القرآن الكريم، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 2006، ص117.

عنه بالفعل المعبر بـ "أدعو أو أنادي»[1].

ولعل من أغراضه في هذا الخطاب «الإغراء والتحذير والاختصاص والتنبيه التعجب والتحسر ...فإذا حملت كل هذه الآليات على بعدها التداولي يعطيها بعدا ديناميا يجعل دراستها مناسبة لطبيعة القرآن وبنيته»[2].

ولو رجعنا إلى آيات الوعظ في السورة، نجد أن النداء بـ"يا" يحمل شحنات دلالية كثيفة كالتنبيه والاقتراب والاستحضار للقول وهكذا ...ولأن الآيات تفتتح نداءها بـ "يابني" فهي تدل حتما على «التنبيه والتحذير بطريقة تلمس فيها العطف والحنان والرقة في حمل الخطاب، ذلك أن النداء طلب واستحضار يراد منه إقبال المدعو على الداعي ليتمكن من توجيه ما يريد، ويصحب ذلك غالبا الأمر والنهي»[3]، ولأنهما مرتبطان بمادة الوعظ فإن طبيعتهما أنهما «زجر مقترن بتخويف، والمزجور عنه يتعلق بفعل الموعظة، والزجر هنا يكون عن الإشراك بالله»[4] الذي يعتبر من الكبائر المنهي عنها، فيكون لقمان بذلك «قد جمع في هذه الموعظة أصول الشريعة وهي الاعتقادات وأدب المعاملة وأدب النفس»[5].

وقد كان النداء هنا قريبا من المنادى «إشعارا منه بمنزلة الصلاة وأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر...وتعتبر ذات شأن ينبغي أن يلتفت إليها المخاطب ليدرك أهميتها فيتبادر إلى الإجابة والامتثال»[6]. هذا وإن "يا" تعد من «الأفعال السلوكية كما يقول أوستين حين قسم الأفعال الكلامية، وربما أن هذه الآيات تزخر بأفعال الأمر التوجيهية (directive) وهدفها كما جاء عند سيرل بأن تجعل المرسل إليه يفعل شيئا ما ويحاول المرسل تحقيق هذا الهدف بدرجات مختلفة، وهي تتراوح بين اللين وذلك بالإغراء والاقتراح أو

---

(1) – أشواق النجار، المرجع السابق، ص304.

(2) – بوقرومة حكيمة، مقال:" دراسة في الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، مقاربة تداولية "، مجلة تحليل الخطاب، ع 3، ماي 2008، تيزي وزو، ص 12.

(3) – المقال السابق، ص 13.

(4) – الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص 154.

(5) – المرجع السابق، ص 154.

(6) – أشواق النجار، المرجع السابق، ص 305.

النصح، وبين العنف والشدة، وذلك بالإصرار على فعل الشيء»[1] أو تركه بالابتعاد عنه أو تأديته ...وهكذا.

وأخيرا فإن حرف الياء «قد يضفي على النص بعدا يأخذ بمجامع القلوب ويتجاوب مع نظام التتابع في الكلام، والانتقال من حالة قولية إلى أخرى لها علاقة وثقى بها. والملاحظ أن مقدار احتواء هذا النص الكريم على اللين والرفق لاسيما تكرار حرف النداء والمنادى ليصنع معادلا في ذهن المتلقي بين دعوة الناس إلى الله ..(وهنا دعوة الأب لابنه) والخلق الرفيع، ولتظل الذاكرة على مدى العصور يقظة تربط بين علم الأنبياء وأخلاقهم»[2].

وإذا ما انتقلنا إلى ظاهرة "الحذف" والتي تعد من القضايا البلاغية الهامة، فإنها تحمل في طياتها دلالات متنوعة. فقد يكون «الحذف في بعض الكلام لدلالة الباقي عليه، وقد يسمى أيضا بالاكتفاء –والملاحظ – أنه ليس مرتبطا بنص الخطاب وحده، بقدر ما يتعلق بالسامع وعلاقته بالخطاب»[3].

ثم إن الحذف كما هو معروف –كذلك– «غياب يستكمله المتلقي، كان من دلالاته المتعلقة بالمخاطب، تفخيم المحذوف في نفسه، لما فيه من الإبهام لذهاب الذهن فيه كل مذهب وتشوفه إلى ماهو المراد فيرجع قاصرا عن إدراكه، فعند ذلك يعظم شأنه»[4].

أما ما يتعلق بالخطاب فمن أغراضه التداولية أنه «قد يلجأ للحذف والسأم والملل كي يظل المخاطب مشدودا إلى النص»[5].

ومن دلالات أسلوب الحذف في سورة لقمان هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ ﴾الآية 16، حيث حذف نون "كان" المجزومة التي ذكرها العلماء بأنها إذا حذفت فهي تنبه عن صغر الشيء وحقارته، ففي هذه الآية «قالوا:مرة جاء بالفعل بلا

---

(1) – عبد الهادي الشهيري، المرجع السابق، ص 158.

(2) – محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، العراق ط 2 (2003)، ج 1، ص 213.

(3) – بوجادي، المرجع السابق، ص 182.

(4) – محمد عبد الباسط عيد، المرجع السابق، ص 186.

(5) – المرجع نفسه، ص 187.

نون ومرة جاء به النون وقد يبدو أن كلا الأمرين واحد، والحقيقة ليست كذلك، فالأولى لم يعين مكانها، ثم عين مكانها فيما بعد فقال ((فتكن في صخرة)) فالأولى أبعد في الوجود أي هباءة تائهة لامكان لها فحذف النون »[1].

ثم إن هناك جواب الحذف في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ الآية 25 حيث حذف الفعل هنا، والذي كان تقديره "ليقولن خلقهن الله" تخفيفا على السامع أو القارئ الذي له سابق معرفة بالمحذوف لتقدم ذكره، كما أخبر بهذا أحد الباحثين.

وخلاصة القول فإن من أهم الأغراض الجمالية لأسلوب الحذف سواء في الأدب العربي أم في القرآن الكريم:

«1- قدرة المستمع على استحضار المحذوف إما لوضوحه أو لقربه أو من الإدراك لشهرته فتكون عناية المتكلم بالكلام على حسب حال المخاطب المستمع وعلى قدر مشاركته له في بعض الفوائد والمعلومات فيضمر ما علمه المخاطب ويظهر ماجهله وغاب عنه »[2].

«2-إفساح المجال أمام النفس لتذهب في تصور المحذوف وتقديره كل مذهب ممكن»[3].

ثم أضاف مصطفى شاهر مخلوف على وجوب إضمار الكلام للمستمع القادر على استحضار أدلته السياقية فعلى قدر ما يستطيع المتكلم أن يحذف ويضمرعلى قدر ما يبذل المستمع من جهد في الفهم[4].

ب)-الآليات الغير لغوية:-

من الآليات التي قد نعدها غير لغوية، وإن كانت تتسم بالخطاب اللغوي هو ورود "الأمر

---

[1] - فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، شركة العاتك للطبع والنشر، العراق، ط 2 (2003)، ج1، ص213.

[2] - إدريس مقبول، الأسس الإبستيمولوجية والتداولية للنظر النحوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1(2006)، ص337.

[3] - المرجع نفسه، ص 337.

[4] – أنظر: مصطفى شاهرمخلوف، أسلوب الحذف في القرآن الكريم وأثره في المعاني والإعجاز، ص 174

والنهي" فيها عن طريق تداولهما، فلا بد أن الأمر يصدر عن سلطة عليا وهي التي تعرف بالآمر وأن المأمور هو أدنى منه فكان من الواجب الإذعان لما يتلقاه بواسطة الأمر والنهي، ومنها تستفاد دلالاتها في استنباط الأحكام الشرعية من وجوب واستحباب وندب وحرام ومباح ... وهي تعد من الأفعال التوجيهية في علم التداولية إذ إن لهذا «التوجيه وجوها كثيرة منها ما يسمى بالندب والتأديب والإرشاد وكلها معان متقاربة ..فالندب توجيه إلى ما يرجى به ثواب الآخرة، والتأديب توجيه إلى ما يهذب بالأخلاق ويصلح العادات . والإرشاد توجيه إلى ما فيه مصلحة دنيوية»[1] ولأن كل هذه المعاني قد اجتمعت في وصية لقمان لابنه، إذ تنوعت خطاباتها الأمرية من ندب وتأديب وتهذيب وتوجيه، فكانت الصيغة الأكثر تداولا هنا مع اختلاف أساليبها الاشتقاقية هي صيغة "افعل" أو "لا تفعل" وذلك بعد افتتاح الآيات الوعظية هذه بأسلوب "إذ" الذي يعني «(اذكر) الوقت والزمان الذي صدرت فيه هذه الموعظة الحكيمة، فإن رفعة شأنها بلغت غاية عظيمة متى سرت إلى الوقت الذي قيلت فيه، فجعلته يستحق الذكر والتسجيل، فهي وصية تاريخية يهتم بوقتها فما بالك بأهمية موضوعها، ليكون الأسلوب أقوى وقعا وأثرا في النفس، حيث أتت كل جملة تعطي حكمها بنفسها»[2] بواسطة الإقناع الذي يعتبر من الصور الحجاجية ذات الأفعال الإنجازية القوية، وهو هنا جاء بأسلوب ترغيب مميز جعل «العمل الإقناعي الموجه يجذب انتباهة—الابن– ...ويشد اهتمامه ويرد على تساؤله في الوقوف على تبريرات مفهومة وبسيطة لأموره التي تحيط به والتي جعلته مستعد لتقبل التفسير الذي قدم له ..»[3] وفي وسط الوصية يستخدم —الواعظ– آليات أخرى غير لغوية، وهي الأساس في هذا التواصل، والتي تعرف «بالأمثال الاعتبارية إذ يعد المثل أخص الثقافات الشفاهية ..ويكون في شكل صيغ قولية مكثفة ومعبرة يمكن تداولها والاعتبار بها في مواقف محددة»[4] وبما أن في «الوصية الهدف الوعظي الاعتباري»[5] فإنه قد «تتعدد المعاني التي

---

[1] – عبد الهادي الشهيري، المرجع السابق، ص 343.

[2] – نور الدين عنتر، في تفسير القرآن وأسلوبه المعجز علميا وبيانيا، مطبعة الصباح، دمشق، ط2 (1999)، ص72- 73.

[3] – خالد حسين حمدان، مقال:" الإقناع أسسه وأهدافه في ضوء أسلوب القرآن الكريم، جامعة غزة.

[4] – عبد الله ابراهيم، التلقي والسياقات الثقافية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1 (2000)، ص138.

[5] – المرجع نفسه، ص 138.

تنطوي عليها وهي تتدرج من تهيئة الجو لما سيكون عليه الكلام ووضع الموصي في هذا الجو كي يتكيف معه ويعتاد عليه»[1] كما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ الآية 15 وقوله:" إن أنكر الأصوات لصوت الحمير" الآية 18، إذ ناسب سياقها السياق الذي جاء قبلها، بحديثه عن الوالدين وطاعتهما وعظم هذه الطاعة في الدنيا والآخرة فالله مطلع على النفوس في ذلك، وهو يعلم صغيرها وكبيرها، فكذلك مع مثل «الخردل التي يأت بها الله جميعا فهي آيات تدل على قدرته وقوته ولطيف أحكامه ....أما الآية الثانية فهي تناسب كذلك سياقها الداخلي، ذلك أنها تتحدث عن الصوت المرتفع والمنكر ولعل دلالة "من" تبرز هذا فهي هنا تدل على التبعيض لإفادة أنه يغض بعضه أي بعض جهره، وهو ينقص من جهورته ولكنه لا يبلغ به إلى التخافت والسرار. فجملة: «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير" تعليل علل به الأمر بالغض من صوته باعتبارها متضمنة تشبيها بليغا، أي لأن صوت الحمير أنكر الأصوات، ورفع الصوت في الكلام يشبه نهيق الحمير، فله حظ من النكارة»[2].

3)- آليات السياق:

أ) – العلاقات الداخلية (السياق الداخلي):-

تبدو أن محاور السورة الرئيسية متناسقة ومتناسبة فيما بينها، ذلك أن كل محور فيها تنبئ موضوعاته وتخبر عن المحور الذي يليه في انسجام محكم وتماسك متين، يدل على عظمة هذا الخالق الذي أعجزت حروفه كتابه العزيز وكلماته وجمله ومعانيه حتى تحدى كل إنسان أن يأتي بمثله.

وبما أن سورة لقمان هي مكية، فإن محورها الكبير هو "العقيدة" المناسب لمثل هذه السور، ويمثل فيها لقمان «نموذج من نماذج الطريقة القرآنية في مخاطبة القلب البشري»[3] خاصة للذي

---

[1] – المرجع نفسه، ص 143 .

[2] – الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص 168.

[3] – سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، ج 19، ص2780.

هو حاضر معه في كل وقت وحين .

هذا وإن من أهم المواضيع التي يبدو فيها تماسك عناصرها داخل الآيات، هو موضوع "الكبر" الممتد في السورة مع موضوع الخلق والمآل، ذلك أن الآيات تلتقي فيما بينها وتتناسب داخل المنظومة الخطابية بعد أن حددتها سياقات الآيات والتي تتراوح ما بين العقائد والمعاملات، فتبدأ بجملة من الإعراضات انطلاقا من الأعلى إلى الأدنى، فكان من مواطن إعراض المتكبر –كما جئنا بها سابقا –قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾الآية 7 (تكبر وإعراض عن سماع آيات الله).

وقوله: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾الآية 15 (التكبر والإعراض عن العبادات والمعاملات) ثم قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾الآية 18. (هناك تبختر وافتخار بالنفس في حركة المشي الكريهة، وهذا التفاخر هو تعبير عن شعور مريض بالذات، حتى إنه يتنفس في مشية الخيلاء، كما جاء عن الطاهر بن عاشور.

–وقوله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾الآية 19 (المشي والصوت الزائدين عن الحد: نوع من التكبر)

والملاحظ أن هناك ثمة علاقة وطيدة بين الآيات الأولى، والآية "33"، إذ هي: تجمع المحاور الكبرى للسورة كلها:

علم الساعة ينزل الغيث يعلم ما في الأرحام

–الآخرة (البعث) الانتفاع به في الانسان

الدنيا (الأرض)

ماذا تكسب غدا **لا تدري نفس بأي أرض تموت**

الرزق(مال، بنون، طعام) مآل ورجوع إلى الله تعالى

ثلاثي لا يستغني عنه الإنسان

وجملة الآية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ الآية 34

ونستطيع أن نجسد في شكل دائرة لها محور ومركز تدور في فلكه وتعود إليه:

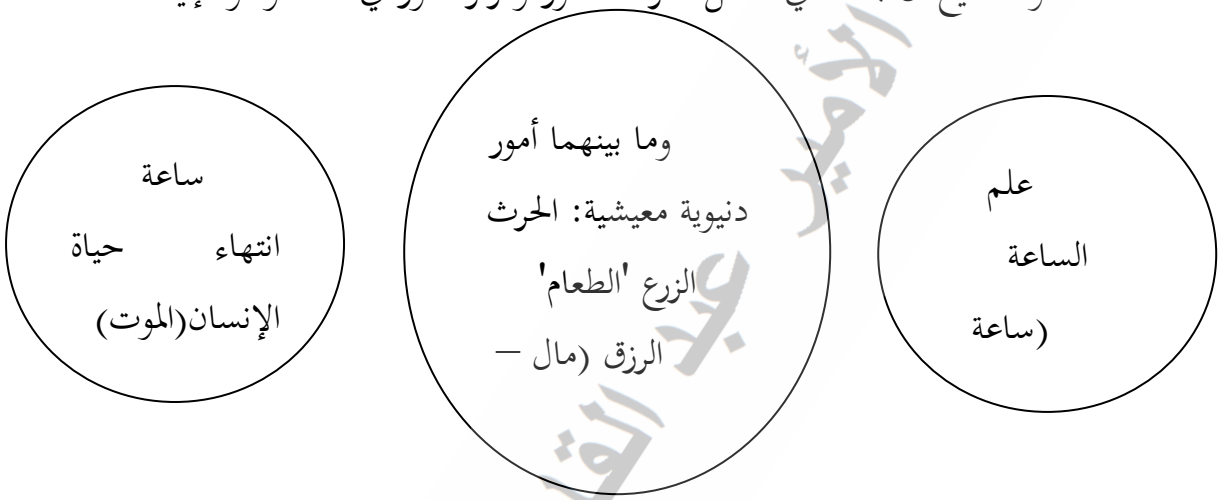

هذا وقد تعرضت الآيات الأخيرة إلى محاور الكون الذي تقوم عليه الحياة، وذلك انطلاقا من السموات وما يوجد فيها، والأرض وما تحويه من خيرات ومكاسب وكلها خلقت لخدمة الانسان الذي يعد المحور الرئسي لهذه الحياة، وكلها مؤثرات يتأثر بها وتتأثر به.

ولعل «السياق القرآني يعرض لها هنا ...وهي تؤثر في القلب البشري في رقعة هائلة....رقعة فسيحة الزمان والمكان، وفي الحاضر الواقع والمستقبل المنظور، ... ما بين الساعة البعيدة المدى، والغيث البعيدة المصدر، وما في الأرحام الخافي عن العيان، والكسب في الغد وهو قريب في الزمان ومغيب في المجهول وموضع الموت... وكل هذه الآيات غيبيات لا يعلمها إلا الله لإثبات القصور البشري أمام القدرة الإلهية المطلقة ..» [1]

---

[1] – أنور الباز، المرجع السابق، ج3، ص 13.

ملاحظة:قد يلفت انتباهنا مدى تلاؤم الآية الأخيرة من السورة، بسياقات الآيات المتقدمة وذلك بحسب موضوعاتها ففي قوله تعالى: ﴿ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ دليلها قوله: ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ وقوله: ﴿ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗا ﴾ ودليلها وصايا لقمان ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُ ﴾ ودليلها قوله: ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ ﴾.

وجملة القول فإن من المعاني الجليلة التي تبين تماسك بناء الجمل الموجودة في السورة، لغويا ودلاليا، ما ورد في تفسير المراغي قوله: «بعد أن بين سبحانه أن لقمان أوتي الحكمة، فشكر ربه على نعمه الظاهرة عليه، وهو يرى آثارها في الآفاق والأنفس آناء الليل وأطراف النهار أردف ذلك ببيان أنه وعظ ابنه بذلك أيضا ثم استطرد في أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامة وصى بها سبحانه الأولاد في معاملة الوالدين رعاية لحقوقهم، ورد لما أسدوه من جميل النعم إليهم وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولانفعا على ألا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى، ثم رجع إلى ذكر بقية المواعظ التي يتعلق بعضها بحقوق الله وبعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض»[1].

ب)–علاقة الآيات الخارجية (السياق الواقعي):

يتسم جو السورة بالهدوء واللين، وذلك في تناغم وتآلف مستمرين وفي حركة تناغمها الثابت، فلا نلحظ ذلك التصعيد في الكلام، فطبيعة المرسل والمرسل إليه تستدعي ذلك .

ولعل المرويات تذكر لنا أن من أهم أسباب نزولها، هو الفضول في معرفة تلك الوصايا لقمان وتصحيح نظرة الناس إلى القرآن في أنه أفضل الصحف وأحسنها في سرد القصص فمما «ذكره ابن أبي إسحاق عن الفترة التي بدأ النبي ﷺ يعرض فيها نفسه على القبائل أنه ﷺ لما علم بمقدم سويد بن الصامت إلى مكة حاجا أو معتمرا، تصدى له النبي حين سمع به، إذ دعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد أن الذي معك هو مثل الذي معي وقد تساءل الرسول ﷺ ما الذي معه، فأجاب وقال: مجلة لقمان، وقد عرضها عليه ..لكن النبي ﷺ رد عليه فقال: إن هذا الكلام حسن، معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله على هدى ونور، وتلا عليه "الذكر" ودعاه إلى الإسلام»[2].

---

[1] – أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ج21، ص 87.

[2] – محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 75.

وفي الرواية الثانية، قيل أنها نزلت ردا على النضر بن الحارث، الذي كان يخرج تاجرا إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم فيرويها، ويحدث بها قريش ويقول لهم إن محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن، فنزل قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ الآية 6[1]

أما الآيات الأخرى فنزلت متفرقة حسب حوادثها منها:

-الآية 15، التي نزلت في سعد بن أبي وقاص، ومن الآية 7 إلى 15، نزلت في أبي بكر الصديق، أما الآية 27 ففي اليهود، وفي الأخير الآية 34 في حق الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب[2].

ولعل السورة كلها مكية ما عدا الآية 27، 28، 29 التي ناسبت أن تكون مدنية، لارتباطها بأسباب الحضارة والتمدن والتقدم العلمي المنشود والذي سيكون فيما بعد في المدينة. ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ ﴾ الآية 27 «أن اليهود قالت:يامحمد، كيف عنينا بهذا القول»، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه، وعندك أنها تبيان كل شيء ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ «التوراة قليل من كثير ونزلت هذه الآية»[3] والتي هي دليل فعلي ملموس على أن كلمات الله التي تحيط بحقائق كل شيء وبكل علم من العلوم، هي كلمات لا تنفذ ولا ينبغي لها النفاذ، ولو كان البحر مدادا لذلك الكلام أو البيان ويمده من بعده سبعة أبحر، فعلمه أحاط بكل شيء سبحانه وتعالى عما يشركون وعما يدعون.

والملاحظ هنا أن جل الآيات كانت لها علاقة بالواقع آنذاك، وهذا هو الأساس من دراسة سبب النزول .إذ قد عرفه العلماء بأنه: «ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه، كمحادثة وقعت في زمن النبي ص أو سؤال وجه إليه، فتنزل الآية من الله

---

[1] – المرجع نفسه، ص 75.

[2] – انظر أسباب النزول، السيوطي، ص170-171.

[3] – القرطبي، المرجع السابق، ج13، ص 77.

تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال، وسواء كانت تلك الحادثة خصومة دبت أم كانت خطأ فاحشا ارتكب، أم كانت تمنيا من التمنيات ورغبة من الرغبات كموافقات عمر رضي الله عنه»[1].

ومن السؤال في سورة لقمان ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾الآية 25 ومن الخصومة قوله عن المتكبرين ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾الآية7 ومما يتصل بالأخبار عن الساعة قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ الآية 34

هذا وإن من السياقات الخارجية، وجوب معرفة مقتضيات الأحوال التي دعت إلى ورود أقوال في سياق وزمن ومكان معين، فوجب بذلك معرفة ما يسمى عند علماء الأصول " بعلم المقاصد" الذي أسس له الشاطبي، وذكر بأنه علم يبحث في التداوليات الشرعية، ويهتم بدراسة قصد المتكلم بالكلام «ودليل ذلك ما ذهب إليه حين تحدث عن القوة الإنجازية، التي قد تخرج الاستفهام مثلا إلى معان أخرى، من تقرير وتوبيخ وغيرها ...أو كالأمر الذي قد يؤول بمعنى الإباحة والتهديد والتعجيز، وأشباهها من المعاني التي تقتضيها السياقات ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجية، وعمدتها مقتضيات الأحوال»[2].

فالأوامر الصادرة من الوالد لابنه، والتي كانت بمثابة نصائح وإرشادات ومواعظ ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾إذ يضعنا سياقها في حال واحدة من الأحوال المقتضية للكلام وهي حال الوعظ، أما الآيات التي تحمل معاني التقرير والتوبيخ والتهديد فهي: قوله ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾على سبيل التهديد وقوله ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾على سبيل التقرير وقوله ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾على سبيل التوبيخ وهكذا ... وهي لا تخرج عن استعمالها اللغوي «ذلك أن أهم الأسس النظرية المقامية، هي أنها تحدد بشيئين هامين هما: -عرفية

---

[1] – محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، ط2008، مجلد 1، ص 76-77.

[2] – إدريس مقبول، الأفق التداولي، المرجع السابق، ص 57.

الاستعمال و-مقصد المتكلم»[1].

أما عرفية الاستعمال فهي تنقسم إلى عرف لغوي، واجتماعي وشرعي:

أ)- **العرف اللغوي:** «وهو باعتبارين هامين:أحدهما:أن يوضع الاسم لمعنى عام ثم يخصص عرف الاستعمال من أهل اللغة، ذلك الاسم ببعض مسمياته»[2]، فإذا أطلق الوضع فإنه يطلق على «جعل اللفظ دليلا على المعنى ...وعلى غلبة استعمال أحدهما في الآخر حتى يصير أشهر في غيره وهذا هو وضع المنقولات الثلاثة:الشرعي والعرفي العام، والعرفي الخاص»[3] مثاله «الصلاة التي تعني لغة الدعاء في مفهومه العام، وقد أعطي بعد ذلك مفهوما خاصا وهو ذلك النوع من العبادة التي يؤديها المسلم 5 مرات في اليوم .إن هذا المعنى أكثر شيوعا من المعنى اللغوي الأصلي لكلمة "صلاة" يمثل الوضع الشرعي لكونه وقع بمقتضى الشريعة»[4].

«والاعتبار الثاني أن يصير الاسم شائع في غير ما وضع له أولا، بل فيما هو الجديد الذي أصبح مجاز فيه...فصار أصل الوضع منسيا والمجاز سابقا إلى الفهم بعرف الاستعمال»[5].

ب)- العرف الاجتماعي:-

يرتبط العرف الاجتماعي «بالفتوى التي تتغير بتغير العرف والعادة»[6] وبما أن العرف هو ما تعارف عليه الناس، فهو مرتبط بالتواصل اللغوي ذلك أن «كل تواصل قابل أن يتخذ دلالات متنوعة خصوصا وأنه يتم داخل مجتمع معين، وبما أن العلاقات الاجتماعية علاقات متعددة ومتنوعة فهذه العملية تتخذ أيضا نفس الدلالة ...ثم إن داخل كل مجتمع من المجتمعات توجد مجموعة من المباحات والممنوعات مما يجعل عملية التواصل بمثابة قواعد ..تحدد

---

(1) – محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص 85.

(2) – المرجع نفسه، ص86.

(3) – محمدمحمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي، دار المدار الإسلامي، ط1(2006)، ص45.

(4) – المرجع نفسه، ص45.

(5) – المرجع السابق، ص 45.

(6) – محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص87.

ما هو مباح وما هو ممنوع»[1].

تماما كما في الآيات التي توضح بأن الذي يدخل في دائرة التوحيد لله وهو مسلم وعليه أن يلتزم بعادات وأفعال تجعله يتميز عن غيره من الذين يدينون بديانات أخرى، وما على الفرد والجماعة سوى أن تتقيد بهذه المباحات وتجتنب الممنوعات، فتجعلها طريقا لنجاتها ونبراسا في حياتها منها:

- وجوب التوحيد لله تعالى، والنهي عن الشرك به .
- وجوب التواضع والنهي عن التكبر.
- وجوب طاعة الوالدين، ووجوب الصلاة والنهي عن المنكر .
- وجوب خفض الصوت، والمشي المقتصد وهكذا ...

ج)-العرف الشرعي:

كان بمنزلة العرف اللغوي كما ذكرالإمام الغزالي، وذلك بقصد النية التابعة لفعل من الأفعال، فكما أن «قصد الصلاة وهو الخضوع لله سبحانه وتعالى بإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة بين يديه، وتذكير النفس بالشكر له .. فإن العبادات كلها أصلا وضعت لمصالح العباد في الدنيا والآخرة...أما مقاصدها التابعة فمتعددة منها النهي عن الفحشاء والمنكر، ومنها الاستراحة من أنكاد الدنيا وطلب الرزق بها»[2].

وخلاصة القول فإن الإجماع حول مساهمة علماء الأصول بدراسة اللفظ والمعنى في القرآن، والقصد منها، ما هي إلا مساهمة منهم في «فهم النصوص الإسلامية والاستنباط منها ....فيكون المستنبط مدركا لمراسي العبادات، وطرق الأداء سواء بالتعبير بالحقيقة أحيانا، وتعبير بالمجاز أخرى، ومدى الدلالة في كل طريق من طرق الأداء، لأن المعرفة لها مداها في فهم

---

[1] – فائزة محمد محمود المشهداني، المرجع السابق، ص 832.

[2] – إسماعيل الحسني، مقال:الفكر المقاصدي وترسيخ الفكر العلمي، مجلة إسلامية المعرفة العدد57، السنة 15، 2009، ص58.

النصوص وتبيين الأحكام منها»[1].

«فالحكم في عامة أمره لايخاطب الوجدان، وإنما يخاطب العقل الذي هو مناط التفكير، ودعامة الإقناع ووسيلة الفهم»[2] دون الخروج عن فهم المقام الذي أصدر فيه الحكم من أسباب النزول ومن العادات والأعراف عند العرب ..وهكذا.

2)-مقصد المتكلم:

لا يفهم هذا المقصد إلا السامع للكلام، وإن كان هذا السماع يتفاوت فيه كل إنسان بحسب قدراته العقلية واللغوية والثقافية، ولعل هذا ما حصل في تباين فهم الصحابة تعالى على لسان لقمان الحكيم : «يابني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم" فمحل الشاهد هنا – الظلم والشرك-، إذ " فسر الرسول ﷺ الظلم بأنه الشرك بحيث قيد لهم دلالة اللفظ في الآية الأولى بدلالته في الآية الثانية»[3] وقد قال الشاطبي معلقا وشارحا: « ...لقد فهموا فيها مقتضى اللفظ، وبادرت أفهامهم فيه، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم وليس عندهم اعتبار ما وضع له اللفظ في الأصل لم يقع منهم فهمه»[4] فكان هذا من باب ما ذكر الباحثون "اختلاف المعنى المعجمي عن المعنى التداولي" وقد أسموه "باب تصويب القول": أي أن «اختيار الإنسان لأي لفظة من ألفاظ اللغة لا يقوم على اختيار اعتباطي، بل هو في الواقع اختيار لوجه معين من الدلالة، ولعل هذا الاختيار يحمل في طياته الخفية موقفا محددا من الحدث الذي يقع التداول في شأنه، أو من الظاهرة التي يرام وضعها والتحدث فيها..»[5].

ففي الآية السابقة يتساءل الصحابة رسولهم الكريم، من لا أحد لا يظلم نفسه منهم،

---

[1] – محمود عكاشة، الدلالة اللفظية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط2002، ص119.

[2] –المرجع نفسه، ص 120.

[3] – عرابي أحمد، أثر التخريجات الدلالية في فقه الخطاب القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية (ط2010)، ص74.

[4] – المرجع السابق، ص82.

[5] – فائزة محمد محمود المشهداني، المرجع السابق، ص 837.

فمن باب تصويب القول جاء على لسان ابن كثير: "لما نزلت" الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم «شق ذلك عن أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا:أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان ﴿ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾»[1] «فالمقاصد اللغوية الوضعية، أفادت جميع ما استغرقه الظلم في وضع الواضع، أما المقاصد القرآنية فقد أفادت أن المقصود من الظلم هنا هو الشرك بالله»[2].

كما يدخل في باب القصد للمتكلم، استعمال الحروف التي تكون مناسبة لسياقها، ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ﴾«أن نهيه عن المشي في الأرض مختالا مرحا مطمئنا إلى الدنيا ومستقرا فيها يوحي به الحرف الدال على الظرفية ولو جاء هنا الأسلوب القرآني بالحرف الدال على الاستعلاء لما كان له فائدة، إذ يدل حرف "على" على الاستعلاء على الدنيا، وعدم الركون والاطمئنان لها، ومن يتصف بهذا لايحتاج إلى نصح ومن ثم ناسب أن يأتي بـ"في" دون"على"»[3].

المبحث الثاني :دراسة تداولية لخطاب لقمان لابنه:

نقسم الآية التي تتجه وجهة الوعظ من قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ﴾الآية 13، إلى عدة أجزاء، لنحلل مقتضيات خطابها من منظور تداولي:

الجزء الأول: في الملفوظ خلفية افتراض مسبقة، مضمونها أن لقمان الحكيم قد يوجه كلامه إلى أي شخص آخر إذا أراد أن يلقي عليه حكمة أو موعظة «ويستحيل أن يكون هذا

---

[1] – تفسير ابن كثير، المرجع السابق، ج3، ص1447.

[2] – عبد الرزاق وروقية، مقال:" القصد في القرآن "، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 15، ص 24.

[3] – مصطفى شعبان عبد الحميد، المناسبة في القرآن، دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط 1(2007)، ص 260.

يقول الزركشي في تفسير الآية "وذلك لما وصف العباد بين أنهم لم يواطنوا أنفسهم في الدنيا، وإنما هم عليها مستقرون، ولما أرشده ونهاه عن فعل التبختر قال:لاتمش في الأرض مرحا بل امش عليها هونا (أنظر لبرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج 4، ص 200-201.

الخطاب ذا معنى، أو يتواصل به مع ابنه إلا إذا تلفظ به ومرد ذلك أن الجملة اللغوية لا تكون إلا إذا قالها متكلم فيتبين هنا أن الصحة المعنوية رهينة مستعمل الجملة في مقام معين»[1].

والملاحظ هنا أن «الخطاب غدا مؤشرا على كفاءة صاحبه بالقدرة على التكيف مع محيطه ...وقدرته على بناء أفكاره ...» [2].

الجزء الثاني: فعل قولي يتلفظ به بواسطة الأصوات، ففي قوله: «قال ويعظه تخصيص لنوع القول، لأنه قد يقول كلاما غير الوعظ، لكن السياق هنا جاء في قالب من الوعظ والإرشاد لأن الكلام يصدر عن حكيم والحكيم لايكون كلامه إلا نصحا وإرشادا، فيكون بذلك الانجاز الفعلي قد ارتكز على أهلية المرسل لتحديد هدفه، فهناك متكلم يمدح ويذم، وهناك من يأذن ويمنع وهناك من يبين الخيروالشر...والأمر الحسن أو القبيح »[3] وهكذا ....

الجزء الثالث:

تكمن أهمية الملفوظ، في أهمية المرسل ومكانته أمام المرسل إليه، وذلك من خلال نسبة الابن للوالد "يابني"، فهو «المحك الحقيقي لإنجاز بعض الأفعال اللغوية والتي يمكن أن ينجزها الانسان دون توفر الشروط فيه كموقعه الوظيفي»[4] اتجاه الطرف الآخر «فمن دون أن يتبوأ هذا الموقع يتضمنه من صلاحيات لا يمكن أن يصبح خطابه نافذا دون أن تتكئ إنجازاته الخطابية على عامل مهم وهو حصول إرادة للتلفظ بالخطاب في السياق المناسب فإرادته تظل ركنا أساسيا في تداوليته»[5] لكي يحصل الفهم والإقناع .

الجزء الرابع:

«رغبة المتكلم في التعبير وحث المرسل إليه أن "لايشرك بالله" وذلك من خلال ما تمنحه علاقته من خيارات لغوية متعددة، يمكن أن يتجلى بها خطابه، إذ يتدرج لبيان قصده من

---

[1] – عبد الهادي الشهيري، م س، ص 46.

[2] – المرجع نفسه، ص 46.

[3] – المرجع السابق، ص46.

[4] – المرجع نفسه، ص 46.

[5] – المرجع السابق، ص 46.

الخطاب المؤدب».[1]

ولعل المعرفة المشتركة تلعب دورا أساسيا في توضيح هذه الدلالة إذ «تعد أهم العناصر المؤثرة باعتبارها الرصيد المشترك بين الطرفين ...فالمرسل ينطلق من عناصرها السياقية في إنتاج خطابه كما يعول عليها المرسل إليه في تأويله حتى يتمكنا من الإفهام والفهم، أوالإقناع والاقتناع»[2].

وفي الأخير فإن النهي هنا يتعلق بالعلاقة الخطابية في سياق «طلب الأب من ابنه أن لايشرك بالله» وذلك من خلال تحديدها للتلفظ بخطاب واحد من بين هذه الخطابات الممكنة:

-أنا أطلب منك أن لا تشرك بالله .

-هلا توقفت عن الشرك بالله .

-حاول أن لا تشرك بالله.

-يابني لا تشرك بالله .

الجزء الخامس:مواضيع متاحة في الوعظ

في الآية حمولة دلالية تقوم على المعاني التصريحية والمعاني الضمنية، وهي المعاني التي اقترحها "غرايس" أثناء تقسيمه لهذه الحمولات الدلالية ففي المعنى الصريح للآية ما يتضمن محتواها القضوي وقوتها الإنجازية.

فالأول ناتج من ضم معاني مكوناتها تحريم الشرك بالله، لأنه يعدكبيرة من الكبائر أما قوتها الإنجازية الحرفية والمؤشر لها بالأداة لا الناهية، فينتج معناها الصريح من ضم محتواها القضوي إلى قوتها الانجازية الحرفية، وعليه فإن المعنى الضمني للآية يتألف من معنيين جزئيين هما كالآتي:

---

[1] – خلود العموش، المرجع السابق، ص 48.

[2] – المرجع نفسه، ص49

ملاحظة: لقد ذكرت لفظة "يابني " في السورة ثلاث مرات لأهميتها.

-معنى حرفي هو الاقتضاء:أي اقتضاء حرمة الشرك بالله الذي ينتج عنه ظلم عظيم .

-معنى حواري استلزامي:من أكبر ما يترتب على ظلم النفس أنها تشرك بالله وأن الله يغفر كل شيء إلا أن يشرك به .

المعاني الضمنية للأفعال الإنجازية:

يرتبط معنى آية الشرك بوضعية الخطاب وموضعه، وعليه من يستمع إليه فإنه سيربطه بالخطابات التي تليه وسيقول:

1)-إذا أمن لبس الشرك، فإنه سيستمع لكل أمر ونهي .

2)-إذا أمن لبس الشرك، فإنه سيأمن الوقوع في أمراض أخرى .

3)-لا توجد جريمة يرتكبها الإنسان على وجه الأرض أكبر من الشرك، فإن أمنها فستكون الأوامر والنواهي أسهل عليه في التطبيق .

4)- وضع سياج يحفظه من هذه الكبيرة، ومن ثم التخلص منها سيسهل عليه مهمة وعظ الابن وإرشاده .

5)- يريد الوالد أن يطمئن على الابن من آفة الشرك، لأنها من أمراض القلوب المستعصية للشفاء رغم تأكده بسلامة ابنه من الشرك الأكبر والأصغر.

6)-انطلق من مبدأ التخلية قبل التحلية، فإذا لم يتخل عن هذه الآفات الخطيرة، فإنه لا يتحلى بالصفات الحميدة .

7)-الشرك له علاقة بالكبر، فالآيات التي تليها فيها صفات للكبر وتوابعه فإذا لم يستدرك الظلم الأول فإنه ستهون عليه الصفات الموالية، وسيصبح ارتكابها سهلا دون شعور بالذنب أو إحساس بالخطأ والزلل .

8)-﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾: ترويع المستمع وتخويفه من الشرك كي يتجنبه .

والملاحظ في الآيات أنها تبدأ بنهي ثم أمر، خلافا للعادة إذ غالبا ما يبدأ الكلام بأمر ثم نهي، والحكمة في ذلك أن قضية الشرك ليست هينة وهي متعلقة بالعقيدة التي تعد بوابة العبادات والمعاملات كلها، إذ لولاها لا يصح أي شيء بعدها أو من دونها .فالشرك من الكبائر وهو من الظلم العظيم كما وصفته الآية .

أما الآيات المتعلقة بطاعة الوالدين فهي تتحدث عن فضلهما خاصة الأم التي تتعب في مراحل الحمل الأولى، فمن باب أولى الشكر لهما بعد شكر الله تعالى الذي وصى عليهما في قوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ الآية 14-15

هناك محور تداولي رئيسي تدور حوله الآية من قوله تعالى ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾وهو استلزام حواري، ذو حمولة دلالية تدل على المعنيين معا وهما: الحرفي و الاستلزامي .

1-الحرفي: إذا جاهداك على أن تشرك بالله فلا طاعة لهما، ولكن يجب مصاحبتهما بالمعروف.

2-الاستلزامي:إنه قد يتبادر في ذهن الابن سؤال عن طبيعة الوالدين إن كانا يحملان رسالة سلبية (الشرك) فماذا يفعل الابن في هذه الحالة ؟

فأجابت الآيات عن هذا السؤال، ومن سياقها نفسه نستنتج أن هناك أفعالا كلامية كما جاءت عند أوستين وهي:

-الفعل المتضمن في القول: وهو الفعل الإنجازي الحقيقي إذ أنه عمل ينجز بقول ما: «فلا تطعهما .....وصاحبهما».

-الفعل الناتج عن القول: وهو القيام بفعل القول، وما يصحبه من فعل متضمن في القول "القوة".

-الفعل التأثيري: شكر الله وشكر الوالدين، لأنه ناتج عن نعم الله وكرمه على الإنسان

وكذلك فضل الوالدين (وخاصة الأم) على ما تضحيه لأجل أبنائها.

ولأهمية بر الوالدين التي مرتبتها من مرتبة العبادة، فهي مقترنة بها في آيات أخرى، وتدل على عظم العلاقة وقداستها، فقوله "وصينا" تدل على ذلك، لأن الوصية وجه آخر من وجوه النصيحة والوعظ والإرشاد وهي متضمنة "فعل الأمر" .

أما المعاني الصريحة والمعاني الضمنية فهي تظهر في قوله تعالى ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾الآية 18 فالمعنى الصريح هنا مشكل من محتواها القضوي وقوتها الانجازية .أما المحتوى القضوي فهو ناتج عن ضم معاني مكوناتها"ذم تصعير الخد أي ليه أمام الناس، وذم المشي المرح اتقاء للفتنة فالله لا يحب كل مختال فخور.

أما قوتها الإنجازية الحرفية والمؤشر لها بالأداة "لا" فهي النهي، وينتج معناها الصريح من ضم محتواها القضوي إلى قوتها الإنجازية . فالمعنى الحواري الاستلزامي هو التواضع في الأرض وهو مطلب رئيسي في الحياة، ونهي التكبر بأسلوبين هما تصعير الخد والمشي المرح.

وعليه فإن السورة تتراوح كلها بين أفعال قولية وأخرى إنجازية والباقي مشتركة فالأفعال القولية: كأن يتلفظ بها المتعظ من قوله: ﴿ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾" و﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾.

أما الأفعال الإنجازية (فهي القول الفاعل): ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾"لا تشرك بالله "، "لا تطعهما " "صاحبهما" "لا تصعر خدك للناس" "لا تمش في الأرض مرحا" "اقصد في مشيك وهكذا....

والأفعال المشتركة بين القول والإنجاز منها:

-الشكر لله الذي يكون بالتلفظ به في القول والفعل.

-الشكر للوالدين لكن عدم طاعتهما في الشرك ومصاحبتهما في الدنيا بالمعروف..

-إقامة الصلاة بالقول والفعل...

والملاحظ أن جل الأفعال تحمل شحنات عاطفية تأثيرية، خاصة حين تقترب وضعية

المتكلم من حال المستمع فهو يرغبه ويسعده حينا، ويرهبه ويخيفه أحيان أخرى، والغالب عليها تلك الأفعال التي ترفع من همة المتلقي وتشحنه بالثقة الإرادة والصمود، مع الطمأنينة وراحة البال.

وأخيرا فإن من أهم مميزات الأفعال الكلامية التي تناولتها الآيات باستخدامها لآليتي "الأمر والنهي" أنها «أفعال وأحداث تهدف إلى تحويل واقع الأشياء وبناء واقع جديد هو الواقع الذي تسعى إلى إنشائه»[1] في دائرة من المثل العليا السامية ومحاكاة لما جاء في السنة النبوية أن هذا الدين ماهو إلا مجموعة من المعاملات والأخلاق والقيم منها: معاملة الحركات والأعضاء والإشارات والإيماءات، ومعاملة القلب والعقل والضمير والعاطفة والوجدان، ومعاملة الفرد مع الفرد، والفرد مع الجماعة في إطار من النظم والسنن الكونية التي سنها رب هذا الكون للحفاظ على هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فلا تبديل لخلقه ولاتغيير لسننه.

فكان من مجموع العبارات الإنجازية والأدائية من أمر ونهي ووعد ووعيد أنها منظومة متكاملة من القيم و الأخلاق التي انبعثت من الدين الإسلامي الذي حث عليها وجاء أصلا ليتمم مكارم الأخلاق، والتي سنجملها في الجدول التالي:

الأوامر	النواهي
1-الشكر(اشكرلله وللوالدين).	1-لا تشرك بالله
2-طاعة الوالدين (مصاحبة الإثنين في الدنيا بالمعروف) .	2-لا تتبع المشركين وإن كانا والدين
3-إتباع الصالحين (اتبع سبيل من من أناب إلي)	3-لا تصعر خدك للناس
4-إقامة الصلاة.	4-لا تمش في الأرض مرحا
5-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.	

[1] – الأمر والنهي كفعلين إنجازيين في اللغة العربية، م س، ص21.

6-الصبر عن الأذى.

7-القصد في المشي

8-الغض من الصوت

وخلاصة القول فإن الأوامر والنواهي التي نشأت عن الآمر المنجز لهذه الأعمال، سيكون على يقين بأن المستمع سيحاول فهمه وإدراكه لما يقول، إذ لا تنجح عملية التواصل هنا إلا إذا اعتمد كلاهما على ما يسمى عند "غرايس" بمبدأ التعاون الذي يتطلب «الالتزام به وهو منبثق عن حكم أربعة»[1].

« –حكمة الكمية: اجعل خطابك أكثر غنى بالأخبار، على ألا يتعدى ذلك حده ليصبح هدفا في التواصل »[2] كقوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ ﴾﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ﴾.

«–حكمة النوعية أو الكيفية: لا تقل ما تعتقده خاطئا وتفتقر للبراهين الكافية عنه»[3] مثاله:أن أقوال لقمان لاتخرج عن معتقده وإيمانه بهذه المبادئ التي يعظ ويأمر لأجلها من عبادات ومعاملات.

«–حكمة العلاقة أو الإفادة:كن دقيقا ...وحكمة الصيغة:كن واضحا دون اللبس وموجزا منظما »[4]

وقد كان لهذه الوصية نصيب من الاستفادة من هذين المبدأين الأخيرين إذ إنه كان دقيقا في أقواله، واضحا في إبداء آرائه وتبيينها من غير لبس أو غموض فهو إن كان ينهاه عن

---

[1] – الصحبي هدوى، مقال:" كيف تنجز بالأقوال أعمالا "، مجلة رحاب المعرفة، المجمع التونسي للآداب والفنون، بيت الحكمة، ص 48.

[2] – المرجع نفسه، ص 48.

[3] – المرجع نفسه، ص48.

[4] – المرجع السابق، ص 48.

الشرك بالله، فلكي يدخله في دائرة الإيمان الواسعة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبر الوالدين واجتناب التكبر والابتعاد عنه، وخفض الصوت والمشي المقتصد .... وكلها أعمال لغوية تندرج ضمن ما سماه "سيرل" بقسم الطلبيات، وهي تتميز بـ «أن يلزم المخاطب بإحداث المطابقة بين العالم والقول.

- أن يقترن الفعل المطلوب إحداثه بالزمان المستقبل .
- أن يكون المخاطب قادرا على الامتثال .
- أن تتميز بكونها صادرة عن نية وإرادة ورغبة المتكلم »[1]

ولأنها «ترمي إلى تغيير الكون الخارجي خلال علاقات متوترة بين المتخاطبين فهي تحكمها رغبة المتكلم الآمر /الناهي في هذا التغيير قصد تحقيق رغبة وإنفاذ إرادة ولكن عبر الآخر، ولا يكاد هذا التصور يختلف عما ذهب إليه اللغويون العرب حينما اعتبروا أنك إذا أمرت أحدا فأنت تخرجه من أمر وتدخله في آخر»[2].

وأخيرا فإن هذه الدراسة التطبيقية لسورة لقمان جعلتنا نعيش جوها الزاخر بالأفعال والأقوال والحركات التي تتضمن معنى الوعظ في تجلياته الإيحائية سواء كانت ظاهرة أم خفية. وقد كان هدف السورة «إقامة الحدود وضبط العلاقات الاجتماعية والأسرية مع اعتمادها على أفعال كلامية تقوم على الأمر، الحث والترغيب من جهة والتحذير والترهيب من جهة أخرى ...أما الأخرى المتعلقة بالآيات الكونية فتهدف إلى تغيير معارف الإنسان لتكوين معارف جديدة القصد منها بناء عقيدته على الإيمان بالخالق عز وجل ولذلك استطاعت هذه الأفعال أن تحقق نجاحا سيكولوجيا بما تنجزه من بناء للنفس الإنسانية ونجاحا اجتماعيا لما يتجلى من تأثير وتغيير على مستوى الأعراف والتقاليد والقناعات الاجتماعية»[3]

---

[1] – المرجع نفسه، ص 52.

[2] – المرجع نفسه، ص52.

[3] – لخلف نوال، الانسجام في القرآن الكريم، سورة النور أنموذجا، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ط2012، ص 2

1)- المواضيع الرئيسية للسورة: فيها ثلاثة محاور مهمة هي :

1- الخطاب المباشر للنبي ﷺ مع توجيهه ببعض الأوامر.

2- غزوة الأحزاب والعبرة منها.

3- خطابه ﷺ بتوجيه نسائه لما فيه صلاحهن في الدنيا والآخرة.

المحور الأول:

1)- خطاب النبي ﷺ:

لقد افتتحت السورة بأمر التقوى للنبي ﷺ، وإن كانت الآية فيها نوع من التعريض ففي «باب قوله بوجودها أن أحدهما أن تكون المخاطبة لرسول الله ﷺ والمراد غيره من الشكاك، ولأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلهم إذ هم قد يخاطبون الرجل بشيء ويريدون غيره، كان مثل هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الآية 1 فالوصية والعظة هنا للمؤمنين كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾[1]» فيكون المعنى: «واصل تقواك حالا كما فعلتها سابقا وواصلها مستقبلا فلا تنقطع عنها أبدا ...فإذا قال الله لرسوله "اتق الله" غير قوله "اتقوا الله" فالأمر لنا نحن بالتقوى ...أما في حقه ﷺ فهي بمعنى ادخل في مقام الإحسان وجدده دائما لأن مراقي القبول من الله لا تنتهي وكمالات عطائه كذلك»[2].

ولعل افتتاح الآيات بالتقوى يدل دلالات عميقة وغزيرة على تناسب أحداثها، ففيها تفصيل عملي لها في واقعة الأحزاب .

وما الأمر بقوله "اتق الله" إلا أنها بوابة أخرى لمراد الله تعالى من عباده، فبعد التقوى يسهل عليهم فعل الطاعات الأخرى، بشرط المواظبة عليها فاتق الله أي «واظب على ما أنت عليه من التقوى واثبت وازدد منه وذلك لأنه باب لا يبلغ آخره، فإذا نفذت هذه الآلية بعدم طاعة الكفار والمنافقين فإن المسلمين سينتصرون حتما في غزوتهم التي ستواجههم بعد قليل مع هؤلاء الكفرة فما

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٥﴾ 51-252.

[1] – ابن قتيبة، المرجع السابق، ص270.

[2] – الشعراوي، م 19، المرجع السابق، ص 11888-11889.

كان عليهم سوى التسلح بالإيمان المتضمن معنى التقوى، فخطاب مثل هذا هو خطاب الوعظ والإرشاد والحكمة إذ أردفت الآيات بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[الآية: 1] عالم بأعمال العباد وما يضمرونه في نفوسهم، حكيم في تدبير شؤونهم ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الآية: 2] أي اعمل بما يوحيه إليك من الشرع القويم والدين الحكيم واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[الآية: 2] أي خبير بأعمالكم لا تخفى عليه خافية من شؤونكم وهو مجازيكم عليها»[1].

ومما يدلنا كذلك على أن الخطاب هنا هو خطاب الوعظ والإرشاد، ودلالة اللفظة في حد ذاتها وهي لفظة "وقى"، حيث إنها «اكتست باستعمالات الخطاب القرآني دلالات أخرى بحسب مشتقاتها المختلفة، وطرائق إسنادها إذ جاءت هنا بصيغة "الأمر" المسند للمفرد أو الجماعة ...ولعل ورودها في مقام الوعظ والإرشاد للنبي لكي لا يتبع إلا ما يريده الله ذلك أنه عليم بما في صدور الكافرين والمنافقين»[2] ثم إن هذه التقوى المأمور بها في مواجهة الآية تستدعي جلب المعاني التي تتبعها إذ أن «الصلة بين هذه الأوامر واضحة وهي مجموعة صدرت لرسول الله ﷺ ولأمته من خلال شخصه الكريم فمقابل التقوى ترك طاعة الكافرين والمنافقين ....فهي لا تكون مع طاعتهم كما جاء التلفظ بها مع إتباع الوحي وهما متلازمان، والتقوى وطاعة الكافرين والمنافقين وإتباع الوحي كلها تحتاج إلى توكل على الله وتفويض أمره ومعرفة له ومن ثم جاء الأمر بالتوكل». [3]

---

[1] – محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، شركة الشهاب، الجزائر، م 2، ص 511.

[2] – كريم حسين ناصح الخالدي، المرجع السابق، ص 260.

[3] – سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ط 5 (1999)، ص4386.

2)- غزوة الأحزاب والعبرة منها:

إنها الأحداث التي تصور الغزوة تصويرا دقيقا، وكأن بالقارئ يشاهدها ويراها بعينه . والملاحظ أن في الآيات نوع من الحركة خاصة عند التعبير بالأفعال الحركية، كإرسال الريح، وزيغان الأبصار وبلوغ القلوب الحناجر، والفرار والقتل وقذف الرعب في القلوب ....

هذا وإن «غزوة الأحزاب أول غزوة في التاريخ العربي والإسلامي يحفر فيها الخنادق ,ذلك أنها عادة الأعاجم فقط، وقد كان سلمان الفارسي هو الذي اقترح حفره»[1].

وبما أن السورة مدنية فهي تلائم فترة حياة المسلمين الذين عاشوا مرحلة بناء الدولة الإسلامية في المدينة في بدايات تعرفهم على الرسالة المحمدية، وغزوة الأحزاب هذه كانت مناسبة فعلا لظهور مجتمع يريد الأمن والسلام له ولغيره هي تصور الجانب الاجتماعي بمختلف أوضاعه «وتتولى جانبا من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة، وإبراز تلك الملامح وتثبيتها في حياتهم، وبيان أصولها من العقيدة والتشريع كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها وإخضاعها في هذا كله للتصور الإسلامي الجديد»[2].

وكما لا يخفى على أحد –كذلك- من أن السورة تصور التصوير الدقيق والمفصل لأوضاع المسلمين وحالاتهم وأحوال خصومهم فتجعلك تلتقط الصورة اللحظة، كما تصور بدقة متناهية «مظهر النبوة في شخصية النبي ﷺ وتضعك أمام مدى ما كانت تمتلئ به نفسه من محبة أصحابه والشفقة عليهم وتعطيك مثالا آخر للخوارق والمعجزات التي أكرم الله بها نبيه، مع ما يتجلى من جوانب شخصية النبوة في هذا المشهد هو مكابدته ﷺ للجوع الشديد أثناء عمله مع أصحابه حتى إنه ليشد الحجر على بطنه»[3].

و من التعبيرات التي وضحت الحالات النفسية وخاصة لفئة المسلمين، ما ذكره الله تعالى من

---

[1] – محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الشهاب، باتنة، ص297.

[2] – سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، م 5، ص2818.

[3] – البوطي، المرجع السابق، ص 298.

قوله: "زاغت الأبصار" "بلغت القلوب الحناجر" "زلزلوا زلزالا شديدا " تعبيرات فيها من الخوف والرهبة ما يجيش في صدورهم، وما يعتري نفوسهم من حالات الشدة، من خلال ملامح الوجه المتغيرة، وازدياد ضربات القلب المتكررة .فهوالذي قد يبلغ في حالاته القسوى من الخوف الحناجر المعبر عنها بقوله: «بلغت القلوب الحناجر" أي" كادت من شدة الخوف تبلغ الحلوق ...أو أراد أنها ترجف من شدة الفزع وتحف ويتصل وجيفها بالحلوق ... وذلك من باب المجاز إذ كيف تبلغ القلوب الحلوق والقلب إذا زال عن موضعه شيئا مات صاحبه»[1]، فقد تكون القلوب ههنا كناية عن النفوس فيكون معنى «بلوغها الحناجر مقاربتها الخروج من عظيم الجزع وشدة الهلع»[2].

ولعله المثل الذي يتداوله العرب فيما بينهم، إذ يبدو أنهم يعرفون مثل هذا التعبير فهو لم يخرج عن بيئتهم في التشبيه بما تعرف من لغتها، ثم إن هناك حركة فيزيولوجية معنوية من أن «الرئة تنتفخ عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحنجرة»"[3].

وهناك ملمح جميل ومعجز في نفس الوقت، وذلك في ترتيب الآيات.فمن المعروف لدينا أن تصوير الأحداث يكون بترتيبها حسب وقائعها لكن في هذه الحادثة بالتحديد نجد أن هناك تقديما وتأخيرا في تسلسلها فهو يقدم لآيات إرسال الريح قبل تصويره لحالتهم التي كانوا عليها وهي حالة الهلع والفزع الكبيرين، مع زيغان البصر وهذا إن دل على شيء فهو يدل على الشدة من باب تقديم النتيجة على السبب وذلك لأهميتها مع عظيم وقعها في نفوس متلقيها سواء كانوا شاهدين للأحداث أو غائبين عنها، ابتداء من تذكير الله تعالى للمؤمنين بنعمه في قوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ ﴾[الآية: 9] تذكير فيه «شريعة وحب .. وطمأنة وإثلاج للصدور وبعث لحب الله والعمل بما أراد ...مع الاستبشار بالحياة والتفاؤل بها»[4]، ثم إن النعمة المادية التي أنعم الله بها على أوليائه، أنه أرسل على الكافرين ريحا تعصف بهم، ومعها حنودا من الملائكة لا يراها المؤمنون لكنها تقاتل معهم .. «وهنا تأتي الفاصلة بما يؤكد ثلاثة أمور: أولاها أن جند المسلمين كانوا في موقف حرج أثناء

---

[1] – ابن قتيبة، المرجع السابق، ص 171-172.

[2] – الشريف الرضي، المرجع السابق، ص 242.

[3] – القرطبي، المرجع السابق، م 7، ص145.

[4] – محمد عبد الواحد حجازي، الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم، دار الوفاء، الإسكندرية ص 173.

اشتباكهم مع عدوهم، وثانيها أنه لولا هذا المدد الإلهي لما تم لهم النصر، وآخرها أن الله وحده هو البصير بأحوال المسلمين وأن بيده ملكوت كل شيء»[1] وفي ظل هذه «المحنة التي ابتلي بها المؤمنون كأعنف ما يكون الابتلاء وأقساه ..أنها محنة انعقدت فيها ظلمات ثلاث: ظلمة الخوف ظلمة القنوط وظلمة الخطر العسكري»[2] أما قوله:

"زاغت الأبصار" ففيها وصف دقيق لحركة العين فزاغت أي «مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا كما قيل عدلت على كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع والسلوك العيني هنا هو أن البصر يضطرب ويكل خوفا وفزعا وقيل معناه أيضا عدلت الأبصار عن مقرها في الدهشة والحيرة كما يكون الجبان فلا يعلم ما يبصر»[3].

والملاحظ أن ثمة تماثلا وتشابها بين حركتي "البصر" والقلب، وذلك من حيث انتقال كل منهما من حالة الثبات إلى حالة الاضطراب لسبب يجمعها جميعا هي مناسبة الحركتين لفعل الرعب والخوف ...كما يدعم هذه الحالة دوي وقع التعبير القرآني بلفظة الزلزال "وزلزلوا زلزالا شديدا" لشدة الامتحان والابتلاء الذي هم فيه، ذلك أن مشاهد الكفار في الآيات تبين مدى حقدهم وكرههم للمؤمنين حين هجموا عليهم هجوما عنيفا «فتصور الآية كيف أطبقوا عليهم حتى لم يتركوا لهم ثغرة ينفذون منها، فصار الهلاك مؤكدا في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [الآية: 10] . فانظر إلى الذين جاؤوا من فوقكم وهم جموع اليهود من بني قريظة والذين جاؤوا من أسفلهم وهم جموع قريش، فإذا أطبق المشركون على المؤمنين بهذه الطريقة أفلا يكونوا بذلك قد وقعوا في ضائقة لا انفراج لها ..ثم إنه حين تبلغ المحنة ذروتها والخطر الداهم أحلك لحظاته»[4] أفلا يكون ذلك زلزالا كما صورته الآية؟

إنها بحق «نقطة الخطر الأكبر الذي هاجم الإنسان من كل صوب حتى يكاد يفقده إيمانه ...فكان أن انبثق الإحساس بجلال الموقف وبجلال الخطر وفي لحظة خاطفة انقشعت الغاشية وصار

---

[1] – المرجع السابق، ص174.

[2] – المرجع نفسه، ص175.

[3] – محمد علي عبد الكريم الرديني، مباحث لغوية، دار الهدى، الجزائر، ص7.

[4] – محمد عبد الواحد حجازي، المرجع السابق، ص 175.

الإحساس بجلال الخطر إحساسا بجلال الله الذي فاء بنصره على المؤمنين»[1].

وفي مقابل الخوف الذي اعترى المؤمنين، هناك خوف آخر هو خوف الجبان المنكسر والمنهزم خوف «الفار الذي لا ينوي على شيء ولا يهدف لأكثر من النجاة بجلده وهذا ما يوحي به القرآن الكريم في مختلف استعمالاته للفظة "الفرار"»[2] الذي من معانيه اللغوية الهروب كقوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الآية: 16].

وفي الأخير فإنها بحق مواقف تستدعي منا تفحصها والكشف عن معانيها ودلالاتها، ذلك أن القرآن مزج بين ما هو سلوك مع المظهر الخارجي، وبين قول مظهر لما هو خارجي، خاصة حين وصف هؤلاء المنافقين بالخوف الشديد البارزفي نظرهم وتقلبهم بعد استتباب الأمن في قوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ [الآية: 19].

3)– خطابه ﷺ نساءه لما فيه صلاحهن في الدنيا والآخرة: قوله قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾الآية 28. و قوله: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الآية:29]:

في الآيات سلسلة من التوجيهات التي أمر الله نبيه الكريم بأن يخبر أزواجه بها، والمتأمل فيها يجدها تركز أكثر في فضل الدار الآخرة على الدنيا وهي قسمان: توجيهات دنيوية وتوجيهات أخروية وبها

تحدد الميزان الفاصل بين الدنيا والآخرة، فقوله "إن كنتن" في الآية 28 تختلف عن قوله "إن كنتن" في الآية 29، فالأولى تتضمن إرادة الدنيا إذا اخترت وماذا سنجني من وراء اختيارها، أما الثانية فتتضمن إرادة الآخرة وماهي نتائج اختيارها وما بين الآيتين في سياق التعبير فعل الشرط وجوابه، «وللسائل أن يسأل ما سر هذه النقلة الكبيرة من الكلام عن حرب الأحزاب وحرب بني

---

[1] – المرجع نفسه، ص 175.

[2] – محمد بن عبدالرحمن بن صالح الشايع، الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1(1993)، 282-283.

قريظة إلى هذا التوجيه لزوجاته ﷺ؟ قالوا:لأن مسألة الأحزاب انتهت بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ فربما طلبت زوجات الرسول ﷺ أن يمتعهن وينفق عليهن مما يفتح الله عليه من خيرات هذه البلاد، فجاءت الآية 28 لتقرر أن الإسلام ما جاء ليحقق مزية لرسول الله ولا لآله حتى الزكاة لا تصح لأحد من فقراء بني هاشم لكن مجيء الآية هكذا بصيغة الأمر "يا أيها النبي" دليل على حدوث شيء منهن يدل على تطلعهن إلى زينة الحياة ومتعها ...ثم يعرض رسول الله على زوجاته الخيار الثاني المقابل للحياة الدنيا في الآية 29»[1] ولهذا سميت عند علماء التفسير بآية التخيير، ولعله امتحان صعب وخطير لأن المرء يجب أن يحيا حياة كريمة في الدنيا ويسعد كذلك بالآخرة إذا عرف كيف يديرها.

فمنظار الدنيا إذا اختيرت هنا ليست مذمومة ولا محرمة عليهن، ولكن هؤلاء اللواتي فضلن على كثير من النساء، وجب عليهن أن يصبرن فهذا «أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة»[2] «فأراد بذلك أن يعطيهن المنهج والمبادئ التي سيسرن عليها في حياتهن ونلحظ أن آية التخيير كانت من كلام النبي عن ربه، أما هنا فالكلام من الله مباشرة لنساء النبي ... فلما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة كأنهن ارتفعن إلى مستوى الخطاب المباشر من الله تعالى، كأنهن حققن المراد السابق "فتعالين"»[3].

وعليه فإن مقام التذكير هنا هو مقام وعظ باتفاق العلماء، فالله سبحانه هو الذي يقول وقوله هنا جاء مباشرا «لنسائه ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ، فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأنه من يأت منهن بفاحشة مبينة ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ ﴾[الآية: 30] أي في الدنيا والآخرة "وكان ذلك على الله يسيرا «أي سهلا هينا ثم ذكر عدله وفضله في قوله" ومن يقنت منكن لله ورسوله "أي يطع الله

---

[1] – الشعراوي، م 19، المرجع السابق، ص 12003-12004.

[2] – ابن كثير، ج 3، المرجع السابق، ص1477.

[3] – الشعراوي، المرجع السابق، ص12008.

ورسوله ويستجيب "نؤتها أجرها مرتين " "وأعتدنا لها رزقا كريما" أي في الجنة فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش »[1].

والملاحظ هنا أن هناك تصعيدا في الخطاب لم يكن إلا بعد أن وقعن في الاختيار ونجحن فيه «فخاطبهن ربهن خطابا لأنهن أصبحن على عهد مع الله تعالى أن يؤتيهن أجرا عظيما ...ونداؤهن للاهتمام بما سيلقى إليهن، وناداهن بوصف نساء النبي ليعلمن أن ما سيلقى إليهن خبر يناسب علو أقدارهن»[2].

أما توجيهاته الدنيوية لهن، فقد تلونت بشتى الألوان، إذ تتخللها أوامر ونواهي من مثل: "افعلن" و"لا تفعلن"، فكان من جملة الأوامر قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[الآية: 32] وقوله: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾[الآية: 33] ثم قوله: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[الآية: 33] ﴿ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾و﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾. ومن جملة النواهي، قوله تعالى ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ [الآية: 32] ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الآية: 33] .

وفي الآيات تقابلات في السلوك، فإذا لم يخضعن بالقول فإنهن يقلن قولا معروفا وإذا لم يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى فإنهن سيقرن في بيوتهن .

الخضوع بالقول :

خضع، يخضع، خضوعا بالقول: كلها عبارات تستخدم في علم التداولية بمعنى أن الإنسان قد يخضع ويستسلم بمجرد سماعه القول فيتأثر به وذلك بسبب الصوت، فلا يقصد القول هنا هو الكلام ولكن طريقة الكلام وقوته، إذ أن الصوت نفسه له تأثير على الآخرين إضافة إلى مؤثرات أخرى معروفة، كالشكل الخارجي من لباس ونظرات ومشي ...ومعنى الآية التي تقول: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾«أن يكون في قول المرأة من تخاطب الرجال، ليونة أو تكسر أو ميوعة أو أن يكون

---

[1] – ابن كثير، المرجع السابق، ص1479.

[2] – المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، دار وائل للنشر، ط 1(2008)، ص 214.

مع القول نظرات واقتراب»[1] ولهذا أردفها الله تعالى بقوله: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ «وليس معنى الخضوع بالقول أن تكلمن الناس بغلظة وخشونة إنما المراد أن تكون الأمور عند حدودها، لذلك يقول سبحانه بعدها: ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ فلما نهى القرآن عن التصرف غير المناسب عرض البديل المناسب وهو القول المعروف، وهو من القول المعتدل والسماع بالأذن من دون أن تمتد عينها إلى محدثها، لأن ذلك ربما أطمعه فيها وجرأه عليها وهذا ما يريد الحق سبحانه أن يمنعه»[2].

«ولعل الباء هنا في قوله: "بالقول" يجوز أن تكون للتعدية ..من باب المصاحبة على ما بينه المحققون من النحاة أن أصل قولك: ذهبت بزيد أنك ذهبت مصاحبا له فأنت أذهبته معك ثم تنوسي معنى المصاحبة في نحو "ذهب الله بنورهم" فلما كان التفكك والتزيين للقول يتبع تفكك القائل، أسند الخضوع إليهن في صورة، وأفيدت التعدية بالباء، ويجوز أن تكون الباء بمعنى "في" أي لا يمكن منكن لين في القول، والنهي عن الخضوع بالقول إشارة إلى التحذير مما هو زائد على المعتاد في كلام النساء من الرقة وذلك بترخيم الصوت»[3].

القرار في البيت:

«يأمر النساء بالقرار في بيوتهن، لكن ليس من معانيه:الإخلاد إليه والامتناع عن مغادرته، وكأنه سجن، ...إنما المقصود أن تسكن المرأة إلى بيتها فلا تكون خراجة ولاجة، لأن مسلكا كهذا يعرضها لنظرات العيون»[4] «ثم إن الأمر هذا فيه تخصيص من وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيرا لهن، وتقوية في حرمتهن فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبي ص في خلالها يكسبها حرمة، وقد كان المسلمون لما ضاق عليهم المسجد النبوي يصلون الجمعة في بيوت أزواج النبي ﷺ»[5].

ولعل لفظة "قرن" هي لغة العرب، يتداولونها بالمعاني المعروفة عند كل قبيلة على حدة، فنجد اختلاف القراءات والقراء في أثناء وقوفهم على هذه الآية بتخريجاتها اللغوية إذ " قرأ نافع وعاصم

---

(1) – الشعراوي، المرجع السابق، ص 12019.

(2) – المرجع نفسه، ص 12020.

(3) – الطاهر بن عاشور، ج 22، ص8-9.

(4) – عبد الواحد حجازي، المرجع السابق، ص69.

(5) – الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص10.

وأبو جعفر بفتح القاف، ووجهها أبو عبيدة عن الكسائي والفراء والزجاج بأنها لغة أهل الحجاز في "قر" بمعنى أقام واستقر يقولون: قررت في المكان بكسر الراء من باب علم فيجيء مضارعه بفتح الراء فأصل قرن: اقررن، فحذفت الراء الأولى للتخفيف من التضعيف ...وقرأ بقية العشرة "وقرن" بكسر القاف، قال المبرد: هو من القرار أصله اقررن بكسر الراء الأولى فحذفت تخفيفا وألقيت حركتها على القاف.. وقال ابن عطية:يصح أن يكون "قرن" أي بكسر القاف أمرا على الوقار، يقال: وقر فلان يقر والأمر منه قر للواحد، وللنساء قرن مثل عدن أي فيكون كناية عن ملازمة بيوتهن مع الإيماء إلى علة ذلك بأنه وقارهن»[1].

هذا وإن في قوله: «ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى" أي القديمة والتبرج التبختر في المشي وإظهار الزينة، و تقديرها: ولا تبرجن تبرجا مثل تبرج النساء في الجاهلية الأولى»[2] قبل ظهور الإسلام وقوله: ﴿ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾بعد قوله ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾«فكان القول هو الكلام، والمعروف هو الذي يألفه الناس بحسب العرف العام ويشمل القول المعروف هيئة الكلام وهي التي سبق لها المقام، ويشمل مدلولاته أن لا ينتهرن من يكلمهن أو يسمعنه قولا بذيئا من باب "فليقل خيرا أو ليصمت" وبذلك تكون هذه الجملة بمنزلة التذييل»[3].

وفي الأخير يصدر خطابه إليهن بقوله: "أذكرن" والتذكيرما هو إلا «تنشيط للذاكرة وربط الانتباه بمذكور أو معهود معين ...ذلك أن القرآن هو ديوان الدعوة الاسلامية، وفيه كل الوسائل الموصلة إلى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، هذا وقد جاء التذكيربذات الله دون قيد نحو قوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الآية: 21]»[4].

2) –آليات التواصل في خطاب السورة:

---

(1) – النسفي، ج 3، المرجع السابق، ص 300-301.

(2) – المرجع السابق، ص 301.

(3) – الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص 39.

(4) – المرجع نفسه، ص 9.

أ)- الآلية اللغوية:

«افتتاح النداء بخطاب النبي ﷺ ...والمؤذن بأن الأهم من سوق هذه السورة يتعلق بأحواله ﷺ، فكان الغرض الأصلي منه هو تحديد واجبات رسالته في تأدية مراد ربه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله وهو نظير النداء الذي في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: 67]»[1].

«فالأمر للنبي بتقوى الله ماهي إلا توطئة للنهي عن إتباع الكافرين والمنافقين ليحصل من الجملتين قصر تقواه على التعلق بالله دون غيره، ذلك أن معنى "لا تطع" مرادف معنى " لا تتق الكافرين والمنافقين" فإن الطاعة تقوى فصار مجموع الجملتين مفيدا معنى: يا أيها النبي لا تتق إلا الله، فعدل عن صيغة القصر وهي أشهر في الكلام البليغ، وأوجز إلى ذكر جملتي أمر ونهي لقصد النص»[2]

ثم إن فائدة تناوب هذين الأسلوبين في هذا المقام باستعمال أسلوب القصر ..أنها «مختصرة من جملتي إثبات ونفي، ولكون هذه الجملة كتكملة للتي قبلها عطفت عليها لاتحاد الغرض منهما، وقد تعين بهذا الأمر في قوله: "ولا تطع الكافرين والمنافقين" مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى الله ... كما يستفاد من هذين الأسلوبين التشهير لهم بأن النبي ﷺ لا يقبل أقوالهم ليتأسوا من ذلك لأنهم كانوا يريدون مع المشركين المكايد ويظهر أنهم ينصحون النبي ﷺ ويلحون عليه بالطلبات نصحا تظاهرا بالإسلام»[3].

وعليه فإن جملة النداءات المذكورة هنا، أربعة عشر نداء، سبعة منها نودي بها المؤمنون وخمسة خاصة بنداء النبي ﷺ ومرتين في نسائه .

النداءات الأولى الخاصة بنداء النبي ﷺ، كان النداء الأول منها هو نداء التقوى «على سبيل التشريف والتكرمة له، لأن لفظ النبوة مشعر بالتعظيم والتكريم»[4]

---

[1] - المرجع نفسه، ج21، ص 249.

[2] - المرجع السابق، ص 250.

[3] - المرجع نفسه، ص 250-251.

[4] - الصابوني، المرجع السابق، م 2، ص511.

أما الثاني ففيه «أمر له بأن يخير نساءه بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة»[1].

ولعل «المناسبة الموضوعية لنداء "يا أيها النبي" في خطاب السورة يتم فيه التأكيد على أن علاقاته بأزواجه محكومة بشرع القرآن الكريم ومفصلة بالآيات المنزلة منه سبحانه وتعالى، وهذه العلاقة ليست مثل علاقات أحد من المسلمين أو المؤمنين مع أزواجهم، فهو نبي وهن زوجاته، وحياته الاجتماعية محكومة بالشريعة الخاصة به في الدعوة والجهاد والحكم والتبليغ ..»[2] أما النداء الثالث فإنه «يذكره الله عز وجل ويذكر المؤمنين معه بأنه قد أرسله شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وهاديا لهم إلى الحق، فيأمره بتبشير المؤمنين وينهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين، وعن مقابلة إيذاهم له بمثله ثم يأمره للمرة الثانية بالتوكل على الله ..»[3].

في حين أن النداء الرابع والخامس لديه خصوصية شخصيته وشخصية نسائه ففي الأول منها «إخبار من الله إليه بأنه قد أحل له أزواجه اللاتي أتاهن مهورهن وما ملكت يمينه وبين حل زواجه بقريبات عن صلة النسب التي تربطهن به»[4].

أما الثاني فهو حكم تشريعي لنسائه خاصة ولنساء المسلمين كافة في تطبيق حكم الحجاب والستر للمصلحة العامة . ثم تأتي النداءات الثانية الخاصة بنسائه ﷺ فكان النداء الأول منها تحذيرهن بأن «يأتين بفاحشة مبينة، وإلا يضاعف لهن العذاب مع ترغيب لهن في القنوت وعمل الصالحات، لأن من تطيع الله منهن كما ينبغي أن تكون الطاعة ستؤتي أجرها مرتين وستجد في الآخرة الرزق الكريم الذي أعده الله لها»[5] أما الثاني فإنه «تقرير لحقيقة ينبغي ألا تغيب عن بالهن وهي أنهن لسن كأحد من النساء إن اتقين الله، فكان من الواجب عليهن إذن أن يلتزمن منهجا في السلوك يتفق وهذه المكانة الخاصة التي آثرهن الله بها من دون النساء جميعا، وقد فصلت آيات النداء هذا المنهج ...من كونهن من أهل البيت النبوي الكريم، وكون بيوتهن هي البيوت التي تتلى فيها،

---

(1) – مصطفى زيد، سورة الأحزاب، عرض وتفسير، دار الفكر العربي، ص 161.

(2) – المرجع نفسه، ص 161.

(3) – المرجع السابق، ص 161.

(4) – المرجع نفسه، ص 162.

(5) – المرجع نفسه، ص162.

وتتنزل غالبا آيات الله والحكمة، ومنها يشرق النور الذي يهتدي به المسلمون»[1].

وهناك لمسة بيانية في "الوقف" عند لفظة "نساء" في الآية إذ «وضعت هذه العلامة في المصحف على لفظها، ولكن تعاليم القرآن نفسه ربما رجعت الوقف صالحا أن يكون على لفظ "اتقين " فهو سبحانه الذي يقول: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ويقول نبينا ﷺ «لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فإن الوقف على الفعل "اتقين" يجعل ما بعده استئنافا لبيان المقصود به في هذا المقام، فعدم الخضوع بالقول منعا لطمع ذوي القلوب المريضة إذ لو تحققت هذه التقوى كن خيرة النساء وهكذا يكون الوقوف على "اتقين " أقرب إلى وصايا الدين»[2].

والملاحظ هنا أن تسلسل سياق نزول آيات الأحزاب التي تتحدث عن انتصار المؤمنين على الكفار في هذه المعركة ليدل دلالة يقين على أن هذه الدولة ستستقر ويستقر معها المجتمع المدني فكان لزاما من وضع قوانين الأخلاق والتربية والعلاقات الاجتماعية ...

وفي آخر النداءات الخاصة بنداء المؤمنين أن يبدأ الله تعالى بأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم حين نصرهم على الأحزاب دون قتال أو عناء، أما النداء الثاني فهو «يسترعي انتباههم بأنه يتلو بنفس الفعل الذي تلا النداء الأول وهو فعل الأمر "اذكروا" غير أن الأمر بالذكر في أولهما منصب على نعمة الله بالنصر وفي ثانيهما منصب على الله نفسه، وهو ترتيب طبيعي أن يكون الأمر بذكر الله بعد الأمر بذكر نعمته كنوع من الشكر له عزوجل على هذه النعمة»[3].

ثم يأتي النداء الثالث الخاص بعلاج بعض آثار الطلاق في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾[الآية: 49]، ويليه نداء تشريع الآداب والمعاملات اليومية من الاستئذان قبل دخول بيته ﷺ ومن إجابة دعوته إلى الطعام ومن سؤالهم لزوجاته ببعض المتاع وهكذا ...

والملاحظ في هذا النداء أن الآية تصور وتبين فن التعامل الاجتماعي مع الحالات التي تعتري

---

[1] – المرجع نفسه، 162.

[2] – تمام حسان، اجتهادات لغوية، عالم الكتب، ص199-200.

[3] – مصطفى زيد، المرجع السابق، ص 162.

الإنسان من أكل وطعام وحديث ومسامرة، ولعل هذا ما يسميه اللغويون بالفصل بين المتعاطفين ففي الآية 53 هناك «نفي يجمع بين الأمرين على الرغم من طول الاعتراض بين المتعاطفين الذين يجمع بينهما النفي في عبارة «غير ناظرين إناه ولا مستأنسين لحديث» إذ كان النفي لهما معا وقد فصل الاعتراض الاستدراك القائل: «ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا» لسبب مهم هو بيان شرط الدخول المقبول، ومن ثم كان في موضعه الذي يحظى فيه بالاستحسان»[1].

أما النداء الخامس فهو نداء صلاة المؤمنين على الرسول ﷺ وقد عدت لفظة الصلاة هنا من الألفاظ المشتركة فهي استعملت في معنيين وهما «أن الصلاة من الله رحمة ومن الملائكة اسغفار، وأن الله أراد في كلامه المعنيين، وإذا وقع المشترك في الكلام البليغ فلا بد أن يقع معه من القرائن اللفظية أو الحالية ما يدل على المراد منه، وإلا كان استعماله مخلا بالإبانة لأن الكلام حينئذ يكون مهملا للجهل بمعناه»[2] فالصلاة هنا إذن هو معناها الدال عليها لغة وهو الدعاء.

هذا وقد دلت الآية من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الآية: 56] في ندائها السادس على «وجوب توقير النبي ﷺ وتجنب ما يؤذيه ...فكان محل التشبيه هو قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ﴾ دون ما فرع عليه من قوله ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾واتصال له بوجه التشبيه لأن نبينا ﷺ لم يؤذ إيذاء يقتضي ظهور براءته مما أوذي به»[3].

وفي الأخير تختتم النداءات السبعة للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾[الآية: 70]. وقوله كذلك ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[الآية: 27] ففيها «أمر بتقوى الله وبالقول السديد كما فيها بيان لما يجازيهم الله به على اتباع هذين الأمرين وعلى طاعة الله ورسوله»[4].

وخلاصة القول فإن جملة النداءات التي بدئت بها السورة الشريفة تتضمن فنونا من التوكيد، منها استعمال حرف النداء للبعيد، إشارة إلى أنه ﷺ ينادى لأمر هام وخطير، وما عليه سوى أن

---

(1) – تمام حسان، خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم، عالم الكتب، القاهرة، ط1 (2006)، ص22.

(2) – أحمد عرابي، المرجع السابق، ص 47.

(3) – الطاهر بن عاشور، ج 22، المرجع السابق، ص 119- 120.

(4) – مصطفى زيد، المرجع السابق، ص 162.

يجمع قلبه وعقله لتلقيه، ولولا هذه الإشارة لجيء بأي أو الهمزة، لأن الله قريب إلى كل منادى، إذ قد أقر النحاة بأن "يا" تستعمل في نداء البعيد أو من ينزل منزلته من الساهي والغافل»[1].

هذا وقد لخص الزمخشري جملة هذه النداءات بقوله: «يلجأ إلى مقتضى الحال (المقام) ليفسر كثرة ورود النداء "ياأيها" في كتاب الله على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره ...لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة لأن كل ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا إليها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضى الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ»[2] (أنظر الكشاف , ج1، ص 153)

ومن البلاغة في الكلام أن «الغالب على المتكلم أن لايذكر في كلامه إلا ما كان يعلم أن المستمع يحتاج إلى معرفته ليتبين الفائدة منه، معتمدا في ذلك على قدرته على استحضار المحذوف إما لوضوحه أو لقربه أو لشهرته، فتكون عناية المتكلم وعلى حسب حال المستمع من الإدراك وعلى قدر مشاركته له في بعض الفوائد والمعلومات فيضمر ما علمه المخاطب ويظهر ما جهله وغاب عنه»[3].

ولعل هذا من أهم خصوصيات الحذف البلاغية، خاصة إذا قيل الكلام في مقام لا تحتاج العناصر اللغوية إليه، مع اقتصاد واختصار للجهد والوقت واللغة وقد قيل قديما: «إن إيجاز الكلام يقتضي حذف ما يفهمه السياق اختصارا»[4].

إضافة إلى أن من أهم مقاصده الراقية أن الحذف الذي يكون مسوغا لمقتضى الحال بقرينة تبينه تجعل المحذوف أبين وأبلغ من ذكره . وأفضل تمثيل لهذا ما جاء في الآية 25 من قوله تعالى: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾«إذ يتخذ ذكر العنصر المحذوف هنا ذريعة للإخبار بأحداث تاريخية لها صلة بما حذف»[5].

---

[1] – محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دار الفكر العربي، ص 4.

[2] – خلود العموش، المرجع السابق، ص 329.

[3] – إدريس مقبول، الأسس الإبستيمولوجية، المرجع السابق، ص 337.

[4] – المرجع نفسه، ص 338.

[5] – بوجمعة جمعي، أسلوبية الإيجاز في الخطاب العربي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، م 44، ديسمبر، ع11، ص 59.

فقد جاء في رواية عن جبريل عليه السلام أنه قال للنبي ﷺ صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب «يارسول الله إن الملائكة لم تضع السلاح، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة وأنا عائد إليهم فإن الله داقهم دق البيض على الصفاء»[1].

–المحذوف المتعلق بالقتال هنا هو "الريح والملائكة " فالحذف إذن بهذا الأداء الفني يسعى إلى «تغيير المألوف من التعبير لإثارة مخيلة المتلقي ولفت انتباهه إلى المحذوف إذ أن ذهنه يكون متهيئا لذكره فيفاجأ بحذفه ...»[2] كما أن من أغراضه أنه «يحقق التناسب الإيقاعي والتناسب المعنوي ...وقد يقع الحذف مراعاة للإيقاع الموسيقي في الفواصل»[3] ويبقى هذا الأسلوب ظاهرة تميز الخطاب القرآني بأدواته المحذوفة من اسم وفعل وخبر... مع إمكانية البحث على القرينة التي تبينه لأداء المعنى أحسن وأفضل أداء .

ولا يخرج أسلوب التكرار عن تأديته المعاني البليغة كما في الحذف، ففي السورة جملة من التكرارات للأسماء والأفعال والصيغ من مثل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الآية: 56] إذ نجد أن هناك تكرارا للفعل الذي يدل على «أمر المؤمنين بالصلاة على النبي ﷺ وهو يدل على عظم المأمور به فليس من المعقول بعد هذا التعظيم كله أن يطلب الفعل مرة واحدة والجملة الاسمية التي جاءت في صدر الآية من قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الآية: 56] هي تفيد الثبوت والاستمرار، خاصة أن الخبر فيها جملة فعلية فعلها مضارع...

وهذا يعني أن الصلاة من الله تعالى وملائكته الكرام على النبي ﷺ ثابتة مستمرة ومتجددة ودائمة، وكأنه سبحانه أراد من العباد إنشاء صلاة كهذه الصلاة بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ »[4].

كما نجد «دلالة التكرار في صيغة المبني للمجهول في قوله تعالى: ﴿ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ

---

[1] – المرجع نفسه، ص 63.

[2] – عبد السلام أحمد الراغب، المرجع السابق، ص 50.

[3] – المرجع نفسه، ص 51.

[4] – رافع بن طه الرافعي، الأمر عند الأصوليين، ط1 (2007)، ص260

﴿ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلًا ﴾[الآية: 61] والحديث هنا في شأن المنافقين بعد ظهور الإسلام في المدينة، فكان توظيف التكرار من قوله: ثقفوا- أخذوا- قتلوا لتعميم الفاعل.فدلنا ذلك على مدى تمكن المسلمين في المدينة بعد انتصارهم على اليهود»[1]

وتكرار لفظة "الساعة" من قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الآية: 63] وذلك لأهميتها في مجال البعث والعقيدة الإسلامية لا تقوم إلا على الإيمان بها، ومن المعروف أنها قضية جدال طويل بين الرسول ﷺ والكافرين الذين لم يستطيعوا أن يؤمنوا بفكرة الحياة والموت والقيامة والبعث والحشر .....

وفي الأخير فإن أسلوب التكرار ما هو إلا «مظهر من مظاهر التواصل الشفوي كما أنه وجه من وجوه اعتبار السامع أو المتلقي الأول..فهو يخاطب زمن الوحي أقواما ينتمون إلى الثقافة الشفوية التي تعتمد على الذاكرة والحفظ، وفي تكرار الكلمات وترداد المعاني إعانة لهذه الذاكرة على الاستيعاب والتخزين»[2].

هذا وإن من أهم الأساليب التي اعتنى بها القرآن في خطابه، أسلوب التهكم الذي يعد ظاهرة سياقية مراد مضمونها غير ظاهره فهي تعتبر «إحدى الاستيرتيجيات غير المباشرة إذ تستلزم قصدا غير ما يدل عليه الخطاب بمعناه الحرفي وتعني عند علماء البيان إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاء بالمخاطب»[3] ومثاله في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ ﴾[الآية: 18] وهم «الذين يسعون إلى خذلان المسلمين، فيدعون إخوانهم إلى القعود فلا يشهدون الجهاد والله يعلم ذلك رغم استخدام "قد" قبل المضارع فهي لا تدل على التقليل وإنما على التحقيق، كما ارتبطت بالماضي، هذا وقد جاءت بهذه الصيغة دلالة على السخرية والتهكم من أولئك القاعدين الذين يظنون أن الله لا يعلم قعودهم وهو الذي لا تخفى عليه خافية ..»[4].

فهذه الصورة —فعلا- مناسبة لوصفهم المخزي والمهين، خاصة حين وصفهم القرآن بالجبن

---

(1) – عبد الحميد هنداوي، الإعجاز الصرفي للقرآن الكريم، المكتبة العصرية، بيروت، ط2002 ص48.

(2) – بلقاسم حمام، آليات التواصل في الخطاب القرآني، أطروحة لنيل الدكتوراه، إشراف:محمد خان، 2005, ص238.

(3) – حكيمة بوقرومة، منشورات تحليل الخطاب، م س، ص22.

(4) – المرجع السابق، ص 22-23.

فكانت الصورة مضحكة ومثيرة للسخرية والاستهزاء.

ب)- الآليات غير اللغوية:-

هناك أفعال غير لغوية تضع القارئ أو المتلقي فب جوها، وهي مناسبة للأحداث التي وردت فيها، من اجتماعية وسياسية ونفسية، قد نطق عليها حركة الانتقال من موضع إلى موضع آخر منها الحركات النفسية والمكانية والانفعالية وحتى الحوادث القتالية .

1)- الحركة النفسية: تحريك نفس الرجل اتجاه المرأة، بمجرد فعل واحد تقوم به حركة "خضوعها بالقول" له فيكون رد الفعل هو الطمع، ففي قوله:" فيطمع" هي الحركة النفسية التي نتحدث عنها، وهي متغيرة بسبب الظروف والأحوال وكلها اتجاه طرف آخر ....ولعل الملمح الإشاري هنا من قوله "فلا تخضعن القول" ولم يقل "فلا تلن بالقول" «ذلك أن المنهي عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاما لينا ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين فقال:"فبما رحمة من الله لنت لهم»[1].

2)- الحركة المكانية: انتقال حركي من مكان إلى مكان في قوله: "فتعالين" وهو «اسم فعل أمر بمعنى "أقبلن"، ويستعمل هنا تمثيلا لحال تهيؤ الزوجات لأخذ التمتيع وسماع التسريح بحال من يحضرإلى مكان المتكلم ..ثم إن جزم "أمتعكن" في جواب "تعالين" الذي هو ليس أمرا صريحا غير واجب، فجيء به مجزوما ليكون فيه معنى الجزاء فيفيد حصول التمتيع بمجرد إرادة إحداهن لحياة الدنيا».[2]

3- حركة الحوادث القتالية: والممثلة في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الآية: 16] إذ فيها «قرينة على أن الجار والمجرورمتعلق بأقرب مذكور ...أولهما المصدر الفرار والثاني الفعل "فررتم"، ويختلف تقدير التركيب مع التعليق بأحدهما عنه مع التعليق بالآخر على الفعل التالي: -قل لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل إن

---

[1] - عبدالكريم بن ابراهيم يوسفي، الآداب النفسية للزوجين من خلال قصة موسى (ع) مع المرأتين، منشورات نوميديا، ط2011م، ص52-53.

[2] - الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص 316.

فررتم –قل إن فررتم من الموت أو القتل فلن ينفعكم الفرار، فالفعل"فررتم" حدث غير متوقع في الحالة الأولى ولكنه فعل شرط متوقع حدوثه في الحالة الثانية»[1].

ثم إن هذه الحركة تستوجب تحريكهم في اتجاه مكان الموت أو القتل .

4– الحركة الانفعالية: تتبين حركة دوران العين نتيجة رد الفعل للخوف، وهي حركة انفعالية من قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾[الآية 19] «فسلوك العين هنا والتي تعتبر من الحركات الجسمية قد أبدت لنا طريقة النظر بالعينين واتجاههما مع مدى ضيق الحدقة واتساعها، ومن ثم فهو يشمل دوران الأعين في كل اتجاه واستقراء النظر وزوغان البصر، كما يشمل سلوك الأجفان من خفض وإطباق»[2].

ولعل فعل الدوران هو فعل انتقالي من حالة ثبوت إلى حالة اضطراب، فكما جاء في التخريج اللغوي "للدور" و"الدوران" أنها «حركة جسم رخوية أي كحركة الرحى منتقل من موضع إلى موضع، فينتهي إلى حيث ابتدأ ...ومنه أنها اشتقت من اسم الدار، وهي المكان المحدود المحيط بسكانه، حيث يكون حولهم، وكذلك سميت الدارة لكل أرض تحيط بها جبال ..«فمعنى "تدور أعينهم" أنها تضطرب في أجفانها كحركة الجسم الدائرة من سرعة تنقلها محملقة إلى الجهات المحيطة»[3].

ومن معاني انتقال الشيء من حال إلى حال: حالة اللسان الذي انتقل من الصمت أو السكوت إلى الكلام وحتى المخاصمة ..فقد عبر القرآن الكريم عن هذا الفعل بقوله: ﴿ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾[الآية 19] والسلق تتداولها العرب في أشعارها وكلامها، إذ المقصود بها «قوة الصوت والصياح، والمعنى: رفعوا أصواتهم بالملامة على التعرض لخطر العدو الشديد وعدم الانصياع إلى إشارتهم على المسلمين بمسالمة المشركين، وفسر السلق بأذى اللسان، فقد قيل أنه سأل نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس عن "سلقوكم" فقال: الطعن باللسان، فقال: نعم:أما سمعت قول الأعشى:

---

(1) – تمام حسان، خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم، المرجع السابق، ص 28.

(2) – عبد الكريم الرديني، المرجع السابق، ص 5

(3) – الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص 297.

فيهم الخصب والسماحة والنجد ..... ة فيهم والخاطب المسلاق»[1].

ج)- آلية السياق:

أ)- علاقة الآيات فيما بينها:

تتسق الآيات فيما بينها، لتشكل وحدة واحدة، تتناغم فيها الأحداث، فتتصاعد أحيانا وتنخفض أخرى حسب المواقف والحالات التي عرضت فيها، فكانت منها النفسية، الاجتماعية الاقتصادية والسياسية، والأهم منها جميعا العسكرية .

وبما أن غزوة الأحزاب هي التي أخذت القسط الأكبر هنا فإن أهم ما يبرز فيها ذلك التناسب والارتباط المحكم بسياقها الداخلي خاصة: السياق الصوتي الذي تراعى فيه الفواصل القرآنية فهي الأساس في بناء النسيج الخطابي لآيات القرآن كما أنها هي الأساس في اتساقها وإعجازها، وقد أطال العلماء في الحديث عن أهميتها وأغراضها .

ولعل من أهم وظائف الفاصلة التي تضفي على المعنى بهاء ورونقا هو التمكين «بأن يمهد قبلها تمهيد يأتي بها ممكنة في مكانها، مستقرة في قرارها مقتضبة في موضعها ومتعلقة بمعنى الكلام كله تعلقا تاما بحيث لو طرحت لاختل المعنى نحو قوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[الآية 25] ولو اقتصر الكلام فيه على قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾لأهم ذلك بعض الضعفاء موافقة الكفار في اعتقادهم أن الريح التي حدثت كانت سبب رجوعهم، ولم يبلغوا ما أرادوا وأن ذلك أمر اتفاقي فاقتضى سياق الأية الإخبار عن نفسه بالقوة والعزم ليعلم المؤمنين ويزيدهم يقينا وإيمانا على أنه الغالب الممتنع»[2].

ولكي نستدل على قيمة الفاصلة القرآنية أكثر فبالتقديم والتأخير حيث أنها في «آيات القرآن أدت رعايتها إلى تقديم عنصر في الجملة عن موقعه أو تأخيره عنه وذلك رعاية للمعنى حتى أن البلاغيين جعلوا اهتمامهم بمدلول اللفظ عنوانا يندرج تحته الكثير من الأمور....كما أن التقديم والتأخير قد يتناول التتابع التاريخي للأحداث المناسبة للفاصلة فنجد التفضيل الذي يتسم بسمة

---

[1] - المرجع السابق، ص 298.

[2] – أشواق النجار، المرجع السابق، ص151.

الطباق قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الآية: 26] بدلا من وفريقا أسرتم»[1].

أما عن الفواصل التي أدت إلى إثبات الألفات أو حذفها في أواخر الآيات فهي عبارة عن «متقابلات وردت على أحوال منهما»[2] وقد كان الغرض منها مراعاة الفاصلة حيث زيدت في ثلاثة مواضع في السورة منها قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب: 67]، وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[الآية: 10]، وفي قوله كذلك: ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ [الآية: 66] .

هذا وقد كان للعلماء وجهات نظر مختلفة «فالزمخشري يقول إن زيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت الآي كقوافي الشعر، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف، أما أبو حيان فيقول: إن إثباتها في الوقف فيه اتباع الرسم وموافقته لبعض مذاهب العرب، لأنهم يثبتون هذه الألف في قوافي أشعارهم وفي تصاريفها، في حين أن الزركشي أثبت أن مقاطع فواصل ألفات منقلبة عن تنوين في الوقف، فزيد ألف لتساوي المقاطع وتناسب نهايات الفواصل»[3] ثم إن لبعض الدارسين المحدثين رأي آخر إذ يقول أحدهم: «يغلب على ظني أن إثبات الألف في قوله "السبيلا" يدل على عظمة هذه السبيل وذلك أن هؤلاء الكافرين الذين هم مدار الحديث يدركون حين يحيق بهم العذاب الحقيقي فيتمنون لو أنهم أطاعوا الله ورسوله، ولم يطيعوا ساداتهم وكبرائهم الذين أضلوهم سبيل الحق والنجاة والفلاح ولما تبين لهم بعد فوات الأوان أن هذه السبيل كذلك في نفوسهم فرافق ذلك إكبار لها في اللفظ فاثبتوا الألف لذلك»[4].

أما الآية التي يظهر من ملفوظاتها أنهم يتحسرون في قولهم: ﴿ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾[الآية: 66] «فمقامها جاء للمبالغة في الإذعان والخضوع، إذ إنهم أعادوا العامل فقالوا:وأطعنا الرسولا أي الذي بلغنا عنه حتى تعاذ من هذا العذاب، وزيادة الألف في قراءة من أثبتها إشارة إلى

---

(1) – تمام حسان، خواطر من تأمل لغة القرآن، م س، ص 138-139.

(2) – خالد قاسم بني دومي، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد ط1(2006)، ص212.

(3) – المرجع نفسه، ص 213-214 (انظر الكشاف، ج3، ص275، البحر المحيط، ج 5، ص459، والبرهان في علوم القرآن، ج1، 61).

(4) – المرجع نفسه، ص 215.

إيذانهم بأنهم يتلذذون بذكره ويعتقدون أن عظمته لا تنحصر ..» [1].

ثم إن فيها «وصفا لحالتهم النفسية التي يغلب عليها الندم خاصة حين يدرك المرء خطأه وسوء عمله فيكبت نفسه ويلومها، ويشعربأنه جنى عليها وهي حالات يصاحبها الحزن والألم لذا جاءت موصوفة بعبارات يتمنى فيها النادم أن تتاح له فسحة من العمر لكي يصحح خطأه، وهذه العبارات مشحونة بما يدل على الحسرات»[2] التي رمزت إليها الآية بحركة عجيبة لهؤلاء أثناء وضعهم في النار، مصورة رد فعلهم الأليم، من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ ﴾ [الآية: 66]، «فإنك تسمع أنينهم فيها حين تتقطع أنفاسهم حسرات على ما فعلوا في الحياة الدنيا، فيجيء قولهم بصوت ممتد "ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا»، فهي ألفاظ ممتلئة بالتحسر، وقد امتدت طويلا "ياليتنا"، "أطعنا"، "الرسولا"، على الرغم من أن "الرسول" كان ينبغي أن تكون مفتوحة لكن الألف هنا جاءت مجانسة لامتداد صوت "النادمين" وهم يتحسرون في قاع النار ندما على ما فعلوا ويؤيد هذا سياق الآية الكريمة وما جاء بعدها حين يذكرون ماارتكبوه من خطأ فادح سادتهم وكبرائهم حتى ضلوا السبيل فجاءت دعواهم عليهم وهم في تلك الحالة من الندم ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الآية: 68]» [3].

وفي لفظة "الظنون" التي جاءت بالمد سر إعجازي قد يخفى على كثير من الناس فمناسبتها هنا «أنهم ظنوا ظنونا كثيرة مختلفة، فإطلاقها في الصوت مناسبة لتعددها، ولو قال "الظنون" لوقف على الساكن، والساكن مفيد، فناسب إطلاق الظنون، والمؤمنون هنا في موقف ضيق وخوف شديدين وزلزلة عظيمة كما أخبر عنهم ربنا، فغرتهم هذه الظنون وشرقوا وغربوا فيها ..» [4].

وفي تفصيل آخر للظنون هنا أنه «خطاب للذين آمنوا ومنهم الثابتوا القلوب والأقدام والضعاف القلوب الذين هم على حرف والمنافقون الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بألسنتهم فظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال، أما الآخرون فظنوا بالله ما حكى

---

[1] – برهان الدين البقاعي، المرجع السابق، ص138.

[2] – كريم حسين ناصح الخالدي، المرجع السابق، ص87-88.

[3] – المرجع نفسه، ص88.

[4] – البقاعي، المرجع السابق، ص 81.

عنهم»[1].

هذا في مواطن الإثبات، أما مواطن الحذف للألف فجاءت في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[الآية: 4] «وهو مقام يقر فيه سبحانه وتعالى حقيقة عقلية معلومة فلا يقتضي المد فيها»[2].

وفي حديث آخر عن خطاب النبي ﷺ لزوجاته، حديث عن هذه البيئة التي اختارها الله بأن ينزل عليها كتابا مباركا يتلوه الناس ليلا ونهارا، حديث عن عنايته بهذا المجتمع الذي ربي على توجيهاته تعالى منه إلى النبي الكريم لكي يبلغ بهذا الدين العظيم بكل عناية وحرص كبير، فكان من بين هذه التوجيهات توجيهاته قبل هذا لنسائه ﷺ بأن يلتزموا بآداب وأخلاق النبوة ليقتدي بعدهن كل النساء فكانت مقاطع هذه الآيات «متحدة ومتصلة ومتساوقة وآخذة بعضها ببعض ابتداء من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾هي آيات لا يجادل فيها عاقل فضلا عن عالم ...فوجب النظر إلى هذا السياق باعتبار وحدته المقطعية ..لذا فإن الخضوع لفهم سياقه هو لون من ألوان الخضوع لله عزوجل، وهو قمة التعبد الفكري التدبري، لأنه انقياد العقل والقلب معا»[3].

ولعل من بين أهم «الدلائل السياقية على أن المقصود من أهل البيت أزواج النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾:خطاب تضمن أمر النبي ﷺ بأن يميز أزواجه بين الدنيا والآخرة ثم قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾[الآية: 30] خطاب لنسائه وهو خطاب مباشر، لايدخل فيه غيرهن باتفاق العقلاء، أما قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[الآية 32] دلالتها في كونهن خير النساء إن اتقين الله والتزمن بأوامره، وأخيرا قوله عزوجل: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[الآية: 34] خطاب خاص لهن، ووجه خصوصيته أن نزول القرآن لم يكن إلا في بيوتهن (رضوان الله عليهن)،

---

[1] – المرجع السابق، ص 81.

[2] – فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمان للنشر (الأردن)، ط1 (2008م)، ص37-38.

[3] – المثنى عبد الفتاح محمود، المرجع السابق، ص 213-214.

ولاتدخل فيه غيرهن فضلا عن أن يدخل فيه غيرهن»[1] وهذا السياق يناسب سياق الآية التي تأتي بعد هذه الأوامر والنواهي حين يقول: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾[الآية: 33] فهو «يبين لهن الطريق لاتباعه والبلوغ به الدرجة العليا والفضيلة الكبرى ..فهن لسن كباقي النساء .. فإذا ماالتزمن بهذه الطريق، أذهب عنهن الرجس وطهرن التطهير التام ..وهذه الآية هي بمثابة استئناف بياني يفيد تعليل أمرهن ونهيهن»[2].

وإذا ماذهبنا إلى تناسق الألفاظ ومناسبتها بعضها بعضا خاصة حين دخولها على سياق معين، هو حسن اختيار "القرآن" للفظة "دع" من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[الآية: 48] « أن الخطاب الذي كان من الله لرسوله الكريم يصفه فيه بالنبوة التي تقتضي اللين والتسامح في معاملة الناس، ويخبره بأنه عزوجل قد أرسله مبشرا ونذيرا مقدما التبشير على الإنذار يدعو إلى الله بإذنه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[الآية: 54-46]، ومن كان كذلك ينبغي أن يتصف بالدعة والرفق لتلقى دعوته القبول من الناس، ومن ثم جاء التعبير القرآني في هذا الموضع بلفظ "دع" ليتفق في معناه المعجمي مع مدلول السياق»[3].

ب)– علاقة الآيات فيما بينها خارجيا (السياق الخارجي):

«تتناول السورة قطاعا حقيقيا من حياة الجماعة المسلمة، في فترة امتدت من بعد "غزوة بدر" الكبرى إلى ما قبل "صلح الحديبية"، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين في المدينة تصويرا واقعيا مباشرا ...مزدحمة بالأحداث ... والتنظيمات التي أنشأتها أو أقرتها في المجتمع الإسلامي الناشئ»[4] ولأنها لم تنزل دفعة واحدة، فإن أحداثها كانت متنوعة وحافلة، إذ كل آية منها سبب في نزول الأخرى، إلا أن أهم محور فيها –كما ذكرنا سابقا– هي غزوة الأحزاب التي سميت السورة باسمها ..

---

[1] – المرجع نفسه، ص214.

[2] – المرجع السابق، ص 215.

[3] – مصطفى شعبان عبد الحميد، المرجع السابق، ص 85.

[4] – سيد قطب، في الظلال، م 5، المرجع السابق، ص 2817.

«فقد تآلبت قوى الشر والعدوان على المؤمنين وهم "قريظة" و"قريش" و"وغطفان" و"بنو النضير" وخاصة حين أحكموا الخناق حول المدينة المنورة، فجاؤوهم من كل الجهات حتى زاغت أبصار المسلمين من كثرة الأعداء وحتى كادت القلوب تصل إلى الحناجر من شدة الهول والفزع، فكان الابتلاء الشديد بالخوف والجوع والقتال والنزال ونجم قرن النفاق حتى قال المنافقون ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾الآية 12 وفي ذلك الوقت العصيب من الزلزلة والاضطراب والكرب يأخذ بالأنفاس والخناق جاء النصر والمدد للمؤمنين فأرسل الله الريح الشديد على الأعداء وأنزل الملائكة الأشداء لعون المؤمنين ولهذا ذكرهم تعالى بنعمته العظيمة عليهم في هذه الغزوة»[1].

إنها الحركة المستمرة التي تضفي على الآيات مسحة الجمال البياني بل يستطيع كل قارئ لها أن يتخيل الواقعة التاريخية ويستحضر أحداثها وكأنها وقعت اللحظة، فتشعر حينها بأن هذا الدين عظيم بأن جعل فيها أناس تخلوا عن كل شيء في الدنيا لإعلاء كلمة الله والظفر على الكافرين.

ثم إن من بين هذه الحركات التي تشعرك باقتراب الحادثة منك قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ الآية 10 «أي حين جاءتكم الأحزاب من فوق الوادي يعني من أعلاه قبل المشرق ومنه جاءت أسد وغطفان ومن أسفل منكم أي ومن أسفل الوادي يعني أدناه قبل المغرب، فأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم وأعانهم يهود بني قريظة الذين نقظوا العهد مع الرسول وانضموا إلى المشركين فاشتد الخوف وعظم البلاء»[2] وقدكانت هذه المحنة –فعلا– من أصعب ما لاقاه المسلمون في مواقفهم الجهادية، ذلك أنه استعصى عليهم النصر لولا عون الله لهم وفضله عليهم .

والملاحظ على هذه الأفعال التي استعملت في وصف المعركة، أنها جاءت ماضية، إلا أنها قد حركت فينا فاستحضرت واقعا كانت تعيشه ثلة الأولين فقد صدرت أفعالها بـ"جاء" "زاغ" "بلغ" ولعلها الملفوظات التي «أسست للنسق الطبيعي للمتتالية اللغوية كونها أسست بداية الخطاب، فتحدثت عن أحداث انتهى زمانها ثم انقطع فجأة هذا النسق الماضوي، بعنصر ربما يبدو متنافرا معه

---

[1] – محمد بن جرير الطبري، مختصر تفسير الطبري، ت :محمد علي الصابوني وصالح أحمد رضا، مكتبة رحاب، الجزائر، م 2، ص203.

[2] – الصابوني، المرجع السابق، م 2، ص 514.

في الظاهر وهذا العنصرهو الفعل المضارع "تظنون" الذي أصله أن يكون ماضيا لكونه معطوفا على الأفعال الماضية، ولأنه يشير إلى حالة نفسية مضى عليها الزمن، ولكن عند النظر والتنقيب يزول هذا التنافر بين نسق الأفعال ويتبين أن هذا الانزياح في نظام الأفعال مقصود ومنظور إليه من جهة أن هذا الفعل أقدر الصيغ على استحياء المشاهد ونقلها من الماضي السحيق إلى الحاضر الراهن والحدث الأهم هو الذي يصبح نقطة الارتكاز دائما في عملية الاستحضار»[1].

هذا وإنه قدجاء بهذا «الفعل مضارعا ومؤكدا بمصدره ومجموعا على خلاف المألوف في المصادر، ليكشف ويصور نفوس هذه الجماعة في هذا الموقف الرهيب ولعله الفعل الذي يدرك أيضا على الاستمرار والتجدد، فكأن الظن هنا حدث تتوالى صوره، فهي ظنون مختلفة من خيال قلق ووجدان مهموم»[2].

وعليه فإن هذه الآيات التي نزلت حسب أحداثها قد تنوعت موضوعاتها، فمنها التي تحث على الجهاد، وتصف به حالة المؤمنين والكفار، وأخرى التي نزلت لتوضح لنا أحوال النبي ﷺ مع زوجاته فبرزت فئات معينة بأسمائها كما لاننسى تلك التي نزلت في العبادات والمعاملات لترسخ العقيدة في نفوس هؤلاء وتعمق إيمانهم بالله وحده، وتعزز الأخلاق وتأمر بمكارمها فكانت بمثابة التربية العملية الواقعية، بتوجيه الناس التوجيه السليم وهكذا ..حتى إنه أي «القرآن الكريم كان يتفاعل في نزوله مع الواقع الذي هو سبب في نزوله أو مناسبته سواء كان هذا الواقع سببا عاما أو خاصا»[3].

ثم إن اللافت للانتباه أن هذه السورة شملت كل اهتمام وحملت كل هم، وطرحت كل إشكال قد يخطر على بال الإنسان، فلم تترك شيئا إلا وهي تعالجه بالتفصيل وذلك بالوقوف على كل قضية بعينها، حتى إننا نستطيع القول: أنه قد نكتفي بالسورة في استنباط أحكام شرعية منها، وكأنها –القرآن– كله . ولعل هذا دليل آخر من أدلة إعجازه، فمن بين أهم السمات البارزة انطلاقا من الأغراض والمقاصد الموجودة في الآيات أنها نزلت مقيدة بزمن معين ومكان معين، وهما يصلحان لكل الأحوال، فبعضها ما نزل إلا ليغير عادة العرب في جاهليتهم التي تعودوا عليها، كالتبني،

---

(1) – صالح ملا عزيز، جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، دار الزمان، دمشق، ط1 (2010م)، ص 213.

(2) – المرجع السابق، ص213.

(3) – عمران سميح نزال، الوحدة التاريخية للسور القرآنية، دار القراء، ص8-9

وبعضها نزل لإبطال حكم من الأحكام التي كانت سائدة كالظهار وغيرها , وهي جملة القضايا التي عالجتها السورة وفق سياقات خاصة قد نحصرها هنا في سياقين هامين وهما الأبرز: سياق اجتماعي وآخر سياق حربي أو عسكري، وهذا لا يمنعنا من إضافة —ما أسميناه بسياق الأخلاق والموعظة الحسنة .

1)– السياق الاجتماعي: وهويدخل في واقع البيئة والتاريخ، إضافة إلى العوامل النفسية المنعكسة على المجتمع، فأما التاريخ فلأن هذا المجتمع يستمد عاداته وتقاليده من تاريخه الغابر، ذلك أنه جزء منه، وأمة لا تاريخ لها لاحضارة لها، وما واقع البيئة سوى الظروف التي تحيط بها والتي من المؤكد أن واقعها فيه الكثير من العادات التي يجب أن تتغير ..

و من أهم القضايا التي عالجتها "السورة" آيتا "الظهار" و "والتبني"، حرصا منها لقيام أسرة مسلمة أساسها الأخلاق والمعاملة، والإحترام، لأنها ركيزة المجتمع، فبصلاح الأسرة يصلح وبفسادها يفسد . ومعنى "الظهار"في استعمالاتها اللغوية أن «يقال ظاهر من امرأته وتظاهر وتظهر، وهو أن يقول لها أنت علي كظهر أمي، فكانت العرب تطلق نساءها في الجاهلية بهذا اللفظ، حتى جاء الإسلام ونهى عنه، وأوجبت الكفارة على من ظاهر من امرأته»[1].

ثم إن من مشتقات ظهر وتظاهر المفاعلة وهي المظاهرة و«تعني الإعانة والمساعدة، وهي ليست بعيدة الأصل الذي ولدت منه وهو "الظهر" كأن الإعانة في هذا الفعل أن تكون ظهيرا أي مساعدا لغيرك»[2] «وهو شيء من إفادة العربية من أعضاء الجسم في توليد هذا المصطلح من مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ الآية 26 »[3].

وفي سياق قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾الآية 4، أن الرجل في الجاهلية حين «يكره زوجته يقول لها: أنت علي كظهر أمي، ومعلوم أن ظهر الأم محرم على الابن حرمة مؤبدة، وكأن الكلمة وقعت موقع الطلاق، حتى عندما جاء الإسلام لم يجعلها طلاقا وإنما جعل لها كفارة كذب، لأن الزوجة ليست أما لك

---

[1] – ابراهيم السامرائي، من بديع لغة التنزيل، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط2(1986)، ص260.

[2] – المرجع نفسه، ص260.

[3] – المرجع نفسه، ص260.

وحد هذه الكفارة إما بعتق رقبة أو إطعام ستين مسكينا، أو صيام ستين يوما» [1].

وعليه فإن «تحريم الظهار رفع للظلم عن المرأة وإعلاء لمكانتها فالزوجة زوجة والأم أم، ولاتتحول هذه الطبيعة بكلمة، ومن ثم لم يعد الظهار تحريما أبديا كتحريم الأم كما كان في الجاهلية»[2].

وفي استعمال "اللائي" في الآية بدلا من "اللاتي" ما هو إلا «إظهار لثقل الهمزة وهي مناسبة للحالات الثقيلة النادرة وهي حالات المفارقة . ومن الطريف أن بناء "اللائي" وجرسها يوحي بذلك، فكأنها مشتقة من اللأي وهو"الإبطاء" والاحتباس والجهد والمشقة والشدة للطرفين، فانظر إلى حسن المناسبة في اللفظ والمعنى والاستعمال»[3].

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾الآية 4 ففيه أن الدعي هو الذي تدعى أنه ابن وليس بابن وهو التبني الذي حرم مع الظهار، ذلك أنه فيه «قسط وعدل أن يدعى الولد لأبيه، وهذا يجعل التبعات في الأسرة متوازنة ويقيمها على أساس ثابت ودقيق مستمد من الواقع»[4] وقد كان شائعا كذلك عند العرب أن تتخذ من الأبناء أدعياء , هذا وقد نزلت الآية في شخص زيد بن حارثة الذي كان عبدا لرسول الله ﷺ، ثم إنه أعتقه وتبناه قبل نزول الوحي عليه ..فلما حرم الإسلام هذه الظاهرة نزل حكم آخر يعزز هذا التحريم وهو زواج النبي ﷺ بطليقة ابنه المدعى فهو ليس ابنا له، وهذا التبني ظاهر من قولهم فقط، إذ أنه ادعاء كاذب، ففي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾«يعني تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنا حقيقيا، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان كما لايمكن أن يكون له قلبان»[5] .«ونحن نرى أن المعنى من السياق، تبينه الآية، فالذي يقول لزوجته:أنت علي كظهر أمي أي يحرمها على نفسه كما يحرم عليه أمه، يجمع بين كراهية الزوجة وحبه لأمه في قلبه، أي بين مختلفين متناقضين في قلب واحد، والمقصود النهي عن استعمال العبارة المذكورة وينطبق هذا أيضا على تبني النبي ﷺ لزيد بن حارثة، فالرجل

---

[1] – المرجع نفسه، ص 260.

[2] – الشعراوي، المرجع السابق، ص11921.

[3] – فاضل صالح السامرائ، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، المرجع السابق، ص 56-57.

[4] – أنور الباز، المرجع السابق، ص 28.

[5] – الشعراوي، المرجع السابق، ص11922.

لايمكن أن يتعامل بقلبين أحدهما لأبنائه والآخر لمن تبناه».[1]

وهناك تقابلات بيانية جمالية بين هذه التحريمات التي شرعها الدين ووقف عندها للتوضيح والتبيين، وفيها ملمح إشاري لطيف إذ أنه تعالى « جاء بمتناقضين وأدخل فيه متناقضا آخر، فكما أن القلب الواحد لا تجتمع فيه طاعة الله وطاعة الكافرين والمنافقين، فكذلك الزوجة لا تكون أبدا أما، فهي إما أم وإما زوجة هذا وقد وجد عند العرب تناقض آخر في مسألة التبني، فكان الرجل يستوسم الولد الصغير أو يرى فيه علامات النجابة فيتبناه، فيصير الولد ابنا له، يختلط ببيته كولده ويرثه كما يرثه ولده وعليه كل حقوق الابن ...»[2]

والملاحظ أن هناك بعدا أخلاقيا ودينيا تؤكده توجيهات الآية فهي «تمثل الإخلاص والتجرد لله، كما للمؤمن قلبا واحدا، و له منهج واحد يسير عليه، كما لابد له من تصور واحد للحياة، ولابد له من ميزان واحد يزن القيم ويقيم به الأحداث والأشياء»[3] ثم إن كلمة "الجعل" لديها بعدا فطريا هو أن «الجعل المنفي هنا هو الجعل الجبلي أي ما خلق الله رجلا بقلبين في جوفه، وقد جعل إبطال هذا الزعم تمهيدا لإبطال ما تواضعوا عليه من جعل أحد الأبناء لمن ليس هو بابنه، ومن جعل امرأة أما لمن ليست أمه بطريقة قياس التمثيل أي أن هناك الذين يختلفون ما ليس في الخلقة لايتورعون عن اختلاف ما هو من ذلك القبيل من الأبوة والأمومة صفتان من أحوال الخلقة وليستا مما تواضع الناس عليه بالتعاقد مثل الولاء والحلف»[4].

وهناك تناقض يبديه الرجل إذا أفصح عن كراهيته لزوجته بأنها «تحرم عليه كما تحرم عليه أمه، ذلك أنها تحرم عليه من ناحية النسب وليس من الناحية العاطفية»[5].

وفي الأخير فإن أهم قضية ركزت عليها الآيات هي قضية النسب التي رفعت من شأنها ووضعت لها حدودا وضوابط لتطبيقها كي لا تختلط الأنساب فيشتت المجتمع وينحل، وذلك أن لقضية النسب أبعادا أخرى ضمنية منها قضية النفقة الميراث، الزواج وغيرها ...

---

(1) – عابد الجابري، المرجع السابق، ج3، ص 186.

(2) – الشعراوي، المرجع السابق، ص 11922.

(3) – أنور الباز، المرجع السابق، ج3، ص27-28.

(4) – الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص255.

(5) – عابد الجابري، المرجع السابق، ص 194.

أما الخطابات التي جاءت تباعا من النبي ﷺ لزوجاته هي كلها خطابات توجيهية إرشادية، وعظية، تسعى لتحريك الفئة المؤمنة والصادقة إلى خير فلاح الدنيا والآخرة، فالمرأة فيها هي الركيزة الأساسية، فكان من اللازم أن تبدأ تعاليم الإسلام بتوجيههن إلى الأسس الهامة في تربية سليمة وسوية تحمي بها المرأة نفسها وتحمي غيرها من فتنتها ..وهذه الأوامر هي: عدم الخضوع بالقول وعدم التبرج ... فربط الخطاب القرآني هذه الحالة بعادة نساء العرب قديما، إذ أنه ما جاء نهيهن عن الخضوع بالقول وهو الكلام الذي فيه رقة ولين، إلا لأنها عادة سيئة ذميمة وممقوتة وكأنه يقول لهن: حذاري أن تكن مثل هؤلاء النسوة .

هذا وقد خصهن الله بهذا الفضل وهذا التشريف وميزهن عن غيرهن، وذلك لقربهن من رسول الله ﷺ وما كان نزول الوحي الذي بينه وبين الله إلا في بيوت إحداهن، فأي شرف أعظم من هذا الذي هن فيه . فكان من الواجب أن الواحدة منهن قدوة لغيرهن عبر الزمن .ثم إن «الخطاب القرآني يقدم سبب النهي عن "الخضوع بالقول" بقوله "فيطمع" أي في الخيانة، والذي في قلبه مرض أي فساد وريبة والتعبير بالطمع للدلالة على أن أمنيته لا سبب لها في الحقيقة لأن اللين في كلام النساء خلق لهن لا تكلف فيه، فأريد من نساء النبي ص التكلف للإتيان بضده»[1].

ولما نهاهن عن الاسترسال مع سجية النساء في زخامة الصوت أمرهن بضده فقال ﴿ **وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** ﴾أي يعرف أنه بعيد عن محل الطمع، ولما تقدم إليهن في القول وقدمه لعمومه اتبعه الفعل فقال "وقرن" أي واسكن وامكثن دائما في بيوتكن ...ولما أمرهن بالقرار نهاهن عن ضده فقال "ولاتبرجن" أي «تبرج الجاهلية الأولى»[2].

و اختياره للفظة "قرن" عن غيرها اختيار مناسب لسياق الآية، فهي تعتبر من الألفاظ المتداولة لدى العرب وهي مألوفة عندهم لأنها ألفاظ لها علاقة ببيئتها غنية بالمعاني والدلالات التي تؤدي غرضها في الآية أكثر من مثيلاتها إضافة إلى أنها نزلت بلغة القوم لتقريب الفهم واستيعاب الدلالات ولكي يكون التواصل أجدى وأنفع .

كما أن هذه اللفظة تدل على السكينة والأمان والطمأنينة ذلك أن المرأة في بيتها لاتتعرض

---

[1] – البقاعي، المرجع السابق، م 6، ص101.

[2] – المرجع نفسه، ص102.

للأذى والظلم والقهر من العالم الخارجي، فهي في أمان تام فـ"قرن" هنا أقرب إلى معنى الاستقرار.

أما في قوله: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ففيها استحضار للتاريخ واستدلال بوقائع الأمم السابقة في جاهليتها الأولى، وهو سياق تاريخي يؤكد خطورة النهي عن اتباع الكفرة الفجرة، من أي تقليد كان سواء في كلامهم أو في لباسهم أو في مشيتهم فهو عرف باطل ما أنزل الله به من سلطان.

هذا وقد وضع باحثون محدثون تسمية جديدة لهذا السياق أمثال تمام حسان الذي سماه بالسياق الواقعي والذي «يعتمد على العرف السائد أو على التاريخ أو على الجغرافيا أو على العلاقات السائدة بين عناصر الموقف الذي تم فيه الكلام فحين نقرأ هذه الآية نلتمس فيها دلالة العرف على تبرج الجاهلية الأولى وكيف كان إذ وجدنا القرطبي يروي عن ابن عطية ما يأتي بقوله "والذي يظهر أنه أشار للجاهلية التي لحقنها (أي نساء النبي) فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة لأنهم كانوا لاغيرة عندهم»[1].

وبعد نهيه تعالى عن الأفعال المشينة والفاسدة من تبرج وخضوع بالقول تنزل "آية الحجاب" لتأمر نساءه ﷺ وبناته وجميع نساء المؤمنين كي يتسترن ويحفظن شرفهن ويعلين من قدرهن ومكانتهن لأن ذلك أطهر لقلوبهن وقلوب المسلمين.

فكان سبب نزول الآية59 من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾أنها «موافقة لرغبة عمر بن الخطاب ﷺ لمراد الله تعالى فما يذكر بحساسيته المرهفة أنه كان يقترح على النبي ص الحجاب وكان يتمناه على ربه حتى نزل القرآن الكريم مصدقا لاقتراحه مجيبا لحساسيته وهذا يدلنا على الفطرة السليمة التي ألهمها الله بصيرة وأحكاما»[2]، فالأمر بالتستر في «المجتمع الإسلامي ضرورة لإقامة التقوى عند الذكور والإناث وفي المقطع تهديد للكافرين والمنافقين الذين لا هم لهم سوى نشر الفاحشة والفجور والإشاعات، وفي الآيات صلة ببعضها وبالمحور، وأما صلته بما قبله

---

[1] – تمام حسان، اجتهادات لغوية، المرجع السابق، ص248.

[2] – أنور الباز، المرجع السابق، ص49.

فواضحة، فما قبله كان كلاما عن حجاب أمهات المؤمنين وهنا الأمر بالحجاب للجميع»[1].

«وفي بيان أهمية المعرفة بالبيئة، بيان عن قصد وضع الشريعة للإفهام، إذ ركز هذا القصد على كثير من خصوصيات تلك البيئة التي يجب أن تفهم الشريعة في ظلها، حتى إنه يجعل عرف العرب في معاشهم أصلا في فهمها، فيربط عملية فهم الخطاب بمستواهم الفكري ويرى أن التكاليف الاعتقادية والعلنية لابد أن تكون مما يسع العربي تعقلها ليسع الدخول تحت حكمها»[2].

2)- السياق الحربي أو العسكري:

لقد كان للبيئة دور كبير في صناعة أحداث الغزوة التي اشتهرت في زمان ومكان معلومين، وفي تشكيل الخطاب باحتوائه على دقائق الأماكن والأحوال «وهو ما يرجع إلى البيئة العربية المادية، أرضها:بجبالها وصحاريها وقيعانها وسمائها: بسحبها ونجومها وأنوائها وطبيعتها:بجدبها وخصبها ومحلها ونباتها وشجرها».[3]

كما وجدنا الضرورة الملحة لمعرفة هذا السياق بالذات وهو سياق «البيئة العربية المعنوية بكل ما تتسع له هذه الكلمة من ماض سحيق وتاريخ معروف ونظام أسرة أو قبيلة أوحكومة في أي درجة كانت أو عقيدة أو فنون أو أعمال».[4]

ثم إن «ارتباط القرآن بأسباب النزول-وهي تمثل المقام- والتي يحياها المخاطبون بل ويصنعونها يجعله يختصر المسافة التي تفصله عن قلوبهم وعقولهم ويجعلهم يشعرون أنهم المعنيون دون سواهم، وهذا ما يثير فيهم الرغبة في الاستماع والاعتراض والسؤال والرد والقبول ..فهو يستفزهم حتى يخرجهم من الرتابة التي ألفوها وسكنوا إليها»[5].

ومما لاشك فيه أن «الإلمام بتلك السياقات التاريخية من شأنه أن ينزل النتائج المترتبة على هذه الغزوات في إطارها الموضوعي من مسار الرسالة المحمدية وعندئذ فإن تصدي الرسول لقريش

---

(1) – سعيد حوى، المرجع السابق، ص 4483.

(2) – خلود العموش، المرجع السابق، ص 124.

(3) – المرجع السابق، ص 123.

(4) – المرجع نفسه، ص 123.

(5) – بلقاسم حمام، المرجع السابق، ص175.

ولليهود كان من باب الدفاع عن الدين وعن كيان المسلمين الغض»[1].

هذا وإن «في احتواء بعض أخبار أسباب النزول على جوانب من مغازي الرسول ﷺ وسراياه دلالة على ارتباط تلك الأخبار بمرجع تاريخي واقعي، إذ تتكثف فيها الإحالات على أسماء أعلام معروفة وعلى أزمنة محددة»[2] وبواسطة هذه الأسباب، وصفت هذه الآيات حالة المؤمنين الذين كانوا في أشد بلاء وأعظم كرب واجههم من طرف اليهود والمنافقين حتى « سمى الله ما أصابهم ابتلاء إشارة إلى أنه لم يزعزع إيمانهم، فكان هذا الزلزال الذي يعتبر اضطرابا في الأرض وهو مضاعف من زل تضعيفا يفيد المبالغة، كما أنه استعارة لاختلال الحال اختلالا شديدا بحيث يخيل مضطربه اضطرابا شديدا كاضطراب الأرض وهو أشد اضطرابا للحاقه أعظم جسم في العالم والمراد بزلزلة المؤمنين شدة الانزعاج والذعر لأن أحزاب العدو تفوقهم عددا وعدة»[3]، لكن الله تعالى ومن رحمته على عباده الذين اصطفى، أنه أنعم عليهم بنعم حفظه ورعايته ورضوانه، إذ أرسل عليهم ريحا هي من جنود الملائكة لايراها المؤمنون لكنها تقاتل معهم لتقضي على المشركين والكافرين فكان النصر حليفهم .

هذا وإن تصوير الآية للذين كفروا بهزيمتهم وفرارهم باستعمال حرف "الباء" في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾الآية 25 "تجعلنا نحس بأن الغيظ ليس شعورا نفسيا فحسب وإنما هو شيء تبصره العيون حين يسير جنبا إلى جنب الكفار ليرجع معهم إلى المكان الذي أتوا منه فهو ملاصق لهم ملاصقة حسية لا يفارقهم، ولعلنا نطمئن إلى ذلك حين نقارن بين قوله تعالى وبين أن يقال «ورد الله الذين كفروا مغيظين»[4].

أما الحالة الأخرى التي يصف فيها القرآن حالة المنافقين فهي حالة فرار من المعركة خوفا وجبنا، مع تمسكهم بالدنيا آخذين بحجج واهية ومخزية، ولعلها طريقة المنافقين في كل عصر، إذ قال فيهم الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾الآية 13، «فمرادهم من هذا الفرار عدم

---

[1] – بسام الجمل، أسباب النزول، المركزالثقافي العربي، ط1(2005)، ص429.

[2] – المرجع نفسه، 429.

[3] – الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ج21، ص 283.

[4] – ابن كثير، المرجع السابق، ج3، 1475.

الجهاز وإظهار أمر تقاعسهم بوجه غير الذي يقصدونه فارتبطت الصورة البيانية بكذب هؤلاء المنافقين الذين إذا دعوا للفتنة سارعوا في التحوط حولها والالتفاف في عصيتها ...» [1].

ثم إن هناك أسلوب تهكم واحتقار لهؤلاء، نظرا لحقارة موقفهم الذي يدل على دناءة نفوسهم فقد تكون هناك لمسة إشارية لدقة اختيار الألفاظ هنا، مع مناسبتها لمقتضى حالهم وهي قوله: "وإذ قالت " حيث «أنث الفعل إشارة إلى رخاوتهم تأنثهم في الأقوال والأفعال، وقوله "طائفة منهم» أي قوم كثير من موتى القلوب ومرضاها، يطوف بعضهم ببعض "ياأهل يثرب" عدلوا عن الاسم الذي وسمها به النبي ﷺ من المدينة وطيبة مع حسنه إلى الاسم الذي كانت تدعى به قديما مع احتمال قبحه، لأنه مشتق من الثرب وهو اللوم والتعنيف إظهارا للعدول عن الاسلام . أما قوله: "لامقام لكم" فهو تأكيد بنفي الجنس لكثرة مخالفتهم ...

«"فارجعوا" إلى منازلكم هربا وكونوا مع نسائكم أذنابا أو إلى دينكم الأول على وجه المضارعة لتكون لكم عند هذه الجنود يد» [2].

و القرآن بهذا ينتقل من وصف حال المنافقين إلى تشخيص أحوالهم النفسية والبدنية، كعلامة على ماهم عليه من الفزع والخوف والاضطراب . إنها تلك الحركة الجسمية التي يبدونها ولا يخفونها وهي ممثلة في سلوك العين من قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾الآية 19 فالنظر هنا بالبصر الشاخص كان أقرب في تشبيه هؤلاء بخوفهم من الحرب بالخائف من الموت، والدليل على ذلك هو ما تبرزه وجوههم من تغير في أثناء أمرهم بالحرب، كما ينظر المغشي عليه من الموت، فكان التشبيه هنا أبلغ وأوقع في النفس، ولعلها تناسب حركة الدوران من قوله: "تدور أعينهم" لأنهم «يبحثون عن مقر يلجؤون إليه أو حل لما هم فيه، لذا تدور الأعين في أرجاء المكان ينظر أحدهم في وجه الآخر، ولعل نسبة الفعل "نظر" إلى المغشي عليه أو استعمال أداة التشبيه "الكاف" يصور عظم الخوف ويقرب صورته لما يكون عليه حال المغشي عليه من انهيار وخوار فلا يرى الأشياء كما هي، بل يشعر بدوران

---

[1] – محمد بركات أبو علي، الآية التفسيرية وموقعها من البيان القرآني والبلاغة العربية، دار وائل للنشر، ط1(1999)، ص77.

[2] – البقاعي، المرجع السابق، ص 83.

الأرض حوله ثم فقدان الوعي وهكذا حال الخائفين»[1]

إنها بحق صورة العين حين تكون في أوج حتها النفسية وبأعلى مراتب ومقامات الخوف الذي يعتري الإنسان، فالدوران هنا اضطراب وتحريك للعضو بحركة دائرية إلى كل الجهات المحيطة، فكان «القرآن بذلك له السبق على الدراسات النفسية الحديثة التي أثبتت أن الخوف الشديد غالبا ما ترافقه تغيرات حادة من ملامح الوجوه ولاسيما في حركات العيون واضطراباتها العنيفة»[2].

وفي حديثها عن الخوف حديث عن حركة المجيء والذهاب "فإذا جاء الخوف" ففيها «تضاد –واضح – وهو يشير إلى أن المنافقين يقضون حياتهم كلها بين مجيء الخوف وذهابه، مما يدل على أنهم في اضطراب دائم وصراع نفسي حاد لا يكاد يهدأ لحظة»[3].

هذا وقد وصف درجة الخوف والرعب الذي كانوا فيه بقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾الآية 26 «فألقى الرعب في قلوبهم من أثقل جهاته وعلى أقطع بغتاته تشبيها بقذفه الحجر، إذا ظل الانسان على غفلة منه»[4] ولعله «يقترب من إيحاء أثر المفاجأة في اختيارهذا الفعل الذي يحسم الإحساس بالرعب وهو كما نرى لايعني بتفصيلات عن نوع الاستعارة بقدر ما يلمح إلى ظلال القدف الذي يهز قلوب المشركين وقد أدرك مدلول السرعة والقوة في الفعل»[5].

وخلاصة القول فإن هذه الغزوة جعلتنا فعلا نعيش أحداثها، وكأننا في وسط المعركة. ولعله الإعجاز بعينه، ان تتفاعل النفوس والعقول بتفاعل الأحداث «فكان جو السورة كله هو المعنى الذي يسيطر عليها من المطلع حتى الختام نستشعر حركة المعاني» مع مدى موافقة بداية مطلعها هذا بخواتيمها ابتداء من نهيه عن طاعة الكافرين إلى قوله: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾الآية

---

(1) – مهدي أسعد عرار، مباحثات لسانية في ظواهر قرآنية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(2008) ص207.

(2) – عزيز الملا، المرجع السابق، ص 75.

(3) – المرجع نفسه، ص 76.

(4) – أحمد ياسوف، المرجع السابق، ص 105.

(5) – المرجع نفسه، ص105.

. 73

وإذا ما انتقلنا إلى باب تكرار الألفاظ وربطناها بدلالاتها، نجد أن هناك ثمة تكرار آخر في سياق الأحوال ومقتضياتها، وهو تكرارالحوادث والوقائع، رغم اختلاف المكان والزمان، إذ أن «ما يقع في الحياة ماهو إلا حوادث مشابهة في الغالب، فيجوز أن يكون كل حكم صدر في حادث ما هو حكم حادث آخر متكرر، فالنص واحد لايتكرر، والحوادث متعددة ومتكررة، ولعله المبدأ الذي ترتكز عليه أسباب النزول، فالخطاب غير متكرر في نفسه، وإنما تكراره بالنسبة لتلك الوقائع التاريخية التي تعيد مقصديته كلما تكررت»[1] مع ضرورة مشاركة الأطراف المتعددة في تأسيسها لهذه الحوادث مع وجوب كذلك «استحضار حال الجماعة المخاطبة بالآيات وواقعها في وقت تنزل الخطاب وربطه بالحوادث السابقة لذلك الخطاب»[2] تماما كالذي حدث في خطابات المنافقين، فمن المؤكد أن هذه الثلة لاتريد المشاركة في القتال مع النبي ﷺ، ولكنها حضرت المعركة وصنعت أحداثها فيها، ولو بالسلب، فلم نجد هذه الآيات سوى أنها تصور مظاهر الرعب والخوف والاستسلام لهذه الفئة التي عرضت موقفها من الحادث مبررة أسباب تراجعها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾الآية 13 وقولهم هذا نربطه بما تقدم من الآيات التي وصفت حالتهم بقوله: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾الآية 12 .

والمتأمل في هذه الآيات –بصفة عامة– وهي تصف هذه المشاهد يقول إنها لاتصف الأشخاص فقط وهم في تلك الحالة، وإنما تصف كذلك ما يعرف عند التداوليين بـ"المقام الواقعي" الذي يقوم على «القول المنجز وهو لايمثل في ما حدد التداوليون إلا جزء مما عرفوا به المقام وعدوه مقاما موضعيا، باعتباره الإطار الزماني والمكاني للمتخاطبين لحظة القول»[3] وهذا الذي يجعل تكرار الحوادث والوقائع قائما في سور القرآن الكريم، على الرغم من اختلاف الأقوال هذا وقد سمتها "أركيوني" بـ"المشيرات المقامية" وقد عرفتها بقولها: «هي الوحدات اللغوية التي يقتضي اشتغالها الدلالي

---

[1] – أحمد عرابي، المرجع السابق، ص 225.

[2] – المرجع نفسه، ص 225.

[3] – نجوى بن عامر، الإحالة وقضاياها في ضوء المقاربات اللسانية والتداولية، مقال:– متضمنات القول ومراجعها النحوية، أعمال ندوة كلية الآداب، القيروان، ص 98.

الإحالي اعتبار بعض العناصر المكونة للمقام التخاطبي، أي معرفة الدور الذي تضطلع به فواعل القول من حدث التلفظ بمقام الزماني المكاني للمتكلم» [1] ففي كل لحظة من فعل القول، يتغير مجرى المعنى، ويتحول إلى عمل من الأعمال التي قد ينبني عليها الحدث، ثم إن المقام التخاطبي يعتمد أكثر على «البعد الحسي، باعتباره إطارا زمانيا ومكانيا لحدث التلفظ، يتحدد بالمدى البصري والسمعي، ليجعل مفهوم الحضور الحسي من مقومات هذا المقام».[2]

ولعل تحقيق التماسك النصي، الذي يعد من أغراض التكرار، يكون عن طريق امتداد عنصر ما من بداية النص حتى آخره، وهذا العنصر قد يكون كلمة أو عبارة أو جملة أو فقرة، فامتداده يربط بين عناصره بمساعدة عوامل التماسك النصي الأخرى . مثال ذلك: «تكرار صيغة الأمرمن فعل "قل" في 4 مرات، وهي تشيرإلى ذلك الحوارالقائم بين الله ورسوله ليبلغ الناس من بعد فكانت لغة الحوار من الأنماط المحققة للتماسك النصي».[3]

ففي حواره المتسم بـ. قل

قل المتكررة

قل

قل

فصيغة الأمر " قال " هنا تقابل لصيغ الأمر التي وردت وهي:

- اتق الله هناك:- ولا تطع الكافرين والمنافقين

- اتبع ما يوحي إليك من ربك

- وتوكل على الله

وهي تقابل الآية التي جمعت بين "التقوى" و"الاتباع" و"التوكل" . وذلك في قوله تعالى: «ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا» الآية 3.

---

[1] - نرجس باديس، دلالة الحضور في الإحالة المقامية، المشيرات المقامية، تونس، ص 108.

[2] - المرجع نفسه، ص 108.

[3] - صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء، القاهرة، ط 2000، ج1، ص22.

وكلها تدل على قوة الإرسالية التي كانت مرجعية أوامرها من الداخل، فالتقوى عقيدة راسخة للنبي ﷺ وللمؤمنين الذين كانوا معه، والذين اتبعوه من بعده .

كما أنه لاتصح هذه العقيدة إلا بالتقوى، ولعل اتباع أوامر الله تعالى هو اتباع لهذا الوحي الذي أنزله عليه ﷺ، والذي يتطلب عزيمة كبيرة، وقدرة عن طريق الاتكال على الله وحده . وما الآيات التي قال الله فيها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴾﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلًا كَبِيرًا ﴾"الآية 47، إلا دليل آخر على تماسك هذه السورة كلها من أولها إلى آخرها، كما أنها دليل النبي ﷺ على فعل "الإرسال" الذي منحه إياه سبحانه وتعالى، ليكون شرفا عظيما لهذا المرسل إليه .

-ياأيها النبي ⟵إخبار

-إنا ⟵تأكيد

-أرسلناك ⟵ شاهدا، ومبشرا، ونذيرا

ثلاثة عناصر تمثل آليات:

الرسالة العملية

مضاف إليها:

الدعوة إلى الله في قوله:

وداعيا إلى الله بإذنه ⟵وسراجا منيرا

ثم إن مراعاة سياق المقام المرتبط بالواقع في آية " ودع أذاهم "يفسرها اللغويون وعلماء النحو انطلاقا من سرد الحادثة بالتفصيل، يقول تمام حسان: «يسمح النظام النحوي للإضافة هنا في لفظ "أذاهم" بأحد المعنيين:إما الإضافة إلى الفاعل فيكون المعنى: "أن تؤذيهم" أو الإضافة إلى المفعول فيكون المعنى "أن يؤذوك" ولكن القرينة الدالة على المقصود تظهر في وقائع السيرة النبوية الشريفة إذ كان المشركون هم الذين يؤذون النبي ﷺ »[1].

[1] – تمام حسان، اجتهادات لغوية، المرجع السابق، ص 204.

ولعل هذا الذي أسماه علماء الغرب بـ"المقامية" التي «تتضمن رعاية الموقف كما يقول دي بوجراند أي العوامل التي تجعل النص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه»[1].

3)- سياق الأخلاق والموعظة الحسنة:

إن الأوامر التي سيقت هنا، أوامر متعددة ومتدرجة أي أن الله تعالى هو المصدر العالي لها، يأمر نبيه بأن يتأسى بأخلاق الأنبياء قبله، ويأمر المؤمنين من خلاله بالتأسي به حتى إن الروايات تؤكد أن الله سبحانه وتعالى لم يأمر رسوله ﷺ بالاقتداء بأسلافه من الرسل في خلق معين إلا في الصبر ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[الأحقاف: 35] كما تذكر أن القرآن عرض على رسوله ﷺ شرائح وقطاعات تقص ما لاقاه الرسل من العنت والشدة والمؤامرات والسخريات، ليثبت ويصمد كما صمد زملاؤه من قبل ...والمعروف أن التكذيب والعنت والممارات يشق على نفس الداعية ويعمق فيها أخاديد الحزن والأسى، لذا انتابت قلب محمد ﷺ نوبات من حزن وألم نفسي من موقف هؤلاء الذين أعرضوا عنه وهو الحريص على هدايتهم.

ثم هو يأمر أتباعه من المؤمنين الصادقين من الصحابة والتابعين بأن يتأسوا بحلية الصبر، التي تعتبر أعظم خلق في الإسلام، وهو الحامل الأول لها، كما أنه القدوة للجميع في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الآية: 21] .هذا وقد جاءت «بعد ذكر غزوة الخندق، حيث جمعت قريش وحلفاؤها جيش يتعدى 10000 جندي للقضاء على الإسلام، في حين تآمر معهم من الداخل المنافقون واليهود، ودام الحصار 25 يوما ولذا فإن السياق يفيد التأسي بالصبر والشجاعة التي أبداها الرسول في هذا الموقف وفي مواقف أخرى صعبة».[2]

ولعل من سياقات الأخلاق الواردة في السورة، حديث عن نساء النبيﷺ وقدوتهن لسائر نساء المؤمنين «والناظر لهذه الآية "يانساء النبي " مشبه" لستن كأحد من النساء" الآية فأحد: هي مشبه به ونساء النبي ﷺ في مكان القدوة لسائر النساء، أي لستن جماعة واحدة من جماعات النساء، ولاتوجد جماعة منكن تعدلكن في الفضل والسابقة إذا متن على ما أنتن عليهن من

---

[1] – أحمد عفيفي، نحو النص، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط2001، ص84-85.

[2] – رشيد ميموني، المرجع السابق، ص 281-282.

التقوى»[1] ولما كان المعنى "بل أنتن أعلى النساء" ذكر شرط ذلك فقال: "إذا اتقيتن" أي «جعلتن بينكن وبين غضب الله وغضب رسوله وقاية»[2] ترجع عليهن بالسعادة والفوز في الحياة الدنيا والآخرة، ومن الوقاية أنهن يتقين "الرجال" بعدم الخضوع لهن بالقول .إذ "تواصل الآية ذكر الواجب اتباعه عند مخاطبة نسائه ونساء المؤمنين و"هو الحجاب"، وهذا أطهر لقلوب الجميع وقلوب المسلمين وقلوب أمهات المؤمنين والله هو الذي يقول بهذا وهو العليم بالقلوب وذلك ردا على المدعين والمستغربين الذين يقولون كما يذكر صاحب الظلال: «إن الاختلاط وإزالة الحجب والترخص في الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين»[3] تجعل النساء يقعن في الأذى والرذيلة، والأخطاء والزلات فمن باب الوقاية قوله تعالى موجها لهن الخطاب ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ [الآية: 59]، وبذلك تكون دلالة "الإيذاء" قد تكررت، بمقامات مختلفة وبوسائل متعددة، فكما أنه سبحانه وتعالى أمر نبيه بترك إيذاء الكفار لهم بقوله "ودع أذاهم " فكذلك نساءه اللواتي أمرن بارتداء الحجاب لترك أذى الكفار كذلك، فالكلمة واحدة لمقامين مختلفين .

وهناك «إشارة هامة إلى ضرورة ملاءمة القول للسياق، آخذا في الاعتبار طبيعة المتلقي خاصة إذا كان للمتحدث سمات صوتية، قد تحمل في طياتها رسائل تواصلية إغرائية غير متعمدة، كما هو الشأن مع أصوات النساء التي تطغى عليهن الطبقة الصوتية الرقيقة ...فلا يتوقع من أمهات المؤمنين وهن أشرف النساء وقد عرف عن معظمهن التحدث إلى الرجال لرواية الأحاديث النبوية الشريفة إلا أن يكون حديثهن حادا خاليا من المؤثرات والمزاح الخفي الذي قد يساء تفسيره »[4].

وفي سياق آخر لمعطيات الأخلاق، وهو الاستئذان لدخول البيوت في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾[الآية: 53] فقد «يدخل البر والفاجر إلى بيته ﷺ ومع ما تحمله الآية من دلالات وما يترتب عليه من مفاسد وأضرار كان السبب المباشر في نزول النص، هو

---

[1] – حسين عبيد الشمري، صورة الآخر في الخطاب القرآني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(2008)، ص173.

[2] – البقاعي، المرجع السابق، ص102.

[3] – أنور الباز، المرجع السابق، ج3، ص48.

[4] – محمد الأمين موسى أحمد، الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، إشراف: علي محمد شمو، إصدارات دار الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ط1(2003)، ص828-829.

نفسه علة النهي الوارد فيه»[1] من تصور المقام الحاصل بين النبي ﷺ وعمر رضي الله عنه عنه إذ أنه «اقترح الحل بقوله "فلو أمرتهن أن يحتجبن " فكانت هذه العلة هي نفسها السبب المباشر في نزول الآية وفي تشريع حكم النهي ..فجعل الشارع العلة التي أدركها عمر سببا للنزول واجتهاده»[2].

المبحث الثاني:

دراسة تداولية لغزوة الأحزاب:

تدل الآية 9 من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾على بداية المعركة الفاصلة بين المؤمنين والكفار، وذلك من خلال إرسال الريح والجنود التي لا ترى، فهناك أفعال إنجازية في سرد هذه الوقائع، وهي تقريريات، لأنها تخبر عن أحوال ثلاثة هي: حالة المعركة وجوها، حالة المؤمنين وحالة الكفار والمنافقين . هذا وقد صدرت معظم الآيات بـ"إذ" والتي تعني الاستمرار، وكأن أحداثها تجري الآن: منها قوله: ﴿ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ ﴾﴿ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ ﴾﴿ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ ﴾وهي أقسام، منها: ما تنسب إلى الله تعالى في قدرته على تغيير الواقع والحكمة من هذا التغيير، ومنها ما تقترن بالكفار، وما يصدر عنهم من أفعال وأقوال: ففي قوله: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا ﴾ وقوله: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ ﴾وقوله: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ ﴾هي أفعال تنسب لله تعالى .

أما قوله: ﴿ جَآءُوكُمۡ ﴾، ﴿ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ ﴾، ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ ﴾ ﴿يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡ ﴾ ما هي إلا أفعال تنسب إلى الكفار.

«فحين نلاحظ هذه الأفعال الكلامية التي تتكون منها السلسلة السردية المندرجة ضمن التقريريات، نقول إنها تقوم على تأكيد الشحنة الإخبارية للمعلومات والأفكار والقناعات»[3] ثم

---

[1] – محمد إقبال عروي، أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية،، مقال: السياق في الاصطلاح التفسيري، ص423.

[2] – المرجع نفسه، ص423.

[3] – محمود طلحة، تداولية الخطاب السردي، دراسة تحليلية في وحي القلم، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1 (2012 م)، ص 107.

«إن التعبير بالفعل يمنح الأسلوب لونا من الحركة في الأداء لا يرى في الأسماء والصفات، ولعل ذلك عائد إلى ارتباط الفعل بالحدث الذي يؤطر بالزمان وينتقل من مكان إلى آخر، ومن ثم فإن الطابع الحركي الذي يضفيه الفعل على الصورة يلقي في النفس إسهاما يدفع بالمتلقي إلى الانتقالات الذهنية مع الانتقالات الحسية داخلها، ..وجل هذه الأجواء من المشاهد المتحركة عائد إلى الأفعال»[1].

ومن المعاني التداولية التي تخبر وتنبئ عن نفسية المخاطبين من أمثال المؤمنين والمنافقين والكفار، هي تلك التي ركزت على تفصيل شامل لما تشعر به الفئة المؤمنة من خلال وصفها بالزلزال الذي يعتبر في الدراسة الصوتية واللغوية من الأوزان الرباعية ذات الدلالة المتكررة في صوتي الزاي واللام، وهي تدل على الاضطراب النفسي الشديد، مع ما تتركه من أثر في محن وابتلاءات الرسل والدعاة إلى الله، تماما كشدة الزلزال الذي تهتز به الأرض فيخاف الناس ويفزعون .

هذا وإن من الأغراض الإنجازية الي تدخل ضمن الأمريات، تلك التي تكشف عن مكانة ومنزلة نساء النبي ﷺ ومن حذى حذوهن في سيرتهن وأخلاقهن، فكان استعمال الخطاب القرآني هو استعمال وعظي إرشادي توجيهي .

فإصدار مجموعة من القوانين التي يجب اتباعها في شأنهن وشأن نساء المؤمنين عبر الزمن هي بمثابة الأوامر والنواهي التي تدخل ضمن الأحكام الشرعية المستنبطة من فقه الواقع والحياة منها:

-احتناب الفاحشة في وقوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ﴾ الآية 30 .

-القنوت: في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الآية 31.

-إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة:في قوله: ﴿ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ الآية 33.

---

[1] – عزيز الملا، المرجع السابق، ص77.

ملاحظة:-لفظ الفرار، الخوف، دوائر العيون، وغيرها هي مناسبة سياقيا لهذه الحركات السلوكية والنشاطات الجسمية مع الواقع الذي ترد فيه.

-ذكر الله بقراءة القرآن: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ ﴾ الآية34.

-عدم الخضوع بالقول: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ ﴾ الآية 32.

-المكوث في البيت وعدم التبرج ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾الآية 33. وكل هذه الأعمال إنما هي أعمال متضمنة في القول فلا تنجز إلا به .

هذا وإن الفعل التأثيري أو الفعل الناتج عن القول، أنهن استمعن للأوامر، فعملن بها واستمعن للنواهي فاجتنبنها، وما بقيت سوى مسؤولية اللواتي تأتين بعدهن.

وقد استخدمت لفظة "التخيير" التي اعتمدها القرآن في خطاب نساء النبي "إن كنتن تردن .....فتعالين ....وإن كنتن تردن ..." فيرجع الأمر لهن، وفي الأخير اخترن الدار الآخرة وهي دار البقاء على الدار الفانية وهي الدنيا بكل فتنتها وزينتها.

أما معنى "الظهار" فهو ذلك الفعل الإنجازي من قول الرجل لامرأته «أنت علي كظهر أمي» «فحكم من قال مثل هذا الملفوظ لزوجته عند الفقهاء:عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستين مسكينا، ويندرج في هذا المقام أيضا ألفاظ الطلاق وألفاظ البيع والشراء والأحكام التي يعلنها القاضي»[1].

وعليه فإن كلمة "الظهار" ترتب عليها حكم التحريم، فكان بالفعل هدف الخطاب القرآني هو تحويل الواقع وإعادة بنائه من جديد بناء نظيفا سليما خاليا من الشوائب والمؤثرات الماضية .

---

[1] – حسن بدوح، المحاورة، مقاربة تداولية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2012، ص156.

تنبيه : لقد كان تأخر حكم الحجاب لحكمة تشريعية، فعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع، إلا أن تأخره كان مقصودا مع مدى مناسبته لمقتضيات الأحوال والأجواء التي كانت تعيشها العرب آنذاك . ثم إن نزول آياته في مثل هذه السورة يناسب مرحلة المسلمين القتالية والعسكرية والاجتماعية، ذلك أن الدولة بعد معركة الأحزاب شهدت استقرارا ملموسا في جميع الأصعدة والمجالات، فكان من المنطقي إذن أن تكون استجابة هؤلاء سريعة ومباشرة لمثل هذا التلقي لخطاب النساء بالحجاب ذلك أن هذا الحكم سيكون مناسبا ومنسجما مع مدى استعدادهن النفسي والذهني والجسدي.

الفصل الثالث:
آليات التواصل في خطاب الوعظ لسورة غافر ونوح
ـ أغراضها تداولية ـ

المبحث الأول-آليات التواصل في خطاب غافر

أ)-الآلية اللغوية

ب)-الآلية الغير لغوية

جـ)-آليات السياق (الداخلية والخارجية)

المبحث الثاني : أغراضها التداولية

المبحث الثالث :آليات التواصل في خطاب نوح

أ)-الآلية اللغوية

ب)-الآلية الغير لغوية

جـ)-آليات السياق (الداخلية والخارجية)

المبحث الرابع: أغراضها التداولية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1)-المواضيع الرئيسية في السورة :

«تعالج السورة قضية الحق والباطل، الإيمان والكفر، الدعوة والتكذيب، وأخيرا قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق ...ولعل جوها كله هو جو المعركة بين الحق والباطل بين الإيمان والطغيان، وبين المتكبرين والمتجبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل »[1] ونظرا للسمات العامة لها، والتي تتميز بالشدة والعنف ارتأينا تقسيمها تقسيما آخر يتفرع إلى فروع جزئية، لكنه مرتبط أكثر بالجو العام لها : جو الحديث عن الدعوة ة وهو نوعان :

1)-الدعوة العامة بأشكالها.

2)-الدعوة الخاصة بالأنبياء (نموذج موسى عليه السلام)

ولأنها تصور الصراع القائم بين الكفر والإيمان، فإنها تصور كذلك ما آلت إليه الأمم الغابرة حين أعرضت عن الدعوة :

1-الدعوة العامة :

نها دعوة الملائكة لأهل الإيمان بالفلاح في الدنيا والآخرة، ولأهل الكفر بالهلاك يوم القيامة وسياق الآيات يبين ذلك بالتفصيل إذ من خلال ارتقائها« بهذا الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين، ودخول الجنة نعيم وفوز يضاف إليه صحبة من صلح من الآباء والأزواج والذريات .... والذي يعد مظهرا من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين».[2] ثم إن سؤالهم مغفرة الله تعالى لعباده المؤمنين في قوله : ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ﴾ «يناسب سياق الآيات الأولى التي ابتدأت بها السورة من قوله تعالى : ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، كما أنه ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾، فكونه غافر الذنب للمسيء، وقابل التوب لمن يريد أن يتوب إلا أنه في المقابل شديد

---

[1] _ سيد قطب، في ظلال القرآن، م 5، المرجع السابق، ص 3065.

[2] _ أنور الباز، المرجع السابق، ج3، ص176.

العقاب لمن لا يفقه هذه الأبواب ويستفيد منها فالله تعالى هو صاحب الصفات والأحوال والمصير إليه وحده كما أن مقاليد الأمور إليه دون غيره، فاطلبه يا أيها الإنسان وحده»[1].

يا له من أدب راق من دعاء الملائكة ربها، إنها تعلم الإنسان "كيف يكون أدب "الدعاء" و"السؤال"بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾الآية 7 فيقدمون بين يدي هذا الدعاء بأنهم في طلب الرحمة للناس، إنما يستمدون من رحمة الله التي وسعت كل شيء ...» [2].

ومن دعوة الملائكة إلى دعوة الرسل خاصة منهم –نوح–عليه السلام وقومه والأحزاب من بعدهم، إذ لما كذبوا كان مصيرهم العذاب الشديد في الدنيا، والعذاب الأشد في الآخرة، ففي قوله تعالى :﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ « الآية 5 فذكره لـ«من بعدهم" تشير إلى أن قوم نوح كانوا حزبا أيضا، وكانوا يدينون بعبادة الأصنام يغوث"و "يعوق"و "نسر" و"ود" و"سواع"، وكذلك كانت كل أمة من الأمم التي كذبت الرسل حزبا متفقين في الدين، "فعاد" حزب "وثمود" حزب وأصحاب "الأيكة"حزب وقوم "فرعون" حزب والمعنى : أنهم جميعا اشتركوا في تكذيب الرسل وإن تحالف بعض الأمم مع بعضها في الأديان، وفي الجمع بين "قبلهم"و"من بعدهم"محسن الطباق في الكلام»[3].فالنتيجة المذكورة بالسؤال: "فكيف كان عقاب" ما هو إلا استفهام مستعمل في التعجيب من حالة "العقاب"، ليقتضي أن المخاطب بالاستفهام، قد شاهد ذلك "الأخذ" وهذا "العقاب" ...بمرور الكثير على ديارهم في الأسفار ...وفي سماع الأخبار عن نزول العقاب بهم وتوصيفهم، نزل جميع المخاطبين منزلة من شاهد نزول العذاب ...وقديجوز أن يكون قوله ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ إلى قوله ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ التعريض بتهديد المشركين من قريش بتنبيههم على ما حل بالأمم قبلهم لأنهم أمثالهم في الإشراك والتكذيب ولذلك يكون الاستفهام عما حل بنظرائهم تقريريا لهم بذلك [4].

وفي معنى "الأخذ" الذي هو "الإهلاك"، معنى متداول من طرف العرب قديما إذ كانت تسمي الأسير:الأخيذة لأنه مأسور للقتل، كما أن في الآيات معنى "الوعيد" والتهديد وهي كثيرة

---

[1] _ محمد بركات أبو علي، المرجع السابق، ص84.

[2] _ سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، ص3071.

[3] _ الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ج24، ص85.

[4] _فاضل صالح السامرائ، معاني النحو، المرجع السابق، ج، ص87.

كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ الآية 6 وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ الآية 21.

هذا وقد وصفت الآيات وسائل العقاب وأدواته، بعد ذكرها لمشاهد العذاب في اليوم الآخر، وذلك انطلاقا من السؤال الرئيسي الذي قدمته الآية قبل قليل وهو :"فكيف كان عقاب ؟"كما ذكرت الآيات الحالات التي يكون عليها الكفار قبل وأثناء وبعد العذاب، وهي كالآتي :

-قوله تعالى :﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ ﴾ الآية 18

-وقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ الآية 60.

-وقوله :﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ الآية 71.

وقوله :﴿ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ الآية 72.

ولعلها الحالات نفسها التي ذكرتها آيتين في موضع آخر وهما :

-قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية 10

وقوله :﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ ﴾ الآية 18.

الحالة الأولى :

وهي مقتهم أنفسهم :«يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يا نفس، فتقول لهم الملائكة وهم في النار ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم في الدنيا وقد بعثت إليكم الرسل فلم تؤمنوا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم، فقال الحسن :يعطون كتابهم إذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾، لكن كيف يصح أن يمقتوا أنفسهم؟ففيه وجهان:

أحدهما :أنهم أحلوها بالذنوب محل الممقوت، والثانية :أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم

الهوى وعلموا أن نفوسهم هي التي أوبقتهم بالمعاصي فمقتوها»[1].« وكأن هذا التوبيخ الذي أجراه الخطاب القرآني على ألسنة الكافرين، ما يريد به سوى الأقوال التي سيتحاورون بها يوم القيامة ...معبرين عن ندمهم، ويحاورهم رب العزة بأقوال توبخهم وتقرعهم أو تحاورهم الملائكة أو أهل الجنة »[2].

الحالة الثانية :

تصوير بليغ لمشاهدة تكون شديدة على الناس إذ «آثر الأسلوب القرآني أن يأتي بلفظ : ﴿كَٰظِمِينَ﴾ منصوبا على الحال، على الرغم من إمكانية رفعه على الخبر وهو ما أجازه الفراء والتقدير عنده "إذاهم كاظمين "وذلك لأن المقام الذي سيقت فيه الآية مقام تهويل لما يحدث يوم القيامة من أحداث جسيمة شديدة، عظيمة ومخيفة تصعد لهولها القلوب إلى الحناجر، حتى إن ابن عطية :يقول في هذا المعنى :أنها قد صعدت من شدة الهول والجزع ولعله الأمر الذي يحتمل أن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم، وتبقى حياتهم بخلاف الدنيا »[3] كما أنها«الحالة الثابتة التي لا تتغير طالما كان هذا اليوم قائما، فالأنسب الإخبار عن تلك القلوب بالكون العام الذي تعلق به الظرف، للدلالة على الاستمرار ...ثم إن الكاظم كما ذكر ابن عطية هو الذي يرد غيظه وجزعه في صدره.وعليه فإن معنى الآية، أنهم يطمعون برد ما يجدونه في الحناجر، والحال تغالبهم ...وهذه الحال التي يكون عليها الناس من إرادة الكظم تختلف من إنسان إلى آخر بحسب جزعه وفزعه من شدة هذا اليوم، فليس كل إنسان يلقى ما يلقاه غيره، إذ كل واحد يرى من الشدة والجزع بحسب ما عمل »[4]كما ذكر ذلك عزوجل بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾الآية 17 . وعليه فإنه وبعد تصوير مشاهد العذاب والحالة النفسية التي يكون عليها الكفار والمنافقون، ينتقل التعبير القرآني في تفصيل قيام الساعة وأهوالها، فهو يؤكد بأنها حقيقة غيبية مصيرية سيشهدها الإنسان لا محالة، فلا مناص من الرجوع إلى الإيمان والتوحيد، وترك الشرك والكفر، وإلا فإن الذين يتصفون بصفة التكبر عن عبادة الله

---

(1) _ القرطبي، المرجع السابق، ج15، ص296-297.

(2) _ كريم حسين ناصح الخالدي، المرجع السابق، ص113.

(3) _ مصطفى شعبان عبد الحميد، المرجع السابق، ص 228.

(4) _ المرجع نفسه، ص229.

تعالى، سيدخلون جهنم، كيف؟

داخـــــــــــــــريـــــــــن .

فانظر ما للكلمة من وقع في النفوس تهز أسماع القارئ لها، إذ لا منجى لهم من هذا الهلاك الذي سيصلهم، فهم في جهنم داخرين «ومعناها "سيدخلونها" أذلة، فدخر كمنع وفرح، صغر وذل»[1].

ثم إن جمال التعبير يظهر في مقدمة الآية فيما يسمى بـ«"براعة الاستهلال"إذ يذكر المتكلم في أول حديثه ما يستطيع الفطن أن يدركه مما سيجيء بعد فقوله : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾الآية 60، له صلة بقوله: ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ لأنك ستفهم منها فحوى الخبر الذي لم يأت بعد ذلك وهو أن جزاء المستكبر الهوان والصغار فجاء الخبر دالا على هذا بقوله ﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ الآية 60»[2]

هذا وقد صور كيفية العذاب في النار في آيات كثيرة منها قوله :«إذ الأغلال في أعناقهم »الآية 71 وقوله : ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾الآية 72، وقوله﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ الآية 73، وقوله : ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗا﴾« من الآية 74. وهي آيات «تصور ما يقوم به المعذبون في الآخرة من أعمال شاقة ترهقهم وتنهك قواهم، فهم حين يدخلون النار تربط أياديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل ويسحبون بها إلى الماء الحار المسخن بنار جهنم ويسحبهم الزبانية على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم وهاهم يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال وخوضهم في النار خوض الإبل في الوحل والصعود والهبوط في تلالها ودركاتها»[3].

وخلاصة القول فإن ما يلاحظ على الخطاب القرآني أنه «دائما يعمد إلى لمس البداهة، موقظا الإحساس الذي سينفذ منها مباشرة على البصيرة ويتخطاهما إلى الوجدان، وقد كانت مادته في

---

[1] _ الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص 183.

[2] _ فهد خليل زايد، الإعجاز القرآني في علم المعاني، دار يافا العلمية، الأردن، ط1(2007)، ص131-131.

[3] _ عيد سعيد يونس، المرجع السابق، ص185.

المشاهد المحسوسة والحوادث المنظورة أو المشاهد المشخصة والمصائر المصورة، كما كانت مادته هي الحقائق البديهية الخالدة، التي تنفتح لها البصيرة المستنيرة وتدركها الفطرة المستقيمة»[1].

2)-الدعوة الخاصة بالأنبياء (نموذج موسى عليه السلام):

تنقسم الآيات التي وردت فيها قصة موسى عليه السلام مع خصمه "فرعون" و"قومه" إلى أربعة أقسام هي :

1-من الآية "23"إلى "25"، تتضمن قضية إرسال موسى (ع)إلى فرعون وملئه .

2-من الآية "26"إلى"29" حوارات دارت بين ثلاثة أطراف هي:فرعون، موسى، والرجل المؤمن : فالآية "26" فيها قول مفصل لما جاء به فرعون، والآية "27" قول موسى عليه السلام، أما الآية "28" إلى "29" ففيها قول مؤمن آل فرعون .

3 -من الآية "30 "إلى "45" :مابين أقوال رجل مؤمن آل فرعون وقول فرعون

4-من الآية "46"إلى"50" وصف النار والعذاب الملحق بفرعون وآله .

1)-من الآية "23"إلى "25":

في مطلع الآيات التي ابتدأت بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ تبين الرفض المباشر لهذه الرسالة التي بعثت إلى فئة سادت أقوامها فكانت المسيطرة والمهيمنة عليها، وهي فئة "فرعون"و"هامان"و"قارون" في قوله تعالى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ 24 إلى قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ 25 ففيها عرض لمواقف عديدة ابتداء من «موقف اللقاء الأول :موسى ومعه آيات الله، ومعه الهيبة المستمدة من الحق الذي بيده، إلى فرعون وهامان وقارون ومعهم باطلهم الزائف وقوتهم الظاهرة ومركزهم الذين يخافون عليه من مواجهة الحق ذي السلطان ... عندما لجأووا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق »[2] فكانت النتيجة أن قالوا: "ساحر كذاب".

---

[1] _ سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط1993 م، ص229.

[2] _ محمود البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، دار البلاغة، بيروت، ط1(1989)، ص605.

وهذا ليس بغريب عن هؤلاء المتكبرين، كما ليس من السهل عليهم أن تطمئن قلوبهم لمثل ما جاء به من الحق ..سوى أن **الاسال** هو الخطوة العملية الوحيدة التي تتحقق بها عملية **التواصل** والتي قد تخرج هؤلا من عبادة الأوثان إلى عبادة الله تعالى . « فالقصة –هنا– عبرت سلسلة الزمن، واقتطعت شريحة من أحداث المستقبل، ثم عادت إلى الحاضر من جديد لتواصل حركة الأحداث وفق تسلسلها ..فكانت ردود الفعل التي تركتها دعوة موسى عليه السلام إلى القوم ممثلة في قولهم ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ﴾ الآية 25 ..على نحو ما يفعله طغاة العصر الحديث، لكن القصة عقبت على ذلك بقولها :﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾ »[1] لتكشف في النهاية عن الهزيمة الأكيدة لهؤلاء الطغاة في الدنيا والآخرة.

2–من الآية "26"إلى "29":

إن فرعون هنا يزعم أن لديه أسبابا تبرر قتله لموسى عليه السلام، منها أن «وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا، أما الأولى فباعتقادهم أن دينهم هو الدين الصحيح ...والثاني أنه لابد وأن يجتمع عليه قوم ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات وإثارة الفتن، ثم إن حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم فبدا بقوله ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ ﴾واتبعه بذكر فساد الدنيا، فقال : ﴿ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾[2]»

لكن الحقيقة التي لا تخفى على أحد من أن موسى عليه السلام ما بعثه الله إليهم إلا ليهديهم إلى سواء السبيل، فكيف به وهو الرجل الصالح أن يتحول إلى أكابر المفسدين في الأرض، من باب المبالغة في التعبير.وكل هذا ينم عن مدى الحقد والشر الدفين الذي يكنه "فرعون" لهذا النبي الكريم، وهو الذي عاش في قصره المنيف سنوات وما أراد قتله إلا «حفاظا على عرشه الذي حاول أن يمده بأسباب القوة لخداع المغفلين وإيذاء الواعين وذلك من خلال لجوئه إلى الإعلام المضلل»[3].

وفي كلمة "ذروني" «رأي فرعون الذي كان يجد ممانعة ومعارضة كأن يقال مثلا إن قتل موسى لا ينهي الإشكال، فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيدا والحماسة الشعورية له وللدين

---

[1] _ المرجع نفسه، ص 205.

[2] _ سعيد عبد العظيم، قصة مؤمن آل فرعون، دار الإيمان، السكندرية، ط2005، ص15-16.

[3] _ محمود البستاني، المرجع السابق، ص 607.

الذي جاء به ...هذا وقد يكون بعض مستشاري الملك أحس في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له ويبطش ...ويكون قول فرعون "وليدع ربه" ردا على هذا التلويح، وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون، كانت تبجحا واستهتارا لقي جزاءه في نهاية المطاف»[1].

ولعل قوله :"ذروني أقتل" يدل على الفردية، فلماذا لم يقل :"ذرونا نقتل" إذ إنه لو كان يلتزم بحكم الجماعة لقالها، وكأنه يريد أن يبقى الوحيد في ملكه، يحكم الناس كما يشاء فكان هذا القرار الذي يتفرد به وحده، لأنه الحاكم الذي يقرر وينفذ في نفس الوقت . وبطريقته الذكية يستميل أسماع تابعيه ويلفت انتباههم إلى أن هذا "القتل" هو في مصلحتهم فإنه يخاف «أن يغير ما هم عليه وأن يظهر موسى في الأرض التقاتل والتهايج والفوضى حتى يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش، ويهلك الناس قتلا وضياعا ...ويخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل :صار "فرعون" واعظا يشفق على الناس من موسى عليه السلام »[2] ثم إن الآيات تنتقل لقوله، بأنه قد استعاذ بالله من الشيطان ووساوسه، من كل من يتكبر ولا يؤمن باليوم الآخر، « لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة وليكون على طريقة التعريض، فيكون أبلغ، وأراد بالتكبر والاستكبار على الإذعان للحق وهو أقبح استكبارا وأدل على دناءة صاحبه وعلى فرط ظلمه، ليكون معنى قوله : ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أنه إذا اجتمع في الرجل التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلا وقد ارتكبها»[3].

«وهنا انتدب رجل من آل فرعون، وقع الحق في قلبه، لكنه كتم إيمانه، انتدب يدافع عن موسى ويحتال لدفع القوم عنه، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه، مسالك شتى، ويتدسس إلى قلوبهم بالنصيحة ويثير حساسيتها بالتخويف والإقناع»[4].

وقد جاء في كتب "التفسير" أنه كان قبطيا وهو ابن عم لفرعون، آمن بموسى سرا وقيل أنه لم يؤمن من آله سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، ثم إنه كان من «جملة الملأ –الأشراف والسادة– ولعله

---

[1] _ سيد قطب، في ظلال القرآن، م 5، المرجع السابق، ص3078.

[2] _ ابن كثير، مج4، المرجع السابق، ص 1637.

[3] _ تفسير النسفي، المرجع السابق، ج4، ص76.

[4] _ سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، ص3078-3079.

من عجائب التدبير أن تصل الدعوة إلى أمثاله ولربما لو آمن رجل منهم لأسلم بإسلامه خلق كثير، فكيف يبخل الإنسان على نفسه بمثل هذا الأجر»[1].

فما هي الحجة التي قدمها هذا الرجل لإقناع الخصم والدفاع عن المرسل إليه، إنه لمن العجب في هذه الرسالة الخالدة، أن حفظها الله تعالى في كل زمان ومكان وذلك لاختياره الحكيم لأشخاص هم أهل للدفاع عنها، ونشرها للآخرين، ولعل بداية الصراع في هذه القصة تبدأ مع أول رفض وصدود للمتكبرين على التزامهم بأوامر الله تعالى ومع بداية « إحساس فرعون بضعفه أمام حجة موسى (ع) إذ لما أحس بذلك لجأ إلى منطق القوم، وعزم على قتله، وعندئذ تدخل مؤمن آل فرعون ليدافع عن موسى باستعمال الحجة العظمى فقال : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ الآية 28 ...وتلك هي الحجة العظمى، وهي تسمى عند المنطقيين "قياس الإحراج" وصورته إما أن يكون كاذبا، وإما أن يكون صادقا فيما ينذركم به : –فإن يك كاذبا فعليه كذبه ولا يضركم كذبه "فلا ينبغي قتله"–وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم "فلا ينبغي قتله»[2].

« ..وقد ذكر اختصاصه بضر الكذب أولا دليلا على ضده، وهو اختصاصه بنفع الصدق ثانيا، وإصابتهم ثانيا دليلا على إصابته أولا وسره أنه ذكر الضار في الموضعين لأنه أنفع في الوعظ ومن شأن النفس الإسراع في الهرب منه »[3].

فيا له من أسلوب أخاذ مقنع لطيف، يجلب القوي والضعيف الطيب والقاسي الكبير والصغير، ثم هو لا يكتفي بالدفاع عن موسى عليه السلام بل يعود فيذكر قومه بأن لهم الملك في الأرض فمن يضمن بأس الله إذا جاء، وبما أنه افتتح الآية 29 بقوله : ﴿يَٰقَوْمِ﴾ فإنها الكلمة التي تكررت عبر العصور مع أنبياء سابقين كنوح وهود وشعيب عليهم السلام، وهي الآن تتداول من طرف رجل صالح يكتم إيمانه منذ زمن ..وفي الملفوظ لمحة تداولية تعني قرب الوصل بين المرسل والمرسل إليه، فقوله : ﴿يَٰقَوْمِ﴾ دليل على أنه قبطي، ولذلك أضافهم إلى نفسه ليكون أقرب إلى قبول وعظه

---

[1] _ المقال السابق لآمنة بلعلى

[2] _ محمود يعقوبي، المنطق المنطقي في القرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2000، ص 54-55.

[3] _ البقاعي، المرجع السابق، ص 508.

ونصحه لهم، مع استعطافهم وجعلهم أدعى للإستماع له والإنصات لما يقوله . « ثم إن ابتداء الموعظة بقوله : ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ما هو إلا تخويف لفرعون من زوال ملكه، مع أنه جعل الملك لقومه لتجنب مواجهته بغرض زوال ملكه »[1].

3)- من الآية "30" إلى الآية "45":

التفات آخر إلى هذا الذي آمن من آل فرعون، وهو التفات لقوله ﴿يَٰقَوْمِ﴾ مرة ثانية، إذ أنه «أكد لما رأى عندهم من إنكار أمره وخاف منهم من اتهامه، فقال:﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ الآية 30 أي من المكابرة في أمر موسى عليه السلام» [2].

ثم تلتفت الآيات لقول فرعون لأتباعه أن يغير وسيلته مع هذا النبي، لأنه أفحمه بحجته القوية وحجة مدافعه على هذا الحق وهو"مؤمن آل فرعون" فما كان منه سوى أن «يخاطب وزيره من أجل أن يبني له صرحا ليطلع إلى إله موسى(ع) ..وهو بذلك يغطي بهذا الطلب دون أن يعترف بأنه كان مخطئا في تفكيره وفي قتل موسى (ع) ودون أن يعلن انصرافه عن هذا القتل ..» [3] فكانت الآيات مناسبة لهذا الهراء والعبث، بقوله : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ الآية 36 ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ الآية 37 ولعل «بلوغ السموات أمر عظيم عجيب، لأن أحدا لا يستطيعه فكان من المناسب معه إبهام لفظ "الأسباب" ثم إيضاحه بالبدل بما في ذلك من إيحاء تفخيم هذا الأمر والتعجب منه »[4] «كما أنه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوقة إليه ليعطيه السامع حقه على التعجب، فأبهمه ليشوق إليه نفس هامان ثم أوضحه »[5].

ثم إن في الآيات تحدي للكفرة، باستئناف الأقوال الوعظية التي كان قد بدأها الرجل المؤمن، إذ يخبرهم بالحساب والجزاء ومصير الذي يتكبر، وهي دعوة للنجاة أقرتها الآية على لسانه بقوله تعالى

---

(1) _ الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص 132.

(2) _ البقاعي، المرجع السابق، ص510.

(3) _ أنورالباز، المرجع السابق، ص 182.

(4) _ مصطفى شعبان عبد الحميد، المرجع السابق، ص232.

(5) _ الزمخشري، المرجع السابق، ج 4، ص167.

: ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ الآية 41 بخلاف دعوتهم –هم– إلى النار، وذلك في قوله: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وما هذه الدعوة إلا لأنهم قد تمسكوا بالدنيا ونعيمها الزائف، رغم أن حقيقتها أنها متاع –حقا– لكن متاعها زائل لا يدوم، وهذا بقوله : ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ الآية 39، إنه بهذا الوعظ « يحرك الهمم إلى الإعراض عن دار الأنكاد والأمراض والإقبال على دار الجلال والجمال، بخدمة ذي العز والكمال »[1] وهذه هي النجاة الحقيقية التي يدعوهم إليها، فكانت النتيجة أن وقاه الله وحفظه من مكرهم وخداهم، في قوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ الآية 45 وفي المقابل : ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ الآية 45 .

4)–من الآية "46" إلى "50":

تتحدث عن مصير فرعون وآله، وهو مصير يتلقاه كل من اتبعه من قريب أو بعيد مصير يتكرر عبر التاريخ والزمن، لأنها سنة الله في خلقه «فهاهم قد دخلوا النار واستقروا في مهادها إلى ما لانهاية »[2] ... رغم تذكير الرجل المؤمن بهذا المآل المخزي، «لكنهم هنا لا يملكون أي خيار، بعد أن كانوا يملكونه في الحياة الدنيا ..إلا خيارا واحدا وهو جهنم، ولا يملكون شيئا غير أن يتلاوموا ..يعاتب بعضهم بعضا» [3].

وأخيرا وبعد الاطلاع على أهم المواضيع التي تتسم بها سورة "غافر" إلا أن أهم محور فيها هو التذكير بالوعد والوعيد، التي كانت كثيرة في هذا الخطاب منها : ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ الآية 20 تليها الآية التي بعدها : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ الآية 22، والملاحظ هنا أن « صور بسط الموعظة وتثبيت الحجة جاءت بطريقة تفيد تقرير الحقائق، وقد تنوع الوعيد فيها تنوعا عجيبا حسب اختلاف طبيعة النفوس واختلاف البيئات، فالعامة من الناس الذين

---

[1] _ البقاعي، المرجع السابق، ص571.

[2] _ محمود البستاني، المرجع السابق، ص 630.

[3] _ المرجع السابق، ص630.

يكتفون من الحياة بظاهر ها وسطحها يغلب على وعيدهم التخويف بالعقاب الجسدي، كعذاب جهنم ولهيبها، أما الخاصة كالسادة وذوي الزعامة فإن وعيدهم يتميز بطابع الإذلال والإهانة »[1] منها قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾الآية 46 وقوله: ﴿ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ ﴾الآية 47 وقوله : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ ﴾« الآية 48 وقوله﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ ﴾الآية 49 وقوله : ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ ﴾الآية 50 وأخيرا قوله : ﴿ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾الآية «فالوعيد في أسلوب القرآن إذن يهدف إلى الإصلاح وإيقاظ العقول وله مقاصد تتمثل في التأثير على أفكار المتلقي وأفعاله وجعله يخضع لأوامر الله ونواهيه »[2].ولعل أفعال الوعد والوعيد، هي التي تحدث في أسلوبها ما يسمى بعلاقة التضاد، كما جاء عند السيوطي قوله :«ومما علاقته "التضاد" ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة وقد جرت عادة القرآن العظيم أنه إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا لتكون باعثا على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه ليعلم عظم هذا الآمر والناهي »[3] منها قوله تعالى : ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾7 الآية 41 وقوله أيضا ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾الآية 42.

المبحث الأول: –آليات التواصل في خطاب السورة :

1)– الآليات اللغوية :

يعد النداء من الأفعال الكلامية الأكثر تداولا واستعمالا في خطاب القرآن، لا لشيء إلا

---

(1) _ انظر : عبد الحليم حفني، أسلوب الوعيد، ص 8.

(2) _ منشورات تحليل الخطاب، المقال السابق، ص17

(3) _ جمال حضري، المرجع السابق، ص 248.

لأنه مرتبط أكثر بآليتي الأمر والنهي، ولعل من أهم خصوصياته هنا أنه «نداء شامل واسع باعتباره ليس مرسلا لفئة دون فئة، ولا خاصا بزمن دون زمن فهو نداء ينزل فيه البعيد قريبا، والغائب الممكن حاضرا إضافة إلى ما يحمل من زجر وملامة للمخاطبين الغافلين أو الساهين أو المرتابين في قوة الله عزوجل وقدرته »[1] فيكون استعماله طلبا في استمالة المخاطب إلى المتكلم قصد تغيير معتقداته وتوجهاته كما جاء في حوار الرجل المؤمن مع قومه .

والملاحظ هنا أن أول نداء جاء محذوف الياء، حين ذكر الله تعالى الناس بلحظة يصير كلهم بين يديه سبحانه، وذلك في قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾الآية 16 «فيتجسد في هذا الاستفهام صورة الكون كله، حين رجع في ومضة خاطفة إلى من أنشأه أول مرة، رجوع الخاضع الذليل فيأتي الجواب، »لله الواحد القهار« ليتم جلال معناه وللموقف جلال لحظته »[2]. ثم يليه نداء الرجل المؤمن لقومه مباشرة بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ «ليشعرهم أنهم جماعته وذووه وأقرباؤه، وأنه ليس غريبا عنهم »[3] وهو في أثناء خطابه لهم، كان ذكيا في استدراجهم خطوة خطوة، وذلك أن الموقف يستدعي هذا .

ثم إن هناك خطابين متقابلين متضادين، وهما يتصارعان:صراع الحق والباطل فكان من اللازم انتهاج مثل هذه الطريقة حيث « ابتدأ هو موعظته بندائهم، ليلفت إليه أذهانهم ويستصغي أسماعهم ...وقد رتب خطبته على أسلوب تقديم الإجمال ثم تعقيبه بالتفصيل، فابتدأ بقوله «اتبعون أهدكم سبيل الرشاد» وسبيل الرشاد مجمل وهو على إجماله مما تتوق إليه النفوس، فربط حصوله بإتباعهم إياه مما يقبل بهم على تلقي ما يفسر هذا السبيل، ويسترعي أسماعهم إلى ما يقوله »[4].

و هنا قد «أعاد النداء تأكيدا لإقبالهم ..فأكمل مقدمته بتفصيل ما أجمله يذكرهم بأن الحياة الدنيا محدودة بأجل غير طويل وأن وراءها حياة أبدية ..وفيها الجزاء على الحسنات والسيئات بالنعيم أو العذاب [5].

---

[1] _ عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل، المرجع السابق، ص 154.

[2] _ محمد عبد الواحد حجازي، المرجع السابق، ص180.

[3] _ محمد رجب بيومي، المرجع السابق، ص 41.

[4] _ الطاهر بن عاشور، ج24، المرجع السابق، ص148-149.

[5] _ المرجع السابق، ص149.

وفي استخدم التعبير القرآني لأسلوب الحذف قوله: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ الآية 28 إذ«محل الشاهد في اللغة :لام التعليل التي كانت محذوفة لخروج معنى الآية مخرجا آخر..فظهورها وحدها يختلف عنه إذا ذكرت معها "أن" أحيانا , نحو قولنا :ما قتل إلا لأن يقول ربي الله، وما قتل إلا ليقول ربي الله، فالأولى تفيد أنه كان يقولها ...ولو قال :أتقتلون رجلا ليقول ربي الله لكان المعنى بعكس ذلك، ولصار:أتقتلونه حتى يقولها ؟»[1].

ثم إن هناك منحى آخر في توجيه الأنظار للسؤال المطروح على هؤلاء القوم «فهو يدل على نوع خاص من توجه الخطاب نحو المتلقي والمتعلق بإقناعه والتأثير فيه ثم استمالته بلطف على الرغم من الحجة الواضحة ..» [2] ولعل استخدامه للاستفهام بحرف الهمزة وتركه السؤال دون جواب، مضمن فيه، وما على المتلقي سوى إخراجه، كما قد يقود هذا التساؤل إلى التوبيخ من نية القوم في قتل الرجل لمجرد قوله ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾[3].

وعليه فقد كانت مركزية القرآن هنا هو اهتمامه المتزايد بالمتلقي لتحصيل المعنى حتى ولو كان النص يعتريه حذف، وذلك من باب المبالغة في التعبير، ولفت الانتباه للقول الموجه .

ولا يخرج التقديم والتأخير عن العناية والاهتمام بالألفاظ بحسب المقام الذي تكون فيه، إذ إنهم قالوا إن الله تعالى إذا ذكر الرحمة مثلا في الآية يعقبها بالعذاب، وهو حين يذكر الرحمة والعذاب يبدأ دائما بالرحمة ,لأنها الأسبق من غضبه علينا .وفي الآيات الأولى تفصيل أكثر لهذا المعنى من خلال قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ الآية 3 «فتقديم "غافر" على "قابل التوب" تعريض بالترغيب، وصفتا "شديد العقاب"، "ذي الطول" تعريض بالترهيب ..وإنما عطفت صفة و"قابل التوب" على صفة "غافر الذنب" ولم تفصل كما فصلت صفتا "العليم"، "غافر الذنب" وصفة "شديد العقاب" إشارة إلى نكتة جليلة وهي إفادة أن يجمع للمذنب التائب بين رحمتين :بين أن تقبل توبته فيجعلها له طاعة، وبين أن يمحو عنه بها

---

[1] _ فاضل السامرائ، معاني النحو، ج3، المرجع السابق، ص343.

[2] _ محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المرجع السابق، ص 17.

[3] _ المرجع نفسه، ص17.

الذنوب التي تاب منها وندم على فعلها، فيصبح كأنه لم يفعلها وهذا من رحمة الله تعالى »[1].

ثم إن فوائد التقديم والتأخير، أنه كان سببا في وجود متضادين فيختلف المعنى باختلاف سببيهما، إذ هناك من نظر إلى معنى "الرجل المؤمن" أنه من"آل فرعون" أي من نسبه، وهناك من قال :أنه يكتم إيمانه من آل فرعون لكن"الغرض هنا هو بيان أنه منهم، لأن ذلك يفيد عناية الله بموسى ورعايته له إذ جعل "من آل فرعون من يدافع عنه ..فقوله :«من آل فرعون" متعلق بـ"مؤمن" وهو صفة الرجل أما تعلقه بـ"يكتم" وقد تقدم عليه فغير جائز، لأنه لا يقال :"كتمت"من فلان كذا إنما يقال :كتمته كذا. وقوله: ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَآۚ ﴾الآية 29 دليل على أنه من قوم فرعون كان يتنصح لهم »[2] ثم «إن الخطاب القرآني قد أفاد على الجملة مما يطرأ عليها من تقديم ما حقه التأخير لبيان المعنيين، والدلالة عليهما نحو قوله تعالى: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ الآية 81 ذلك أن تقديم ما يثير الاهتمام يوبخ الكافرين لنكرانهم دعوة الحق، أو التغاضي عنها، مما يجعله أكثر التصاقا بالنفس وأقرب إلى تحريك المشاعر لأنه أولى بالاهتمام »[3].

ولعل السياقات التي يرد فيها التقديم والتأخير، ما ذكره البلاغيون في المسائل التي ارتبطت أكثر بالمتكلم والمتلقي منها «سياق التشويق أو سياق محاولة تعديل فكرة الآخر، كما يتمثل في تعجيل المسرة له أو تعجيل الإساءة»[4] وهكذا ..ثم إن هذا الأسلوب «يحقق أهدافا دلالية تتعلق بانسجام الخطاب في ذاته أو بالتنبيه على دلالة محددة، كان يمكن ألا يتنبه لها »[5] وفي الأخير فإن «أغلب دوافع التقديم والتأخير..ترجع إلى أسس نفسية قائمة على احتياجات المتلقي حينا، وعلى الحركة الداخلية للمبدع حينا آخر، وعلى مقتضيات السياق النصي حينا ثالثا، وإذ يعمد الخطاب القرآني إلى هذا الضرب من الانزياح، فإنما يستهدف التركيز على جملة المعاني الإضافية، من بينها المعاني النفسية لأناس حكى عنهم القرآن بأقوالهم وأعمالهم بأمانة وصدق»[6].

---

(1) _ الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص 80.

(2) _ عماد عبد يحيى، البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، دار دجلة، الأردن، ط1(2009)، ص18.

(3) _ كريم حسين ناصح الخالدي، المرجع السابق، ص 115.

(4) _ خلود العموش، المرجع السابق، ص 79.

(5) _ محمد عبد الباسط عيد، المرجع السابق، ص 176.

(6) _ صالح ملا عزيز، المرجع السابق، ص204-205.

وهو عندما حكى عن نية فرعون لقتل موسى (ع)، فقد استخدم الجملة المؤكدة بـ"إن" والتي هي «في الغالب تستعمل لتصحيح أمر سبق ذكره، كما أنها نظام عكسي تنازلي، خاصة في قوله تعالى على لسان هذا الطاغية : ﴿ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾الآية26 إذ تكون البنية الحجاجية كما يلي: النتيجة :قتل موسى، الرابط :إن، الحجة:الخوف من إبدال الدين، ويمكن رسمها كالآتي :

(ذروني أقتل موسى) (إني) (أخاف أن يبدل دينكم) »[1]

النتيجة حرف التوكيد إن الحجة

«والواقع —فعلا– أن كثيرا من الآيات القرآنية المقترنة بـ"إن" تستند إلى وقائع خارجية، وظروف سياقية وقرائن عدة، تجعل المخاطب بحاجة إلى أن يؤكد الخبر له بها »[2] منها خبر"قيام الساعة" «حيث دخلت "إن" هنا على الجملة الإسمية لكي تفيد الاهتمام بعدم وجود تردد أو إنكار لهذا القيام، خاصة في معرض وعيد المشركين وتهديدهم، كما جاء في سورة"الروم"و"الفرقان"و"سبأ"، فقد جيء التأكيد بواسطة إن مع اللام ليجعل قيامها مقتضى لا جدال فيه ولا مراء مع تعدد السياقات التي فيها مثل هذا التأكيد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ الآية 59 »[3].

وفي الحديث عن مؤمن آل فرعون حديث عن التكرار الذي في كلمة "الدعوة" بمشتقاتها، وهي تناسب ورودها في هذا الموقف الذي يعتبر بحق موقف حجاج بالدرجة الأولى، يقول تعالى: ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾الآية41 ﴿ وَأَنَآ۠ أَدۡعُوكُمۡ ﴾42﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ ﴾ 43 الآيات ولعل الملاحظ هنا أن هناك تكرارا للأسئلة والاستفهام عليها ومن فوائده أنه «يستهدف إثارة الحوار والجدل وزعزعة القناعات السابقة بغية إعادة تشكيلها بما يعنيه من استجابة للخطاب وتبن لقضاياه، فمجمل الآليات التي ينطوي عليها الخطاب القرآني

---

(1) _ آمنة بلعلى، مقال:"الإقناع :المنهج الأمثل للتواصل والحوار نماذج من القرآن والحديث، مجلة التراث العربي، العدد 29، مارس 2003، اتحاد الكتاب، دمشق، ص8.

(2) _ خليفة بوجادي، المرجع السابق، ص178-179.

(3) _ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، المرجع السابق، ص300.(الروم 12-14-55) الفرقان(11)، (سبأ3).

حجاجية إقناعية وإن تنوعت صورها الأسلوبية »[1].ثم إن هناك حقيقة تداولية استعمالية، للسؤال وكيفية تقديره، عرضها القدماء أمثال السكاكي الذي وضع الأسس الهامة له، «فهو لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة :إما لتنبيه السامع على موقعه أو لإغنائه أن يسأل أو لئلا يسمع منه شيء أولئك ينقطع كلامك بكلامه أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ»[2].

ومن المعروف أن الاستفهام هو من الأنماط المتحولة عن النهي، إذ هو في معنى الآية السابقة "أتقتلون رجلا" أي لا تقتلون، بمجرد أن يقول ربي الله .

«وعلى هذا يصبح التكرار مجالا معرفيا لاستيعاب الأفكار وإعادة إنتاجها ومن ثم يصبح علامة عليها ..وهو بهذا يؤكد مبدأ التواصل المعرفي/اللغوي بين الخطابات عن طريق الاستيعاب والتمثل وإعادة الإنتاج "[3] إضافة إلى كونه ذو وظيفة نفسية، خاصة إذا سلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ليكشف عن اهتمام المتكلم بها ...ليدل عليها وعلى مخزونها من المشاعر والأحاسيس»[4].

هذا وقد كشفنا عن أبعاد التكرار على لسان الرجل المؤمن حين خاطب قومه إذ لم يبخل عن ندائه لهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ والتي تكررت عدة مرات في سياق الآيات من"29" إلى "41" وكلها «تشير إلى الموقف الشعوري والانفعالي لهذا الرجل وهو يحاول إقناع قومه بقبول نصيحته والنزول على رأيه والكف عن الإقدام على قتل موسى عليه السلام والتحذير من بأس الله يوم التناد، كما أنه يكرر هذا النداء المشعر بالتلطف والتحنان واحدا تلو الآخر ليستدرج مشاعر المخاطبين وليستميل قلوبهم وليكون ذلك عامل إيقاظ لهم من غفلتهم أو هو كالتمهيد النفسي لطرح ما يريده آمرا أو ناهيا وبهذا يشكل التكرار بؤرة تعبيرية يمكن من خلالها قراءة المشاعر الإيجابية التي تسيطر على أعصاب الرجل المؤمن وتلح عليه باستمرار»[5].

ولأن المحاور يجب أن يعتقد بما يقوله، ويؤمن به قبل غيره، فما من شك أنه قد آمن إيمانا

---

[1] _ جمال حضري، المرجع السابق، ص276-278.

[2] _ محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء ط2(2006)، ص115.

[3] _ عبدالفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، منشورات الاختلاف، ط 1(2010)، ص 97 .

[4] _ صالح ملا عزيز، المرجع السابق، ص 305-306.

[5] _ المرجع نفسه، ص307-308.

يقينيا بما جاء به موسى عليه السلام، وكان اعتقاده بذلك صحيحا لا يشوبه تحريف أو تزييف . وبذلك كلامه كله صادقا، وبهذا الصدق قد يصل إلى قلوب وعقول هؤلاء، فحين يقول لهم ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾الآية 38 ثم يتبعها بقوله : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾الآية 39 ما هو إلا زيادة في التنبيه « وحرصه عليهم، فيما يدعوهم إليه، لأنه أبدا لن يخدع قومه، ولن يدلهم على طريق غير طريق الرشاد »[1].

2)-الآليات غير اللغوية (الموضوعية):

تعرض للموضوع العام أو الفكرة العامة، قصد التواصل بين المرسل والمرسل إليه، بحيث لا يكون الهدف من هذا العرض سوى الوصول إلى إقناع الآخرين وبالتالي سيكون أسلوب اختيار المتكلم لملفوظاته لا تتعارض مع أفكار ومنطق المستمع، وهي هنا تقسم إلى قسمين :

1)-آلية ذكر العواقب .

2)-آلية التأدب في الكلام .

1)- آلية ذكر العواقب:

هي طريقة يعمد إليها المتكلم، خاصة إذا كان المستمع لا يوافقه في وجهة التفكير لكنه يريد أن يتواصل معه بأي أسلوب يجعل الآخر يقتنع بخطابه، وعليه فإن هذه الآلية «من الآليات المباشرة والصريحة التي يوجهها المرسل إلى المرسل إليه، وذلك وفق مجموعة من الأوامر و والنواهي تختتم بإظهار العاقبة في الأخير أو ما يسمى بالجزاء الذي ارتبط أساسا في القرآن الكريم بالوعد والوعيد ..» [2].ثم «إن السورة كلها، جاءت بهذا الخطاب في التذكير لعاقبة الأمم الغابرة، إذ ذكرت المجادلين في آيات الله من مشركي العرب بعبرة التاريخ قبلها، فيوجههم إلى السير في الأرض ورؤية مصارع الغابرين الذين وقفوا موقفهم فكانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض، لكنهم ...كانوا ضعافا

---

[1] _ محمد عبد الباسط عيد، المرجع السابق، ص 149-150.

ملاحظة : لم يقل أهدكم إلى سبيل الرشاد، لخطورة الموقف إذ يجب الإسراع إلى الهداية، ذلك أنه إذا استخدم "إلى" التي هي لانتهاء الغاية، قد يكون فيها نوع من البطء وعدم الإسراع .

[2] _ بوقرومة حكيمة، مقال: دلالة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، مقاربة تداولية، مجلة منشورات تحليل الخطاب، المرجع السابق، ص16.

أمام بأس الله ..»[1]. وذلك من باب قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ الآية 21، أما التكذيب بالرسل وبالبينات فنهايته إلى الدمار والنكال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ الآية 22.

ولعل ذكر العواقب من آيات الله العظمى في قدرته وقوته على من كان متجبرا في الأرض وعاقبته وعقوبته من سنن الله المتكررة عبر الزمن مهما بلغت به السلطة والنفوذ والعظمة وما يقابل ذكرا لعواقب في سورة "**غافر**" هو التذكير بآيات الله في كونه وما خلق السماء والأرض تحت شعار ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي دلائل قدرته وقوته وتوحيده، فهو الذي خلق الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهار والجبال والأشجار....وبعد ذلك يؤكد الله تعالى عن حقيقة المعاذ الذي سيتلقاه هذا المخلوق الضعيف على وجه الأرض وهو الإنسان فكما أن "ذكر العواقب"و"ذكر آيات الله" سنة كونية وحقيقة ربانية، فإن قضية المآل والبعث كذلك حقيقة أخرى، لا يجب أن نغفل عنها، وقد ذكرت في الآيات بنوع من الزجر والتقريع، ففي قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ الآية 15 أي يلتقي أهل السماء والأرض، أو كما قيل: يلتقي فيه الخلق والخالق، والعابدون والمعبودون أو حتى الظالم والمظلوم، أو حتى قيل يلتقي كل إنسان جزاء عمله، كما يلتقي الأولون والآخرون على صعيد واحد .

ثم انظر إلى عظمة الله وجلال قدره حين يسأل السؤال الأخير، يوم القيامة فيقول: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الآية 16 فقوله تعالى : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾: «يكون بين النفختين حين فنى كل الخلق وبقى الخالق، فلا يرى غير نفسه مالكا ولا مملوكا، وإذ لا يجيبه أحد، لأن الخلق أموات فيجيب نفسه بقوله : "لله الواحد القهار" لأنه بقى سبحانه وحده وقهر خلقه »[2] ولأن بيده

---

[1] _سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، ص3076-3077.

[2] _ القرطبي، المرجع السابق، ص300-301.

ملكوت السموات والأرض، يفعل ما يشاء، متى شاء، وكيفما شاء، فلا أحد ينصر الظالم من بأس الله تماما كما استفهم الذي يريد أن ينقذ قوم فرعون من ظلمه وجبروته بقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ الآية 29، فلا طاقة لكم به، ولا يمنعكم أحد .

ويبدو أن في خطاب الزجر والوعيد، تحسر كبير على هؤلاء إذ لم يعلنوا توبتهم ورجوعهم إلى الواحد القهار، فقد بالغت الأطراف المؤمنة في وعظها وإظهارها للنصيحة، وعرضها لنعم الله تعالى على عباده، فتباين أسلوبها هنا، من أمل إلى استعطاف إلى خذلان وتراجع من أمر كل كافر عنيد ومتكبر..والنتيجة النهائية أنه لا تقبل التوبة ولا المعذرة من هؤلاء الظالمين الذين سينادي بعضهم بعضا يوم القيامة بالويل والثبور فتصف الآية حالهم بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ الآية 52، وفي الآيات التي تليها «تذكير للمخاطب بأن إرادة الله فوق كل إرادة وأنه قادر على كل شيء وأنه تعالى مع المؤمنين، مذكرا لما سيؤول إليهم حالهم يوم القيامة هذا وقد عبر الخطاب القرآني عن هذا المعنى بأدوات مختلفة منها : تعبيره عن صيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ﴾ 77 »[1].

2)- آلية التأدب في الكلام :

هو أسلوب استمالة وجلب الآخر إلى المتحدث أن يلقي سمعه إليه، ليأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه «وقد استعمل هذا النوع في مجال بعث الرسل إلى أقوامهم ..حتى ترق قلوب المدعوين ويستجيبون لدعوتهم» [2] كما استعمل هذا الأسلوب «مراعاة لما تقتضيه بعض الأبعاد، منها البعد الشرعي الذي يملي على صاحبه ضرورة اطراح فاحش القول، والبعد الاجتماعي يستدعي ضرورة احترام أذواق الناس وأسماعهم، أما البعد الذاتي فهو صيانة الذات عن التلفظ بما يسيء»[3] كقوله تعالى : ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ﴾ الآية 18، فانظر إلى الأسلوب الراقي في الكلام إذ أنه « لم يسند إليه الكذب باشرة أدبا في الخطاب»[4]

---

[1] _ كريم حسين ناصح الخالدي، المرجع السابق، ص112.

[2] _ منشورات تحليل الخطاب، المرجع السابق، ص19-20.

[3] _ المرجع نفسه، ص20.

[4] _ محمود السيد حسن، روائع الإعجاز في القصص القرآني، ط2(2003)، ص366.

كما أنه بدأ «بالكذب لأنها القريبة إلى أذهانهم، وربما تكون الخصلة المنتشرة في مجتمع فرعون، وتمارس بصفة دائمة وعادية، وهذا لا ينفي أن أتباعه المستمعين كانوا كذلك صادقين في قوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾الآية 28 والملاحظ هنا أنه لم يقل "وإن يك صادقا فعليه صدقه " ذلك أن هناك "عدولا عما يريده المتكلم إلى غرض آخر تقتضيه طبيعة السامع، وهي مخالفة "مبدأ التعاون" الذي يفترضه جرايس حديثا ..إذ يضطر المشارك في الحديث الكلامي أن يخالف هذا المبدأ إيثارا لمبدأ التأدب ولعل من فوائده في الحديث واللطف فيه، أن يعرض الخطاب في أسلوب لا ينفر السامع، ولا يصف المتكلم بالاستعلاء والترفع»[1]مستخدما أسلوب الاستدراج في الكلام قصد الإقناع « مع تقريب المخاطب والاحتيال عليه بالإذعان إلى المقصود منه، ومساعدته له بالقول الرقيق والعبارة الرشيقة »[2] وفائدة ذلك « في الخطابة بألا يفاجأ السامعون بالتصريح بما تحمل الخطابة من عقائد، وإبعادا لهم عن التشكيك بما سيسمعون، فيستدرجون قليلا قليلا ببعض نتائج تلك البراهين، حتى إذا آنست الخطابة منهم رشدا ألقت بحملها بين أيديهم »[3]. فقاعدة التأدب هي من الدراسات التداولية، التي طبقت في خطاب "مؤمن آل فرعون" مع قومه، ولعلها القواعد نفسها التي فرضتها « لاكوف فأسمتها قواعد تهذيب الخطاب، وبها يتلفظ المرسل بخطابه وفقا لواحد منها أو أكثر وهي : **–قاعدة التعفف** : لا تفرض نفسك على المرسل إليه، أي لتبق متحفظا ولا تتطفل على شؤون الآخرين مثالها قوله تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ الآية 41 وقوله ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ الآية 42 . **–قاعدة التخيير**: وهي لتجعل المخاطب يتخذ قراراته بنفسه ودع خياراته مفتوحة ومثاله قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الآية 40. **–قاعدة التودد**:وهي لتظهر

---

[1] _ بوجادي، المرجع السابق، ص 181.

[2] _الشهيري، المرجع السابق، ص475.

[3] _ابتسام السيد عبد الكريم المدني، بنية النص القرآني، دراسات موازنة بين البنى العقائدية واللغوية والفنية دار النهضة العربية، ط1(2010)، ص320.

الود للمرسل إليه، أي كن صديقا مثاله :قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ الآية 30

وقوله﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ الآية 32 »[1].

فمجمل ما نجنيه من هذه القواعد من فوائد، أنها تقف في صف المخاطب وتساعده على رفع الحرج والغموض الذي قد يكون بينه وبين المخاطب « فمقتضى قاعدة التعفف –مثلا- أنها ستجنب الإلحاح أو إكراه المرسل إليه على فعل ما ويتحقق ذلك من خلال استعمال الخطاب الذي يبقى على البعد بين طرفي الخطاب بالإبعاد عن الطلب مباشرة وعدم التطفل على شؤون المرسل إليه الخاصة إلا بالاستئذان، ومع قاعدة التخيير التي قد تعمل أحيانا باتساق مع قاعدة التعفف وقد تحل محلها كذلك، فتعمل بمعزل عنها، وتقترح قاعدة التخيير التلفظ بأساليب دالة على تخيير المرسل إليه في اتخاذ ردة الفعل المناسبة، أو التلفظ بأساليب الشك عند المرسل بدلا من استعمال أساليب الجزم والإلحاح، بحيث يدع المرسل إليه حرية اختيار القرار كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمۡۖ﴾الآية 28 فقد تبلور هنا من خلال هذه القاعدة الاعتراف بمكانة المرسل إليه، بوصفه طرفا في الخطاب، ويتمتع بقدرات تؤهله للمشاركة في إنجاز الفعل ...» [2]

«أما قاعدة التودد فتقتضي أن يتودد المرسل إلى المرسل إليه بخطابه علامة على تأدبه معه، إذ يقود ذلك إلى صداقة حميمة بين طرفي الخطاب..كما يشعر المرسل إليه بالانتعاش لإحساسه بالتساوي مع المرسل، وذلك بشرط تكافؤ طرفي الخطاب »[3].

«وخلاصة القول فإن لدلالة التأدب في الخطاب، أبعادا تراعيها وانعكاسات تتماشى والغرض من تحقيق العملية التواصلية »[4].« فيكون الاستدراج بهذا على ثلاثة أشكال : – استدراج بحسب

---

[1] عبد الهادي الشهيري، المرجع السابق، ص 100.

[2] _ المرجع السابق، ص 101.

[3] _ المرجع السابق، ص101.

[4] _ علي محمود حجي الصراف، المرجع السابق، ص 134.

القائل، –استدراج بحسب القول، – استدراج بحسب المخاطب »[1].ولعل الاستدراج الأول والمتعلق بالخطيب، قد تناوله القدامى تحت مسمى المظهر الخارجي وهو الذي يلقى به هذا المتكلم القبول من الناس، لأن شخصيته لديها الأثر البارز في لفت انتباههم، « وفي سهولة انقياد المستمعين إليه والإصغاء له، فالناس تنظر إلى من قال أكثر مما تنظر إلى ما قيل، وذلك إتباعا لطبيعة المحاكاة في غريزة الإنسان، لاسيما محاكاة من سيطر على المشاعر ونال الإعجاب في المجتمعات العامة»[2]. أما الثاني فهو الاقتناع بالكلام الذي يقوله المخاطب بلهجة تكون مؤثرة إما برفع صوته أو خفضه ...كما أن للاستدراج الأخير أهمية للمخاطب، خاصة إذا أخذ المتكلم «بعين الاعتبار الحالة النفسية والفكرية والعرفية لهذا الجمهور.. وكما قال ابن رشد :يجب على صاحب الصناعة أن يكون عارفا بالأقاويل المقنعة ..عارفا بأخلاق الجمهور وفضائله التي يميل إليها ...فيستنبط بذلك الوسائل التي من شأنها اجتذاب السامع، وإشعاره بالمشاركة الوجدانية ومحاولة إثارة لذته بتصوير ملذات تتحقق لو تحقق الغرض المنشود في الخطابة »[3].هذا وإن لديه دور كبير في محاولة « جلب الأمان لنفوس المتلقين للخطاب..بتصوير ما سوف يتقى من آلام وشرور عند تحققه »[4].

وفي الأخير فإن « الخطيب الحاذق هو الذي يشعرهم بوجوده معهم في السراء والضراء ويعطف عليهم ويرعى مصالحهم ويحاول استمالتهم بما يحدثه من انفعالات نفسية مناسبة لغرضه، كالرقة والرحمة أو القوة والغضب، أو حتى يستجلب سخريتهم من الموقف الذي يريد أن يوهنه، وأن يثني عليهم بعرض حميد صفاتهم »[5].

ومن الملفوظات المناسبة هنا في آيات غافر منها المتعلق بخطاب فرعون لقومه والآخر المتعلق بخطاب الرجل المؤمن لهم : إني أخاف أن يبدل دينكم , ..ذروني أقتل موسى ...يا قوم إني أخاف .....اتبعوني أهدكم .... مالي أدعوكم إلى النجاة وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار .....فمن ينصرنا من بأس الله .....

---

(1) _ ابتسام السيد عبد الكريم علي المدني، المرجع السابق، ص 320.

(2) _ المرجع نفسه، ص 320.

(3) _ المرجع السابق، ص 326.

(4) _ المرجع نفسه، ص326.

(5) _ المرجع نفسه، ص326.

3)-آليات السياق :

1)- العلاقات الداخلية بين الآيات (السياق الداخلي):

البارز في هذه العلاقات، أن عنوان السورة يناسب مضمونها، «ولأن للعنوان قيمة إشارية تفيد في وصف النص ذاته، فقد نبه علماؤنا القدامى على أهمية اسم السورة، إذ لابد من النظر في اختصاص كل منها بما سميت به، ولاشك أن العرب تراعي في كثير من الأسماء أخذ أسمائها ما نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام والقصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذاك جرت أسماء سور القرآن »[1] فكانت "**غافر**" مناسبة لمضمونها فهي عنوان للذين يرجعون إلى الله تعالى، كيف لا :وهو الغافر للذنوب، وغافر:اسم فاعل وهي تدل على الاستمرارية والحضور دائما، إذ كلما أذنب عبد غفر له ..كما أن هناك مناسبة سياقية لتكرار لفظ"القول" بأشكاله وذلك نظرا « لطبيعة السورة فهي قصصية، وطبيعة القصص الحوار، قال وقل»[2] ..ويقول ...وقول .. وهكذا ..«والتكرار هنا ليس مع الألفاظ فقط بل يكون بين الآيات ..فيبدو أنه قد تحقق التماسك النصي، في القول والرد عليه، وفي السؤال والإجابة عنه»[3] ومثاله قوله تعالى : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الآية 28 وقوله : ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ﴾ الآية 28 وتكرار في " أدعوكم" و"تدعونني" كمثال على رد العجز على الصدر، في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ لآية 41، وفي المقابل هنا فإن ثقافة التكرار-هذه- قد أكدت فعلا ضرورة وإمكانية التواصل، فنجد أن خطاب فرعون مثلا قد استحضر خطاب موسى عليه السلام ولكن بطريقة أخرى «وبشكل قائم على التوتر الذي يؤدي إلى بث الحركة والتغيير في الخطاب»[4].فكان "تواصلا جدليا "[1].

---

[1] _ صبحي ابراهيم الفقي، المرجع السابق، ص 108.

ملاحظة : نمط المرجعية هنا متبادلة، فالعنوان يرجع مرجعية لاحقة إلى مضمون السورة ومضمون السورة يرجع مرجعية سابقة إلى عنوانها، وكلتاهما مرجعية داخلية وفي هذا إبراز لقوة التماسك بين اسم السورة ومضمونها .

[2] _ المرجع السابق، ص 46.

[3] _ المرجع نفسه، ص47.

[4] _ عبد الفتاح أحمد يوسف، المرجع السابق، ص 114.

عناد فرعون وجبروته وتعنته الذي يبدو من خلال خطابه بأنه متوتر وقلق، يقابله سكون وهدوء وطمأنينة ممزوجة بالتسليم لله تعالى، وتفويض الأمر له من خلال موسى عليه السلام.فما كان هذا التقابل سوى أنه تقابل تضاد كالآتي :

قلق← هدوء وسكينة، ضعف ← قوة وإسرار وبهذا«أصبح الجدل والتوتر جزء يتجزأ من تكوين الخطابين، وهو قوم بدور فعال في صياغة ملامح الخطابين وفي ارتباط بعضهما ببعض وتواصلهما معا»[2].« ويبدو من سياق المحاورة هذه أن فرعون لم يأخذ برأي "الذين قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا " ولم يعمل بإشارتهم، فكأنه سكت سكوتا لا تأييد فيه ولا إعراض، ثم رأى أن الأهم من «قتل الذين آمنوا معه "هو "قتل موسى، لأن قتله أقطع لفتنتهم أي وكأن فرعون سمع هذا القول من أهل مجلسه وسكت ثم تركهم إلى مكان آخر ففي قوله تعالى :﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أية 26 ...يدل على أنه قال هذا القول في موطن آخر ولم يكن جوابا لقولهم﴿ قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ »[3] ثم هو في سياق آخر يستخدم الفعل "ذر" وهو سياق الغضب إذ « يصدر عن الكافرين في أفعال إلى الحد الذي يكون الله فيه كافيا عبده محمد ﷺ في إنزال العقاب الصارم عليهم، ولو تحرينا عن سياق كل آية من الآيات التي وردت فيها لفظة "ذرني" لوجدنا من قيل فيه ذلك كافرا أو موغلا في معصية أوامر الله »[4]. وفي معنى "ذر" هي "دع" إذ مما جاء في تفسيرها، إما للكفار بأن يتركهم الرسول ص وما اختاروه من العناد، وذلك على ضرب من التوعد والتهديد أو كما جاء على لسان هذا الطاغية بأن

ملاحظة : مصطلحات "تدعوني" "أدعوكم" "دعوة" :هي مشتقات المادة دعا يدعو دعوة، وهي تدل على أهميتها في مجالات كثيرة، تؤثر ويتأثر بها المجتمع، ذلك أنها مشحونة بمعاني الدمج والمشاركة والفعالية التي قد تكون إيجابية أكثر منها سلبية، كما أن هذه المصطلحات تحمل في طياتها دلالات التواصل الخفية بين بني البشر، ذلك أن الانسان يدعو أخاه والجماعة تدعو الجماعة، ولهذا تكررت في نصوص كثيرة .

(1) _ المرجع نفسه، ص114.

(2) _ المرجع نفسه، ص114.

(3) _ طالب محمد اسماعيل، أساليب المحاورة في القرآن الكريم، تقديم : عمران اسماعيل فيتور، دار زهران للنشر، الأردن، ط 2010، ص296.

(4) _ كريم ناصح الخالدي، المرجع السابق، ص 157-158.

يدعوا له الفرصة بأن يقتل النبي موسى(ع)وفي قتله ظلم كبير وطغيان ولعله الظلم الذي يمارس على الإنسان في الحياة الدنيا، وهو المنتشر كثيرا، فإنه سيأتي يوم لا يظلم فيه أحد وهو يوم القيامة، حيث ترد الحقوق إلى أصحابها بالعدل والإنصاف، حتى إن الآية في سورة غافر عبرت عن هذه الحال بسياق سمي عند اللغويين "بسياق النكرة" «فقالوا مثلا :إن النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط دالة على العموم كقوله تعالى :﴿ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾الآية 17 [1] كما أن من فوائدها التي ذكرت عند العلماء أنها تأتي « للدلالة على الفردية أو النوعية، أو تؤدي معنى التعظيم أو التحقير أو التكثير أو التعليل كما أنه قد يقصد منها التمويه والإخفاء أو عدم الرغبة في الحصر والتخصيص»[2]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد «يكون نقل اللفظ من مكانه أو وضعه في مكان هو فيه زائد عن المعنى، مؤشرا أسلوبيا ذا غرض خاص، كما في قوله تعالى:﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ﴾ الآية 58، أي «ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء»[3].

2)-العلاقات الخارجية (السياق الخارجي):

يقوم السياق الخارجي على مجموعة من الحوارات التي دارت بين فرعون وموسى(ع)، وبين فرعون وملئه، وبين مؤمن آل فرعون وقومه، وقد كان كل طرف من أطراف هذه المعادلة يجادل في حدود الإمكانات المتاحة له وحسب المقام الذي هو فيه وذلك تحت عنوان واحد ومحور بارز هو :الدفاع عن الحق ودحض باطل الخصم وقد سمي الخطاب الذي يدور في فلك الصراع القائم بينهم بالحجاج، الذي يعتبر من أساليب القرآن وعلامة من علاماته المترابطة، إذ يشكل نظاما دلاليا متكاملا من أنظمة الخطابات الحوارية .وعليه فإننا سندرج جوانب من خطاب الحجاج هذا، فنقسمه إلى ثلاثة أقسام هي : -أطراف الخطاب

-مضامين الخطاب

-أساليبه

---

[1] _ خلود العموش، المرجع السابق، ص114-115.

[2] _ المرجع نفسه، ص80.

[3] _ تمام حسان، اجتهادات لغوية، المرجع السابق، ص296.

أما أطراف الخطاب فهي العناصر المشاركة في الحدث الكلامي، وهي مرتبة في الآيات كالآتي، ابتداء من قوله: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ ﴾ حتى قوله : ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ إذ بينت لنا الفئات التي دارت محاور السورة فيهم جميعا، مع تحديدها لطبقات الناس اتجاه الرسالة، ففيهم النبي المرسل، والمؤمن بالله، والكافر الملحد، كما فيهم المتردد بين عزمه أن يؤمن أو يبقى على كفره وعناده ...وهكذا .

ففي قوله تعالى : ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ ﴾ الآية 23 « تنويه برسالته وعظمة موقفه أمام ملوك الأرض يومئذ، أما قوله ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ ﴾ الآية 25 ففيه بيان دعوته وما نشأ عنها، وكأن النظم الكريم آثر أسلوب الإطناب للتنويه والتشريف خاصة حين رماه أهل مجلس فرعون بقولهم «ساحر كذاب»وخاطبوا فرعون خطاب تعظيم بقولهم: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ إذ أراد القائلون بهذا القول أن يرهبوا أتباعه حتى ينفضوا عنه فلا يجد أنصارا »[1].

ويبدو أن هناك لفتة تداولية نهاية سياق الآية التي تقول: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾ الآية «فهذا الكيد الذي دبروه قد أخذه الله على أيديهم فلم يجدوا لإنقاذه سبيلا، وما المقصود به سوى العبرة لقريش بأن كيد أمثالهم كان مضاعا وكذلك يكون كيدهم »[2].« وقد سمي هذا الرأي كيدا، لأنهم تشاوروا فيه فيما بينهم دون أن يعلم بذلك موسى والذين آمنوا معه، وأنهم أضمروه ولم يعلنوه ثم شغلهم عن إنقاذه ما حل بهم من المصائب »[3].

إن مضامين الخطاب جاءت في شكل أحداث تتخللها حوارات ومحاجات قصد الإقناع والتأثير«وقد كانت بين متخاطبين أو بين متعارضين يكذب بعضها بعضا في مشهد قد يكون مليئا بالقسوة والعنف أحيانا كما جاء على لسان فرعون ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ ﴾ أو يكون مفعما بالسخرية

---

[1] _ طالب محمد اسماعيل، المرجع السابق، ص 296.

[2] _ المرجع السابق، ص296.

[3] _ الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص124.

على لسانه كذلك بقوله ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾» [1].وأحيانا أخرى يأتي ليستجيش العاطفة ويلمس شغاف القلوب بأسلوب لطيف رقيق فيه من الحنو والإشفاق ما لا نجده في خطاب آخركما جاء على لسان الرجل المؤمن ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾، ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾، ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ .....ولعل من الخبايا النفسية التي تكنها الآيات الصادرة في حق موسى (ع) بقتله من قبل المحكمة الجائرة التي يترأسها أكبر مجرم عرفه التاريخ وهو "فرعون وملئه" لتنبئ عن مدى حقده وكرهه له رسالته كما تنبئ عن انتشار الفساد والظلم والطغيان بشكل واسع ومخيف . فهناك –إذن– معاني خفية نستدل بها على النوايا الخبيثة في قوله تعالى: على لسان فرعون ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ منها »عزمه –فعلا– من إظهار ميله لذلك، وانتظاره الموافقة عليه بحيث يمثل له وحال المخاطبين بحال من يريد فعل شيء فيصد عنه، ولرغبته فيه يقول لمن يصده"دعني أفعل كذا"لأن ذلك التركيب مما يخاطب به الممانع والملائم ونحوهما وفي القول إشارة إلى خطر ذلك العمل وصعوبة تحصيله، فعطف عليه بقوله :«وليدع ربه» لأن موسى(ع) خوفهم بعذاب الله وتحداهم بالآيات الكريمة كما تؤذن اللام في قوله :«وليدع» بالتسوية وعدم الاكتراث، وجملة«إني أخاف أن يبدل دينكم تعليل بالعزم على قتله وفيها تحضيض وتحريض»[2] ثم إن الآية في مقام آخر ترد على دعاوي هؤلاء ونواياهم الخبيثة، بأن استعاذ موسى (ع) بربه منهم بقوله : ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ﴾ الآية 27«أي إني أعددت العدة لدفع بطش فرعون العوذ بالله – منهم– ...وفي مقدمة هؤلاء المتكبرين "فرعون" وفي قوله : ﴿وَرَبِّكُم﴾ تحريض لهم على أن يقتدوابه فيعوذوا بالله عياذه ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصاما، وقال: ﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٖ﴾ لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة وليكون على طريقة التعريض فيكون أبلغ ...» [3].

وفي الأخير تأتي الآيات لتصف لنا نتيجة الاستكبار والعناد، وهي النار التي يعرض عليها هؤلاء في كل وقت وحين، ونتخيل مع بعضنا عظمة الموقف وهوله ثم إن «المسافة الفاصلة بين وقوع هذه الأحداث في الأصل، وهو المستقبل البعيد وبين تصويرها وهي تجري على مرأى ومسمع من

---

[1] _ محمود المصفار، سيميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، ص 57.

[2] _ طالب محمد اسماعيل، المرجع السابق، ص 297-298.

[3] _ طاب محمد اسماعيل، المرجع السابق، ص298.

المخاطب لا يمكن تفسيرها إلا بأن الزمن في الحياة عند البشر بطيء متراخ والزمن في الآخرة عند الله زمن سريع مفارق كلمح البصر »[1].

والملاحظ في كل ما ذكرناه سابقا أن الخطاب القرآني استعمل أسلوبين متضادين أثناء تعبيره ووصفه للأحداث التي يجري فيها الصراع بين الحق والباطل، أو بين الخير والشر منها «المواقف الصاخبة التي تتطلب المواءمة في التعبير عنها فتنحو منحى الجزالة، ومنها المواقف المشرقة الهادئة التي تتطلب المواءمة في التعبير عنها فتنحو منحى الرقة» [2].ولعل هذا الجدول يوضح الاتجاهين المتضادين لهذين الموقفين :

المواقف الصاخبة	المواقف الهادئة
﴿ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ ﴾ الآية 25	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ الآية 30
﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ ﴾ الآية 26	﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ الآية 32
﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ الآية 29	﴿ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ الآية38
﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا ﴾ الآية 36	﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ 41
﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ الآية 37	

والآية التي يشترك فيها الموقفين هي :

---

[1] _ محمود المصفار، المرجع السابق، ص 74.

[2] _ محمد رجب البيومي، المرجع السابق، ص44.

قوله : ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾الآية 42.

موقف اللين

ولأن هذه الأساليب تخرج عن سياقها الذي ترد فيه، فإننا قد حصرناها في سياقين مهمين هما :

السياق التاريخي و السياق الواقعي

أ)–السياق التاريخي :

«يعتمد مثل هذا الخطاب في حجاجه على استحضار الماضي بكل زخمه التاريخي ورموزه البارزة وأحداثه الظاهرة، ليكون حجة يحتج بها وشهادة يستشهد بها على مجادليه لدينه إذا لم يلبوا دعوة رسله»[1] والآيات كلها جاءت بالحجة وذكرت الخصوم بالبينات فكانت عبارة عن مواعظ وحكم وتنبيه لخاتمة المآل وهو الأمر الذي لم يستطع الخصم أن يقتنع به فكان مصيره النار، منها قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ﴾الآية 34 وقوله : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾الآية 56. وللملاحظ أن كلها حجاج يستند إلى«وقائع شديدة الفعالية في التأثير وإثارة الشعور ..وكأنها تتحدث بنفسها لأنها تقوم على الوصف والحكي ..دونما حاجة إلى إضافة عناصر أخرى[2].إضافة إلى «أن الممارسة الحجاجية لا تنفصل عن مقامها التداولي سواء بالاعتناء المتبادل في الحوار أو بالسعي إلى حسم الخلاف طبق رؤية مسبقة، فيتبين أن الحجاج –إذن–إما جدل وخصام، أو استدلال وبرهان أو إقناع وتأثير»[3].

–جدل وخصام كما في قوله تعالى : ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ الآية 26 وقوله: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾ الآية 36.

–استدلال وبرهان : من مثل قوله : ﴿ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ لآية 28 أو قوله:

---

[1] _ محمود المصفار، المرجع السابق، ص 79.

[2] _ محمد طروس، المرجع السابق، ص 34.

[3] _ المرجع نفسه، ص 60.

﴿ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ ﴾ الآية 29.

–إقناع وتأثير : كما في قوله : ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ 41 وعليه نستطيع القول إن «الاستشهاد بالتاريخ كان وما يزال موضع العبرة والإقناع فهو الماضي الحي كما يحلو للناس أن يقولوا دائما في دراسته ..ذلك أن هذا الناصح يستشهد بالبعيد حين يتحدث عن قوم نوح وعاد وثمود، ثم يأتي بالشاهد القريب حين يتحدث عن يوسف الصديق وتاريخه هو جزء من تاريخ القوم في مصر»[1].

ب)–السياق الواقعي :

وهو السياق الذي يعرض لأحداث "اليوم الآخر" بتفاصيله، ليبين مصير كل مخلوق على وجه الأرض، فإما إلى الجنة أو إلى النار، وفي قصة الصراع القائم بين فرعون الطاغية وموسى النبي تفصيل « عن بيئة الموقف يوم الحساب وقبلها تحدثت عن بيئة القبر، وبيئة البرزخ ...والآيات تبين ذلك، فتنقل هؤلاء الطغاة إلى بيئة جهنم، بعد أن عرضتهم وهم في بيئة البرزخ ...ثم بعد أن عرضتهم وهم في عرصات القيامة صيح بهم أدخلوا النار »[2] «لتنتهي القصة بهذا العرض عن "آل فرعون" في بيئة النار فتقول الآية : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ ﴾ الآية 47 إلى قوله : ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ الآية 50 فكان العرض الذي ختمت به القصة لتحسم كل شيء في شكل تنمية عضوية وتطوير فني لهذا العرض الذي حفل بأحداث ومواقف، كان البطل مؤمن آل فرعون في الصميم منها في محاججته مع آله، وفي رد فرعون عليه »[3].

المبحث الثاني: دراسة تداولية للسورة :

«إن التوجه الحجاجي لسلسلة الأفعال الكلامية، والتي توقفنا عندها في الآيات تظهر بشكل جلي الغرض الوعظي »[4]. أما الغرض الإنجازي –العام – فهو ينصب على المحاورة والتي يقدم فيها

---

(1) _ محمد رجب البيومي، المرجع السابق، ص 42-43.

(2) _ محمد البستاني، المرجع السابق، ص 629.

(3) _ المرجع السابق، ص630.

(4) _ محمود طلحة، تداولية الخطاب السردي، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1(2012)، ص109.

المحاور حجة وإقناعا، هو يدور فيما سماه "سيرل" بالبوحيات، لأنها تعبر عن الحالة النفسية له، خاصة قول الرجل المؤمن وهو يدعوهم إلى سواء السبيل.

وبالتالي فإن في الآيات تقريريات و وعديات وأمريات وإيقاعيات وبوحيات، أمثلة : في قوله تعالى:﴿ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ الآية41

«هناك استفهام يندرج ضمن الأمريات باعتباره طلبا موجها قصد الاستعلام»[1].وربما يكون هذا الاستفهام قد قام بدور تقرير وتأكيد لحالة "المؤمن+اندهاشه" أما الآيات التي من 28 إلى 33 فهناك استفهام وتقريريات وحتى بوحيات، كقوله تعالى: ﴿ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ ﴾ الآية28 ←**استفهام** .

–وقوله كذلك: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ الآية 29 ← **تقريريات**

وقوله : ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾الآية 30 ← **بوحيات**(الخوف من عقاب القوم).

ثم قوله تعالى :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ الآية 38. ←**أمريات** .

وقوله : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾الآية 39 ← **تقريريات**

والملاحظ أن في كل هذه الآيات شحنات عاطفية متقدة اتجاه هؤلاء الذين اتبعوا الظلال ..فكانت بمثابة قوانين قد تكون ثابتة مع مرور الزمن منها : قانون الإتباع، وقانون الدعوة إلى النجاة من النار، وقانون التفكر في خلق السموات والأرض ..وكلها تدخل في دائرة قانون الوعظ والإرشاد ولعل كل كلمة –هنا– من كلمات الوعظ والإرشاد « قد تستدعي قيما اجتماعية أو ثقافية أو حتى انفعالية وهي تعكس – بحق – صورة قائلها وتحدد ملامحه النفسية ولا يمكن استخراج المدلول

[1] _ المرجع السابق ص108-109.

المقصود من بين المدلولات المحتملة إلا بعرض الكلمة على السياق، وإخراجها من عزلتها المفترضة ثم الكشف عما تتلفع به من الحالات النفسية والظلال الدلالية والتجارب البشرية والرصيد التاريخي الطويل»[1]. فحين يقول لهم مثلا (إن يك صادقا) فإن الصدق ديدنه وهو حقيقة في نسبته لهذا النبي، وعندما يخاف عليهم فإن ما كان يخاف عليهم منه قد وقع وحصل فعلا في العاجل والآجل، ثم هو عندما يقول لهم "اتبعوني" فهو حرصا لهم لنجاتهم، لكن عدم إتباعهم أدى بهم إلى الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة فكان المرسل –إذن– وهو هنا الإيجابي، قد حقق هدفه المرجو من الخطاب، وحقق معه التواصل بينه وبينهم، لأنه قد أوصل بكلامه ما كان يعتقده، وما كان يريد به تعديل سلوك الآخرين، فكانت أفعاله كلها إيجابية بناءة، بينما خسر الطرف الآخر –وهو الخصم– كل ما يملكه من أسلحة الدفاع عن نفسه وأهله وما يحيط به، وقد نعتبرها خسارة ممتدة إلى ما لانهاية، لأنها ليست محدودة بزمان ولا مكان، كما أنها تستمر إلى يوم القيامة، فنستطيع القول هنا أن أفعال هذا الخصم كانت كلها سلبية وهدامة .

ولعل هذا الجدول يوضح لنا هذه الأفعال كالآتي :

أفعال إيجابية	أفعال سلبية
–(إن يك صادقا يصبكم)	–(اقتلوا)
–(إني أخاف عليكم (مرتين)	–(استحيوا)
–(اتبعوني)	–(ذروني أقتل)
–(أهدكم سبيل الرشاد)	–(ما أريكم إلا ما أرى)
–(مالي أدعوكم إلى النجاة)	–(أظنه كاذبا)
–(وأنا أعوكم إلى العزيز الغفار)	–(وتدعونني إلى النار–تدعونني لأكفر بالله)

[1] _ عبد الرحمن بودراع، مقال :منهج السياق في فهم النص، من كتاب الأمة، السنة 26، العدد 111، 2006، ص58.

وفي الأخير فإن « هذا المحاور قد توجه إلى هؤلاء مطلعا إياهم بمشاركته اعتقاداته ومعارفه، وفي هذا الاطلاع وهذه المطالبة، يكمن البعد الاجتماعي للحوارية، ذلك أنها تقوم على مبدأ التعاون مع الغير في طلب الحقائق والحلول وفي تحصيل المعارف واتخاذ القرارات وفي التوجه إلى العمل»[1] فيكون بذلك هذا النموذج في التحاور ناجحا، خاصة إذا قدم المحاور الحجة والبرهان لمعترضة وهما نموذجان أطلق عليهما "طه عبد الرحمن" بنموذج التبليغ ونموذج التفاعل.

فالأول يتمثل«في أسبقية العلاقة التخاطبية بين المتكلم والمخاطب فما تكلم أحد إلا وأشرك معه هذا المخاطب في إنشاء كلامه، فيكون هذا الإنشاء من لدن المتكلم وفهمه من لدن المخاطب عمليتين لاانفصال لإحداهما على الأخرى..فما أن يشرع المتكلم في النطق حتى يقاسمه المخاطب دلالاته ..» [2] ويبدو جليا في الأفعال السياقية التي أظهرت بحق شجاعة الرجل المؤمن ومواقفه البطولية بإنشائه لنموذج تبليغ ناجح، كلام منطقي، واضح، صريح، وبناء ...كان قد بدأه بالاستغراب منهم والاستفهام من طريقة صدهم وإعراضهم لينتهي به الكلام إلى تفويض أمره إلى الله بعد اليأس من استجابتهم لدعوته .

«أما النموذج الثاني والذي من أهم شروطه كي تبلغ المتحاور درجة التفاعل هو أن يتفرق ويخرج عن نفسه إلى الغير قائما بكل وظائف هذا الغير..ولا تستقيم له هذه الحال إلا إذا اقتدر على "منازعة" نفسه وهدم حماها ..» [3] ولعلها تظهر حقيقة في معارضة هذه النفس بما سيؤول مصيرها عندما قالت قولة "الحق"أمام ظالم جائر في محاورة الرجل لقومه.

وهناك تناقض واعتراض ..إذ عوضا من أن يخاف هذا المحاور على نفسه من القتل والتنكيل به، صار هو الذي يخاف على غيره، فكان من نتائج الاهتمام بهؤلاء القوم هو الحرص على هدايتهم، والحرص على نجاتهم من النار، ثم الخوف الشديد عليهم من العواقب السيئة، ولهذا فقد يعد هذا النموذج من النماذج الرائعة في التفاعل في إطار من عملية التواصل اللغوية، ولعل هذا النوع من الاتصال قد يسميه الدارسون "بالاتصال الأفقي "، ذلك أن المتأمل في هذا النوع يجد أنه:

« 1- يعتمد على النصح والإرشاد والخوف على الزملاء والأصحاب والقوم .

---

[1] _ طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد الكلام، المركز الثقافي العربي، ط2(2000)، ص37-38.

[2] _ المرجع السابق، ص 50.

[3] _ المرجع نفسه، ص 50-51.

2- يعتمد على إعمال العقل والمفاضلة بين العوائد والنتائج المترتبة على عدم إتباع أمر معين.

3- هذا النوع من الاتصال ليس من أعلى، فلا يعتمد على الأمر وليس من أسفل فلا يعتمد على الرجاء، وإنما -كما ذكرنا سابقا- يعتمد على النصح والإرشاد وعلى المستقبل الاختيار وتحمل نتيجة اختياره تحت قاعدة"يا قوم أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم"الأحقاف الآية 46، إذ بينوا لقومهم العائد من الإيمان وهو غفران الذنوب والوقاية من النار»[1].

[1] _ عصام عبد العظيم أحمد، دليلك إلى الاتصال الفعال من منظور إسلامي، ط (شركة مكتبة ألفا للتجارة والتوزيع)، مصر، ص 30.

لمحة إشارية : لقد بدأ بالكذب في قوله :"إن يك كاذبا " وهي تدل دلالة تداولية على سيطرة الحكم في عقول هؤلاء بأنه كاذب، ثم هو يؤخر قوله :"إن يك صادقا" لكي تبقى راسخة في أذهانهم فيزيلون الاعتقاد السيء ويضعون بدله الاعتقاد الصحيح، وهذا يستلزم منهم وقتا كافيا لهذه العملية .

المبحث الثالث:آليات التواصل في خطاب نوح عليه السلام(مكية)

1)-المواضيع الرئيسية:

تحتوي السورة على ثلاثة محاور رئيسية هي :

1-ماهية الإرسال والإنذار

2-الهدف منه

3-العواقب والنتائج

1)-ماهية الإرسال والإنذار:

تبدأ الآية بحديثها عن الإرسال والإنذار بقوله تعالى :﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾الآية 1، ولعله أهم موضوع في السورة كلها مما يتسم به من خصائص ومميزات، وما يحمل في طياته من دلالات كما أن هذه الآية تحوي في مضمونها التواصل الذي ينشده الإنسان، ويبحث عنه في كل زمان ومكان، حتى إن عناصره هي نفس العناصر التي تحدثت عنها اللسانيات، وهي المرسل والمرسل إليه والرسالة، فالمرسل هنا هو نوح عليه السلام والمرسل إليه هم قومه، والرسالة :هي الدعوة إلى التوحيد.

ولعل الملفوظ الذي تصدر بقوله :"إنا أرسلنا" يقرر حقيقة، واقعة الرسالة وعلاقتها بالرسل وذلك بالتوكيد الظاهر هنا "إنا" «فهذا هو المصدر الذي يتلقى منه الرسل التكليف كما يتلقون العقيدة، وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله، وصدرت منه الحياة وهو"الله" الذي خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده فلما انحرفوا عنها وزاغوا أرسل

إليهم رسله يردونهم إليه »[1].

ويبدو أن ما يحدث للأنبياء من محن ورزايا وابتلاءات، يتكرر عبر التاريخ، إذ جاءت السورة تواسي النبي ﷺ لأن في أحداثها محاكاة لأحداثه رغم بعد الزمن «فتردد قصة الداعي والمدعو بما يطمئنه لفهم حركة التاريخ البشري.. أي إن حركتك الرسولية في قومك الآن توازي حركة نوح عليه السلام في قومه، وهذا يعني أن قلق محمد ﷺ تأتي من تخصيصه بالرسولية فكان التركيب قد بوأ فعل الإرسال مستهلة، بالنبي نوح عليه السلام مباشرة إلى قومه »[2] فمنهم من آمن فكان مصيره الجنة ونعيمها، ومنهم من كفر فكان نصيبه "النار" خالدا فيها.

ومن مشهد التكليف بالرسالة ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد التبليغ، والذي من أهدافه "الإنذار"والتحذير من العواقب الوخيمة. وهذا ما أظهرته الآية بداية من الإرسال الذي يتضمن معنى القول، إلى إنذار القوم من الاستمرار على الكفر من قبل أن يأتيهم العذاب الأليم، فتكون الحجة عليهم لا لهم، باعتبارها النتيجة النهائية والمنطقية للحجج المقدمة قبلها. إذ لا يأتي بعد الإرسال والإنذار، سوى أن الغرض منها هو التذكير بـ"سوء العاقبة" «قال ابن عباس يعني عذاب النار في الآخرة، وقال الكلبي :هو ما نزل عليهم من الطوفان وقيل أي نذارهم العذاب الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا، فكان يدعو قومه وينذرهم فلا يرى منهم مجيبا»[3]

هذا وقد نعت بالأليم على وزن "فعيل" «أي شديد الألم على سبيل المبالغة في نسبة هذا اليوم للألم، سواء كان عذابهم يوم أغرقوا بالطوفان، أو في الآخرة.. فإن هذا اليوم أضيف "الألم إليه" مع أن الألم للكافرين لأنهم يتألمون فيه»[4]. «فأمره أن ينذرهم عذابا يأتيهم من الله

---

[1] _سيد قطب، م 6، المرجع السابق، ص 3710.

[2] _خلود العموش، المرجع السابق، ص 111.

[3] _ المرجع نفسه، ص 111.

[4] _ عودة الله منيع القيسي، الإعجاز اللغوي في قصص نوح عليه السلام في القرآن الكريم، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ط1(2002)، ص29.

ليكون إنذاره مقدما على حلول العذاب»[1].

وهذا من قبيل تقديم الحجة على النتيجة.

فبعد الإرسال + وبعد الإنذار ← العذاب الأليم

الحجة 1 حجة2 تكون نتيجة

وعليه فإن « غائية الإرسال تمتد لتشمل أسرار وعمق المرسل إلى الناس، ذلك أنه سيحمل على كاهله مسؤولية نقل الأخبار إليهم، والحديث عن مآلهم فكان منها أنه سينذرهم بهذا المصير الذي طالما انتظرهم وينتظرونه...ثم إن صيغة الأمر "أن أنذر" ستعمل حتما على تغيير الواقع الفاسد »[2] بناء على معطيات الداعية وما سيقدمه من مؤهلات تجعله قادرا على هذا التغيير«فالدعوة تقتضي منه على الدوام أن يكون في موقع "الأمر والنهي " والذي يكون في هذا الموضع يلزم أن يكون أهلا له »[3].

كيف يكون ذلك ؟

1-القدرة على الإيصال والإقناع وإثبات الحجة بالبراهين (ولعلها سمة جميع الرسل الذين بعثهم الله للبشر)

2-الصبر وتحمل الأذى لبلوغ هدف التواصل معهم، وذلك بتذكيرهم بالوعد والوعيد (موجودة في جميع الأنبياء).

3-التعامل معهم باللين والرفق، وبالكلمة الطيبة، لاستمالة قلوبهم وعقولهم (سمتهم جميعا كذلك).

4-تحليهم بالأخلاق الفاضلة والمعاملة الحسنة، كي يصبحوا قدوة للآخرين (موجودة

---

[1] _ الطاهر بن عاشور، ج29، المرجع السابق، ص186.

[2] _ خلود العموش، المرجع السابق، ص121.

[3] _ المرجع نفسه، ص121.

فيهم كلهم).

وتبقى هذه السمات خالدة وثابتة في أنبياء الله، يعرفون قومهم بأنعمه عليهم وشكره عليها وبالعمل الصالح حتى إذا ما «جحد هؤلاء هذه النعم وتمادوا في البطش وأحبوا الدنيا وركنوا إليها، حينها سيتغير أسلوب الدعوة من الموعظة اللينة إلى أسلوب الترهيب والزجر»[1].

2)-الهدف منه (أي الإرسال):

من الأهداف المرجوة من هذا الإرسال، ما توضحه سياق الآيتين من قوله تعالى: ﴿ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾الآية 3، ﴿ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾الآية2 ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾الآية 4 إذ توجد آليتان، لا يتم التواصل إلا بهما وهما:النداء والأمر، فالتواصل بياء النداء في قوله تعالى:«قال يا قوم» تدل على أن هناك تواصلا لسانيا بواسطة القول، كما تدل على قرب القوم من هذا النبي العظيم..ثم إن «الطلب "يا قوم" استدعى المخاطب إلى موقع يتموضع فيه بإزاء المتكلم، فيتم تعريفه بالإضافة إلى الياء وإذا كان لهذا من دلالة فهي في التأثير المتبادل بين المضاف والمضاف إليه»[2]

أما دلالة الأمر والنهي هنا فتستوجب من المرسل والمرسل إليه الإصغاء والاهتمام بموضوع الرسالة، والركون والخضوع لمضمونها وعليه فإن «النداء في مقول القول "قال يا قوم" هي بمثابة تأشيرة الدخول إلى قلوبهم أولا، ثم ليتسنى له الأمر والنهي ثانيا مما يدل على أن إنشاء الطلب الدعوي في القوم لا يتطلب التخلي عن الأمر والنهي، بل التلطف في ذلك حتى تكون أذن صاغية وقلب لبيب»[3] وهنا تكمن أهمية الإرسال لأهمية الموضوع الذي سيتحدث فيه بقوله ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾الآية 2، وقد حاول علماء التفسير شرح الآيات من الداخل بحسب سياق الأوامر التي نادى بها وهي :-عبادة الله، -تقوى الله، -طاعة الرسول

---

[1] _ بن أحمد عالم فايزة، مقال: الحجاج في اللسانيات التداولية، دراسة لنماذج من القرآن الكريم، ص 3.

[2] _ خلود العموش، المرجع السابق، ص124.

[3] _ المرجع نفسه، ص125.

التي هي من طاعة الله.

يقول البقاعي:«إني لكم نذير أي مبالغ في النذارة "مبين" أي أمر بين في نفسه بحيث أنه صار من شدة وضوحه كأنه مظهر لما يتضمنه، مناد بذلك للقريب والبعيد، والفطن والغبي، ولما كان ترك ما أنذرهم بسببه من الكفر لا يغنيهم إلا أن آمنوا...فسر الإنذار بقوله :"أن اعبدوا الله" أي الملك الأعظم الذي له جميع الكمال وذلك بأن تخلصوا التوجه إليه، فإن غناه يمنع من أن يقبل عبادة فيها شرك وهذا هو الإيمان..ثم اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية، تمنعكم من عذابه بالانتهاء عن كل ما يكرهه، فلا تتحركوا حركة ولا تسكنوا سكنة إلا في طاعته وهذا هو العمل الوافي من كل سوء»[1].

والملاحظ أن هذه الآيات جاءت على وتيرة خطية واحدة من تساوقها، إذ تضع

الأمر ـــــــــ الاستجابة له ← ثم العلة من هذه الاستجابة، كالآتي:

1)-الأمر بالإنذار "أن أنذر قومك" ← لماذا؟ "من قبل أن يأتيهم عذاب أليم

2-الاستجابة له :"إني لكم نذير مبين"← لماذا؟ لأن«أجل الله إذا جاء لا يؤخر»

هذا «وقد استطاع أسلوب النداء أن يطبع الدعوة بلطفه، فالأمر"اعبدوا الله" لن يكون له وقع منفر، لكونه جاء من رجل ينتمي إلى الجماعة، وهي محسوبة على الآمر في سياق النداء »[2].

«فهذه المقولة ما هي إلا دعوة إلى العبودية بالاختيار لا بالتسخير إذ ما كانت هذه الدعوة لتكون لو أنهم عباد الله، ولن يكونوا عباد الله ما لم يقروا بأنهم عبيده»[3]

ولعل اللفتة الهامة هنا هو أن «هذا الافتتاح –ما هو- إلا لطلب إقبال أذهانهم ونداؤهم بعنوان أنهم قومه، تمهيد لقبول نصحه، فهو لا يريد لقومه إلا ما يريد لنفسه، وتصدير دعوته بحرف التوكيد لأن المخاطبين يترددون في الخبر... كما أن تقديم "لكم" على عامله

---

[1] _ البقاعي، م8، المرجع السابق، ص 164.

[2] _ خلود العموش، المرجع السابق، ص124.

[3] _ المرجع نفسه، ص126-127.

"نذير" للاهتمام بتقديم ما دلت عليه اللام من كون النذارة لفائدتهم لا لفائدته »[1].

3)-العواقب والنتائج :

يتبين حضور الملفوظ "دعوة" باشتقاقاته كـ"دعوت" و"دعائي"و"دعوتهم" في الآيات المتتالية من 5إلى 8، وهذا يدل على خوف الداعي اتجاه قومه من سوء العاقبة وتردي نتائجها..ذلك أن سنة الله في كونه تتطلب العظة والتذكير بها، لأنها تكررت وتتكرر عبر التاريخ.

ولأنها الكلمة المركزية هنا فهي تستدعي من الداعي تحمل مسؤوليته اتجاهها، إذ تستلزم أساليب هامة :كأسلوب الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة، مع مراعاة المكان والزمان ومكانة الداعي بين قومه. ورغم هذا فإن هذه الدعوة المحدودة الزمان والمكان، لم تلق استجابة ولا إقبالا، بل على العكس نلقى صدودا وإعراضا واستكبارا مثلها الخطاب القرآني بأدوات كثيرة كالأصابع والثياب، وهي كلها تعابير مجازية فيها من الإعجاز ما لا يقدر على وصفه أحد «فالصورة المرسومة هنا لإعراض قوم نوح هي صورة رمزية، تضافرت اللغة مع التصوير في رسم هذا الإعراض الكلي لهم والمبالغة فيه إلى حد غير معقول، وهو محاولتهم إدخال تلك الأصابع كلها في آذانهم، وهذه صورة مضحكة تكشف عن حقيقتهم ونفسيتهم وقصور أذهانهم..»[2] حتى نزل عليهم العقاب في الدنيا والآخرة.

وإذ يعد أشد عذاب وأقساه عليهم إلا أنه يناسب قسوتهم وصدودهم وإعراضهم من قبيل :"الجزاء من جنس العمل" لكونهم قد تولوا عن سماع النصح والعظة، وأعرضوا عن رؤية الناصح لهم، ثم إنهم أصروا على كفرهم واستكبروا أشد الاستكبار، فجاء « النداء في قوله "قال يارب" متناسق مع سياق إعراضهم رغم الإنذار والدعوة، لتعبر هذه الصيغة عن حزن النبي نوح عليه السلام، على موقف قومه، ويعدهم لما في "يا" من الامتداد الصوتي المعبر عن شدة الألم

---

[1] _ الطاهر بن عاشور، ج29، المرجع السابق، ص187.

[2] _ مهدي أسعد عرار، المرجع السابق، ص186.

والحزن »[1].

2)-آليات التواصل في خطاب السورة :

1-الآليات اللغوية :

من بين الآليات التي لعبت دورا كبيرا في تماسك عناصر السورة، آلية الحذف التي ارتبطت أكثر بقضية الإيجاز كطريقة من طرق الاستعمال البلاغي والمجازي وهو على وجهين كما جاء عند الرماني: حذف وقصر:« فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها، بدلالة غيرها من الحال، أو فحوى الكلام، والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف»[2].

وقد تحقق فعلا هذا التماسك عندما تم«حذف عناصر ثانوية من الحوار، والتي دلت على قدرة المتلقي، ولعل انتهاء الآيات من 5إلى 28 بالكلمات المنونة وبالفتح يشعر بنوع من التواصل والاستمرارية بين الأحداث...» [3].

أما التكرار فهو الغالب في آيات السورة، كما ذكر "الفقي" في تحليله لها، بقوله: "نجد التكرار يركز على حركته حول هذه المحاور فقد تكررت لفظ الجلالة "الله" و"رب" في اثني عشر موضعا وتكررت الضمائر التي تحيل إليه سبحانه وهي بمثابة تكرار الاسم الظاهر، في ستة وعشرين(26) موضعا، إذ هو يمثل المسند إليه الأول في السورة، ولعل التكرار يحقق تماسكا في عناصر الآية الواحدة ويحققه في أكثر من آية، فالأول منه قوله تعالى﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾الآية 1، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾الآية 2، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾الآية 3.كما «تكرر استعمال المفعول المطلق مثل: "يخرجكم إخراجا"لطبيعة الآيات التي جاءت تؤكد بقوة وحدانية الله وعظمته وقدرته، مع تناسقها وقوة

---

[1] _ عبد السلام أحمد الراغب، المرجع السابق، ص61.

[2] _ بوجمعة جمعي، مقال:أسلوبية الإيجاز في الخطاب العربي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، س11، ع44، ديسمبر 2003، ص57.

[3] _ صبحي ابراهيم الفقي، ج2، المرجع السابق، ص 335.

إعراضهم وصدودهم وعناد كفرهم..كذلك نلمح التكرار في اسم النبي "نوح عليه السلام" فقد تكرر في ثلاثة مواضع في الآية 1 و21 و26 ظاهرا وتكرر عبر الضمائر في 26 موضعا منها »[1].

ولأهمية "الدعوة" جاءت مكررة –أيضا– بجميع اشتقاقاتها إذ «جعل دعوته مظروفة في زمني الليل والنهار، للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصد الوقت الذي يتوسم أنهم فيه أقرب إلى فهم دعوته من غيره من أوقات النشاط وهي أوقات الهدوء وراحة البال وهي أوقات الليل»[2]

ومن التكرار الذي يضفي على المعنى جمالا واتساقا، فيجعل المتلقي أكثر انتباها وتركيزا، دلالة "الزيادة إما لفظا أو تقديرا وهي في آيات كثيرة منها:

–قوله تعالى ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ الآية6.

–وقوله:﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ الآية 15. فيها زيادة

–ومنها كذلك قوله﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ الآية 21.

–وقوله تعالى ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ الآية 22. فيها زيادة

–وقوله :﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ " وآية :(مما خطيئاتهم أغرقوا) الآية 25. فيها زيادة

–وآية :﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ الآية 28.

ولعل ما يلفت انتباهنا حول لفظة الزيادة باشتقاقاتها ما يلي :

1)–الزيادة :هنا تدل على الإعراض والإصرار عليه، مع العناد، هذا العناد الذي كان نتيجة الاستكبار، وهي الصفة التي وجدت في آية أخرى على وتيرة التصاعد والزيادة من قوله

---

[1] _ المرجع نفسه، ص63–64.

[2] _ المرجع نفسه، ص64.

تعالى:﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ الآية 22.

2)-الزيادة :متناسبة مع سابقتها ولاحقتها من الملفوظات، فهي تتضمن معنى الكثرة، ومعنى الاستمرار في الشيء، ومعنى :العدد والعدة..ففي الكثرة مثلا قوله تعالى ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ الآية 24. سابقة

وفي الاستمرار في الشيء قوله :﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِى إِلَّا فِرَارًا ﴾ الآية 6. لاحقة

وفي العدد قوله :﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ الآية 21. لاحقة

3)-هناك زيادة إيجابية، وأخرى سلبية، فالأولى تتضمن معنى العلو والرقي في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ الآية 15. زيادة

والثانية تتضمن معنى الهبوط والتدني والانحطاط من مثل قوله تعالى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ ﴾ الآية 25 (فالخطيئة تزيد وتغرق صاحبها) زيادة

4)-اقتران معنى الزيادة بأداة "النفي" و"النهي" فكان المعنى سلبي لسلبية الزيادة هنا، ففي قوله "لم يزدهم" "لاتزد"، "من لم يزده" كلها زيادات تجلب لصاحبها المضار وتدفع عنه النافع.

ثم إن هناك تكرارا آخر في قوله تعالى ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ الآية 10 إذ «سمي هذا التكرار النمطي المتمثل في نمطية حلقة مغلقة يرتبط فيها أول الكلام بآخره ثم تنمو بعده الدلالة، وصولا إلى خاتمة يتكرر فيها اللفظ سواء اتحدا اللفظان في الدلالة أو اختلفا فيه »[1].

أما دلالة "ثم" وتكرارها فهي تفصح عن ذلك التنقل والتدرج في معنى المعطوف وتميزه عن المعطوف عليه وذلك في آية ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾الآية 8، وآية "﴿ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ

[1] _ أشواق النجار، المرجع السابق، ص130.

﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ الآية 9 كما أنها" تؤدي دلالة التفاوت والتباعد بين مرتبتي المتعاطفين وتفهم من قرائن السياق دلالة التدرج التصاعدي في المرتبة بينهما، ويؤدي علو مرتبة المعطوف على المعطوف عليه، إذ قصد القرآن الكريم هذه الدلالة في 54 موضعا[1] منها هذه الآيات التي ذكرناها.

وأخيرا فإن معنى «"ثم" تدل على تباعد الأحوال –كما ذكر الزمخشري- لأن الجهاز أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما...هذا وإن العطف بـ "ثم" «في هذه القضية، يشعربأنهما كانا طريقة ثالثة سلكها نوح في الدعوة غير طريقة السر المحضة، وغير طريقة الجهر المحضة، فكان في الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان، ويسرها حيث يتوقع نفع الإسرار» [2]

وبالتوازي مع التكرار الوارد في السورة كلها تتردد الأفعال بصيغ المبالغة لتدل كذلك على تكرار الحدث، كصيغة "فعال" في ملفوظ «"غفار" التي نطق بها النبي أثناء الدعوة لقومه عسى قومه أن يؤمنوا بربهم فيغفر لهم..فكثرت وتكررت دعوته بالليل والنهار، وفي السر والإعلان.ولعل لفظ "كلما" يدل على تلك الكثرة في الدعوة «فناسب معها وهي المتكررة منه لقومه كي يغفر لهم ربهم ذنوبهم أن يأتي بهذا اللفظ "غفار" الدال على تكرار المغفرة وكثرتها ليتفق ودلالة السياق »[3] ثم هي لم تأت بهذه المبالغة إلا بعد ورود طلب الاستغفار منهم من ربهم، عساه أن يتوب عليهم إذا تركوا معاصيهم، لكنهم لم يفعلوا هذا ولم يتخلوا عنها فوصفتهم الآية مرة أخرى بتوظيفها لصيغة مبالغة مغايرة لهذه الصيغة وهي أنهم بعدم تخليهم عن معاصيهم قد مكروا مكرا كبارا، أي كبيرا..إذ « كان مكر قوم نوح من الرؤساء، ومكرهم احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح وتحريش الناس على أذاه، وصدهم عن الميل إليه والاستماع منه »[4] «لذا آثر القرآن هذه الصيغة المشددة دون الصيغة المخففة..للدلالة على شدة هذا المكر

---

[1] _ مصطفى حميدة، أساليب العطف في القرآن الكريم، مكتبة لبنان، بيروت، ط1(1999)، ص175.

[2] _ المرجع نفسه، ص176-177.

[3] _ مصطفى شعبان عبد الحميد، المرجع السابق، ص188.

[4] _ عبد الحميد هنداوي، المرجع السابق، ص104.

وقوته إضافة إلى مجيئها موافقة للفاصلة التي قبلها، وأغلب الفواصل بعدها »[1].

فيأتي دعاؤه على قومه في الأخير، بعد أن يئس من هدايتهم « أن يأخذ في التصاعد -كذلك- نحو الشدة والتوتر حين يوشك على الانتهاء، فيكثر من صيغ المبالغة المشددة في الفاصلة كبارا-ديارا-كفارا مما يحدث ضغطا قويا على اللسان، ليشير إلى ارتفاع حدة الغضب وامتلاء نفس نوح عليه السلام من قومه »[2] فكانت لغته انفعالية مستخدما أسلوب النداء الذي يشكل أبرز مظاهر اللغة، حيث «توفر هذه الوظيفة الانفعالية من القيمة الإبلاغية والحدة التعبيرية ما لا طاقة لغيرها به..» [3] ومع ما يضفيه هذا الأسلوب من جماليات كلامية خاصة إذا كان مسبوقا بأمر أو بنهي فمما أثبتته الدراسات اللغوية «أن النداء إذا ما سبق طلبا كان دالا على شدة اهتمام المتكلم بهذا الطلب، وحرصه على تنفيذه من جهة، وعلى أن الأمر مقصورا على المنادى من جهة أخرى، ويشترك أسلوبا النداء والأمر في تأسيس علاقة مباشرة وآنية بين المخاطب والمخاطب »[4].

2)-الآليات غير اللغوية :

تعتبر الحركات الجسمية من بين أهم الآليات التي تعبر عن نفسية الإنسان، فيخرج ما يكنه في نفسه باعتماده على حركات العين أو اليد أو الرأس أو الصدر أو يستخدم كل جسمه.

ولعل هذا ما حدث مع قوم نوح، حين صدرت منهم حركات تدل على إعراضهم وصدودهم، إذ صورهم القرآن في أعمق وأبلغ تصوير يجسد عملهم هذا، وهو قوله تعالى ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ ﴾الآية 7 فقد «اقتضى جريان الخطاب القرآني على أساليب العرب الفصيحة، أن يعتمد أسلوب المجاز ههنا، حيث يذكر الكل "الأصابع" ويقصد الجزء"الأنامل" وأطراف الأصابع كما جرى الأسلوب المتعارف عند هؤلاء، ذلك أن القيمة الدلالية ليست

---

[1] _ المرجع نفسه، ص105.

[2] _ صالح ملا عزيز، المرجع السابق، ص237.

[3] _ المرجع السابق، ص237.

[4] _ المرجع نفسه، ص237.

متعلقة باللفظة في حد ذاتها لذلك لم يتوخ أسلوب الحقيقة بل أسلوب المجاز»[1] على سبيل المبالغة في التعبير «ولعل قاعدة أمن اللبس أيضا، وهي قاعدة تداولية بامتياز قد أسهمت في جعل كلمة أصابع هي الأنسب في مقامها...والعدول في الآية عدول سلوكي يظهر في دلالة عمل المتحدث عنهم»[2].

ثم هم لم يتوقفوا عند هذه الحركة فحسب، بل تعدت (تجاوزت) جرأتهم في الإعراض إلى استغشاء الثياب، حيث عبرت الآية عن ذلك: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾الآية 7 «أي وجدوا التغطية لرؤوسهم بثيابهم إيجاد من هو طالب لذلك شديد الرغبة فيه حتى يجمعوا بين ما يمنع لكلامه والنظر إليه إظهارا لكراهته وكراهة كلامهم..وقوله :"وأصروا" أي داموا على سوء أعمالهم دواما هم في غاية الإقبال عليه...وقد نادت هذه الآيات بالتصريح في غير موضع بأنهم عصوا نوحا عليه السلام، وخالفوه مخالفة لا أقبح منها ظاهرا بتعطيل الأسماع والأبصار وباطنا بالإصرار والاستكبار ولم يوافقوه بقول ولا فعل»[3].

وعليه فقد تبلورت أساليب الإقناع والتأثير عند النبي "نوح" حيث تتفاوت حدة وليونة أملا ورجاء في هؤلاء القوم المكذبين فجاءت الآيات على وتيرة تصاعدية وأخرى تنازلية بحسب الفعل ورد الفعل، ففي حين أن دعوته لهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة تنم عن فعل الصادق والخائف على قومه من العذاب، كانت ردود أفعالهم سلبية مع ما تظهره الآيات من تصاعد في الكلام وقسوة في الأفعال..

-إني دعوت قومي ليلا ونهارا ← فلم يزدهم دعائي إلا فرارا (فعل ورد فعل)

ردود أفعال
1- (جعلوا أصابعهم في آذانهم)
2- (استغشوا ثيابهم)
3-(إني كلما دعوتهم لتغفر لهم)

[1] _ صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط2008، ص59-60.
[2] _ المرجع نفسه، ص60.
[3] _ البقاعي، م 8، المرجع السابق، ص1.

4- (أصروا)

5- (واستكبروا استكبارا)

ولأن نوحا كان مصرا على دعوتهم في جميع الأوقات والأحوال، فقد استخدم آلية أخرى، علها تكون الأنفع والأنجع وهي آلية الحجاج التي تعد من «الآليات الأبرز لمستعمل اللغة فيها وهو المرسل، إذ تتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع»[1]. بأن جعلها لب العملية الحجاجية، خاصة إذا تلفظ بالخطاب الذي سينتج عنه القرار النهائي لممارسة عمل ما أو التخلي عنه، أو اتخاذ موقف معين سواء بالإقدام أم الإحجام، لما ينجم عن ذلك العمل الممارس بالخير والنفع الكثير منها "عمل الاستغفار" من قوله تعالى :

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾

قول النبي

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾

النتائج بالحجة

«وهكذا تكمن أهمية الحجاج في كونه بديلا عمليا لكثير من وسائل الإرغام مثل القوة المادية، وبذلك فهو الأداة السليمة التي تضمن التغيير في معتقدات المرسل إليه دون خسران...» [2] مع ما يتمتع به المرسل من قناعات ذاتية ومساحات واسعة لاختيار ملفوظاته التي تتسم بالحجج القوية، والتي يتوقع أن تكون أكثر نجاعة في موقف معين.

وفي الأخير يلفت هذا المرسل أنظار الموجه إليهم الكلام، باستخدام آلية الوعظ والتذكير، عساهم يستيقظوا من غفلتهم وهي الرسالة السامية التي أراد الأنبياء تحقيقها.والقرآن

---

[1] _ الشهيري، المرجع السابق، ص 456.

[2] _ المرجع السابق، المرجع السابق، ص459.

وحده هو الذي شخص لنا هذابسرد قصصهم علينا«كدليل حسي على صحة أهدافها الرامية إلى تحقيق العدل والإيمان »[1].

ولعل أهم ما يميز سورة "نوح" في سردها للقصص، هو ذلك الوعظ الظاهر من قوله تعالى ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾الآية 13، 14 إذ فيها وصف مشخص لقدرة الله تعالى على خلق كل شيء في السماء والأرض، لكن الإنسان يكذب بهذا ويكذب بيوم المعاد، وهو لا يخاف العقاب كما لا يخاف الوعد والوعيد وقد قيل في معنى"الرجاء" هنا أنها « الخوف لأن من رجا شيئا فهو غير قاطع بحصوله فلا يخلو من فوت ما يرجو، وقد قال "الفراء"و"الزجاج"لا يطلق الرجاء بمعنى الخوف إلا مع النفي..أي لا يخافون له عظمة »[2].

والملاحظ هنا أن «وظيفة وصف بديع ما خلق الله مهدت لتصعيد الحدث وتصوره قبل أن ينبعث من قلب نوح ذلك الدعاء على الظالمين، فيقع بهم العذاب الأليم»[3]. إذ أضافت مسحة الدعاء هذه ملمحا جديدا في آيات السورة، التي انتقلت بجمالية أسلوبها وتفرده من وصف خلق السموات والأرض إلى دعاء صريح وموجه إلى هؤلاء القوم مباشرة بهلاكهم وإغراقهم في خطاياهم، خاصة بعد أن تأكد نوح عليه السلام باستحالة رجوعهم إلى الله مع هذا الإصرار على الكفر والعناد.

وفي الأخير فإن هذا النبي قد أخذ بأسباب نجاح الوعظ الذي هو أساس الحكمة المتوخاة من الدعوة إلى الله، فعلى الرغم من«مراعاته بيئته وضربه للأمثال النافعة من واقعه ومع لفت نظر المدعوين إلى نعم الله عليهم وإحسانه إليهم دون قسوة أو غلظة، إذ كان يزن الكلام وزنا ويقدره تقديرا قبل أن يتكلم به، ثم يستشعر في نفسه موقف المدعو وكأنه هو، وأن مراده من دعوته لهم إنما هو سعادتهم في الدنيا والآخرة »[4] بدءا من قوله (ياقوم إني لكم نذير مبين)

---

[1] _ بوقرومة حكيمة، منطق السرد، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2011، ص51.

[2] _ طه جابر العلواني، مقال: خصائص لسان القرآن الكريم، مناهج الاستمداد من الوحي، أعمال الندوة العلمية الدولية (الرابطة المحمدية للعلماء)، المملكة المغربية، يومي 5-6 مارس 2008، ط1، ص43.

[3] _ عماد عبد يحيى، المرجع السابق، ص364-365.

[4] _ عبد القادر شيبة الحمد، مقال: الدعوة إلى الله، الشيخ: مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

إلى قوله :﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ الآية 10 ورغم هذا لم يؤمن معه إلا القليل.

3)-آلية السياق :

-الداخلية :

لقد سمى العلماء التماسك النصي بين الآيات وبعضها بعضا بالتناسب، إذ الآية الأولى منها :تبدأ بأمر الله نبيه بإنذار قومه، لتأتي الثانية بتنفيذ هذا الأمر وتبليغ القوم بأنه لهم نذير مبين، لتنتهي الآيات فيما بعد بالغاية من هذا التبليغ والتوصيل وهو أخذهم إلى بر النجاة والأمان.

هذا وقد قسمها الدارسون إلى فقرتين كبيرتين :الأولى منها على مجموعتين: «المجموعة الأولى :حدثنا الله عزوجل فيها عن فعل نوح عليه السلام، ثم الثانية حين رفع نوح عليه السلام إلى الله عزوجل ما فعله في صيغة دعاء وشكوى، وجاءت المجموعة بدورها على أجزاء:الجزء الأول: أجمل نوحا عليه السلام فعله، وموقف قومه منه، ثم جاء بالجزء الأخير وفيه بيان ما عاقب الله عزوجل به قومه»[1].

«أما الفقرة الثانية ففيها دعاؤه على هؤلاء الكافرين، ودعاؤه للمؤمنين منهم... والملاحظ هنا أن الله عزوجل قدم ذكر عقوبة قومه على دعائه ليعلم ابتداء أن الله عزوجل عاقب انتقاما لنوح، واستجابة له ولشكواه»[2].

وعليه فإن السياق الداخلي –هنا- كان مقترنا بسياق حال المتكلم أثناء الكلام، كما أنه مرتبط «بأحوال السامع قبل أن يتكلم، حتى يأتي بالكلام على صفة مخصوصة تتطابق مع حال المستمع »[3] ثم إن التعامل معه يقتضي حثه –فعلا- على الاستمرار في جعله أكثر قربا منه بأن يعيش جو الدعوة المرتبطة بزمان ومكان معينين ذلك أن « نصوص القرآن نزلت توظيفا لمجريات الدعوة الجديدة واستجابه لحاجاتها، فإنها كانت أكثر تفاعلا مع عصرها، وأكثر

---

[1] _ سعيد حوى، م11، ص 6158.

[2] _ المرجع السابق، ص 6158.

[3] _ المثنى عبد الفتاح محمود، المرجع السابق، ص 7.

انفتاحا مع ظروفها التاريخية »[1].

ولعل السورة التي بين أيدينا تجسد لنا هذا الحضور الفعلي لقصة ماضية كانت قد تفاعلت مع أحداث القرآن الكريم أثناء نزوله، وبعد النزول، والمعروف أنها من السور المكية « ومثل هذا النوع من السور التي كانت قصيرة، قد نزلت متتابعة سريعة في بداية الدعوة، وذلك باعتبار عملية بدء الصراع الذي أخذت الكلمة فيه دورا أوليا تجاوز العشر سنوات قبل الهجرة، وقبل إعلان الجهاد... وبسبب هذا الدور الأساسي لآياته في الدعوة الواحدية مكان التعددية، كان لابد من نزول جملة سور تشكل برنامجا مبدئيا جديدا لآياته يمكن به طرح شعارات بديلة للحياة الدينية السائدة آنذاك »[2].

فنزولها –إذن– بهذا السياق يلائم فعلا سياق الدعوة المحمدية مع قريش، وما يميز سياق السورة أنها تغلب عليها سمة العظة والاعتبار والتذكير بمآل ومصير المعاندين في شكل قصص واقعية حية ساقها القرآن في هذا المجال عبر استراتيجيات واضحة، وهي كما جاء بها "محمد عابد الجابري" ثلاث استراتيجيات:

1)– مراعاة التسلسل الزمني للتاريخ والتي تروي هذه السورة فصوله من خلال قصص الأنبياء وذلك من آدم وهبوطه إلى الأرض إلى النبي ﷺ .

2)– توظيف هذه القصص في تحذير قريش من المصير المرعب الذي ينتظرهم إذ هم تمادوا في كفرهم وشركهم، وتثبيت فؤاد النبي ص وتقوية معنويات أصحابه في الوقت نفسه، وذلك بالتأكيد على أن جميع الرسل تعرضوا للتكذيب من طرف أقوامهم ولكنهم صبروا حتى جاءهم نصر ربهم.

3)– صب خطاب الرسل السابقين إلى أقوامهم في صيغة تحاكي وتعزز الخطاب الذي يوجهه محمد ﷺ إلى قومه، فكان خطابهم إلى أقوامهم إنما يعبر عن حاله ﷺمع هؤلاء»[3].

---

[1] _ سلطة النص، قراءات في توظيف النص الديني، المرجع السابق، ص39.

[2] _ المرجع السابق، ص 50-51.

[3] _ محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص223.

إن دعوة نوح عليه السلام لقومه، تفرض على متلقيها الاستماع إلى أحداثها ولعلها طبيعة السورة التي كان زمن السرد فيها جله استرجاع خارجي لهذه الأحداث، ذلك أنها تتسم بذكر مصير الأمم الغابرة، كما ترجع بنا إلى بداية خلق السموات والأرض..« ونجد في كثرة الأفعال الماضية "خلقكم"، "خلق الله" "سبع سموات"، "جعل القمر"، جعل الشمس"، "أنبتكم "، "جعل لكم" صورا للاسترجاع الخارجي في القصة »[1].

وبهذا التمثل السياقي لعلاقة الآيات فيما بينها داخليا سواء من ناحية الزمان والمكان والأشخاص والأحداث، نقول إن السورة بأكملها «تحكمها صيغة الأمر والمتمثلة في الدعوة إلى توجيه المتلقين (قوم نوح) إلى سلوك معين تحدده أوامر الله لهم، فكانت لهذه الأوامر قيمة حجاجية قوية تؤدي إلى نتيجة إيجابية للقوم تتمثل في غفران ذنوبهم ومكافأة محسنيهم، يبينها السلوك الحجاجي الآتي:

هـ- يرسل السماء عليكم مدرارا

د- قلت استغفروا ربكم

جـ- ويؤخركم إلى أجل مسمى..إن أجل الله

ب – يغفر لكم من ذنوبكم

أ-أن اعبدو الله واتقوه وأطيعون

إلا أن القوم ضلوا عن الهدى وبدلوا صيغة الدعاء فكان ذلك بمثابة حجة قوية لإنزال العقاب عليهم:

- فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا.

- مما خطيئاتهم أغرقوا »[2]

---

[1] _ بشار إبراهيم نايف، البنية الزمنية في القصة القرآنية (الاسترجاع والاستباق)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(2011)، ص50.

[2] _ قدور عمران، أطروحة: البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، بإشراف: مفتاح بن عروس، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، ص 106-107.

-الخارجية (سياق المقام):

لعل محاكاة الآيات للسياق الخارجي، ومخاطبتها له كالأخذ أسباب النزول، هي التي تحدد الأنماط المختلفة لهذا الخطاب. ففيها تحديد لنوع المخاطبين، وللواقع الاجتماعي الذي تخاطبه، وللأثر الذي تخلفه في هؤلاء.

ويبدو أن طبيعة المخاطب المكلف بهذه الدعوة، صعب المراس كثير الجدال عنيد متسلط متكبر، والآيات تبرز في حدة تصاعد كلامها، إذ كانت الآليات تناسب هذه الفئة التي لاتفهم دلالة الخطاب إلا بها، ثم إن « المفسرين في هذا يجمعون على استحضار المخاطب دائما في شرح الكلام...ولأن طبيعة القرآن لكونه رسالة لغوية من الخالق عزوجل إليهم، فإن خطابه يناسبهم على اختلاف أنواعهم.. ففهمه مبني على ثقافته وثقافة عصره، وهو يبرز فعلا سياق الثقافة النازل بها، كما أن فهم المخاطب يستلزم استخدامه لأدوات توصيل مناسبة عبر قناة اللغة، التي لديها مشروعية النظر في خطاب النص لتبيين حال المخاطبين أوالعكس»[1]

ولعل الأمثلة هنا كثيرة تجسدها الآيات الناطقة على لسان نوح عليه السلام منها حدة الدعاء الذي جاء بنبرة قوية، متدفقة بمشاعر اليأس وخيبة الرجاء في أولئك الذين لم تؤثر فيهم الموعظة بالأمر والنهي والوعد والوعيد، فأسلوب الحديث هنا يتداخل والمستوى العقلي والفكري والوجداني للسامع، فقوله ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾"الآية26، وقوله :﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾الآية 27 تبرز حقيقة«البنية اللغوية التي كانت انفجارية عنيفة متدفقة، تعبر -فعلا- عن طبيعة المعجزة الربانية الخارقة، مقام الخطاب فيها يمتاز بانفعال وشعور عاليين وعاطفة متقدة »[2] مع ما « للسيرورة السياقية من دور في تحديد وجهة هذه الدلالة التضمنية الدعائية، بالارتكاز إلى إدراك الوضع الطبقي والمنزلة الاجتماعية التي يحتلها المخاطب والمخاطب معا في حالة إصدار هذا الحدث الكلامي »[3].

---

[1] _ خلود العموش، المرجع السابق، ص251.

[2] _ يونس عبد مرزوك الجبالي، أسلوب التعليل وطرائقه في القرآن الكريم، دراسة نحوية، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1(2004)، ص251.

[3] _ إدريس مقبول، المرجع السابق، ص 287-288.

والملاحظ أن هذا الدعاء الذي دعا به نوحعليه السلام قومه لكي لايترك منهم أحدا على وجه الأرض هو دعاء حاد، يظهر فيه غضبه وانفعاله من تصرفاتهم، فهو-فعلا- يحمل طابعا تقويميا ذا شحنة عاطفية يبين الحالة النفسية التي كان عليها.

ولأن هذه الآيات ترسم واقع الكفار، فإن هذا الواقع الاجتماعي فرض على المخاطب أسلوبا خاصا في تعامله الخطابي معهم، وتداوله للألفاظ والعبارات، فكان الأنسب لهذا الخطاب أن نطلق عليه "**خطاب الانفعال**"[1] البارز في مواقف الحدة والقوة والغضب، مع ردود الأفعال السلبية من إعراض وصدود، ثم شعور بخيبة الأمل واليأس من إصلاح الواقع الفاسد، والنص يوضح لنا ذلك بدءا «بمخاطبته هذا الجمهور من الناس في إطار ثقافتهم، وفي إطار منظومة حياتهم ليصنع بعد ذلك ثقافة جديدة ومنظومة جديدة، —مع تصوره- أنه سيعالج الواقع الاجتماعي لأولئك المخاطبين معالجة تتفق وخفايا هذا الواقع، -فوجدناه- يترفق حينا ويشتد حينا، ويباشر حينا، ويتدرج حينا آخر، ويعمم حينا، ويخصص أحيانا ويفصل أحيانا أخرى»[2] وهكذا حتى تصاعدت نبرة الانفعال التي بدأت ضئيلة ثم تزايدت إلى درجة تفلتهم.

ولعل الآيات توضح الجو العام الذي عاشه نوح مع قومه، وانعكاسه على نفسيته إذ كان في بداية أمره منضبطا، صارما في خطابه مع قدرته الفائقة في السيطرة على انفعالاته، ثم مافتئ أن غير نظرته لهم وإحساسه بهم.فمن نظرة رجاء وتفاؤل لهؤلاء أثناء وعظهم والوقوف على إحسانهم، إلى نظرة الإحباط والتراجع وخيبة الأمل في تغييرهم، ابتداء من سياق انتباههم بأنه مرسل من الله تعالى لإنذارهم.. إلى سياق الإنذار-فعلا- إلى سياق الدعوة إلى الله تعالى، وصولا إلى سياق القصد والهدف من كل هذه الدعوة والذي يعتبر « إستراتيجية ضرورية

---

[1] _ هو مصطلح اقتبسناه من تسمية د/حاتم عبيد، بخطابة العواطف.

ملاحظات:

-لا يفهم الدعاء إلا في جو القصة القرآنية التي ذكرت مختلف ألوان الأدعية.

—الدعاء يؤكد آدمية الإنسان واتجاهه الفطري السليم إلى من هو أقوى منه وأعظم، والتجاؤه هذا يعتبر احتواء وعبودية وتقربا إلى الله تعالى.

[2] _ خلود العموش، المرجع السابق، ص 179.

للتواصل الحجاجي..» [1]، الإقناع، فهو هنا لم يتجه وجهته اللائقة به، فالمتكلم لم يستطع أن يجعل من عملية التواصل هذه أمرا ممكنا، فجاءت الآيات اللاحقة تبين مراحل التصعيد بالرفض خاصة حين اتجه خطابه بقوله ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ﴾الآيات من 5 إلى 7، إلى أن دعا عليهم نهائيا بقوله ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ الآية 26.

فنستطيع القول هنا أنه على الرغم من «الأفعال اللغوية المنحصرة في "اتقوا" و"أطيعون" وهما من أفعال الأحكام حسب تصنيف أوستين، وعلى الرغم من مرتبة الآمر الرفيعة والمتمثلة في النبوة، إلا أن أوامره لم تنجز، والأداء كان مخفقا.....لكن البنية الحجاجية ككل كانت ناجحة ودليل نجاحها هو عدم تمكن الخصوم من إبطالها وهو ما يعرف بإفحام الخصم، رغم أنه لايعترف بذلك عنادا وكبرا، وكله مذموم في المحاجة »[2] وهذا لا يمنع من أنه قد حقق إنجازا بناء في اعتماده طريقة في التواصل، جعلته يتغلب على كل عائق فيها قد يتسبب في تشويش رسالته، خاصة مع الذين استجابوا لدعوته، ولو كانوا قليلا.

فكان من نتائج تغلبه على هذه العوائق ما يلي:

« 1- عائق الضوضاء الذي تغلب عليه، بأن قام بدعوة قومه ليلا حيث السكون والهدوء.

2- عائق الحالة الذهنية للمتلقي للرسالة، بأن قام بدعوتهم –كذلك- نهارا.

3- تغلبه على عائق المدخلات (الأذن) عندما قاموا بسد الأذن عن طريق وضع أصابعهم في آذانهم بأن رفع صوته »[3].

ومع دعوته لهم جهارا، سرا وعلنا حين تغلب على عوائق بعد المسافة بينه وبينهم، أو

---

[1] _ عبد العزيز السراج، مقال:التواصل والحجاج، (من كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1)، المرجع السابق، ص274.

[2] _ بن أحمد عالم فايزة، الحجاج من اللسانيات التداولية، دراسة لنماذج من القرآن الكريم، م س.

[3] _ عصام عبد العظيم أحمد، دليلك إلى الاتصال الفعال من منظور إسلامي، شركة مكتبة ألفا للتجارة والتوزيع، القاهرة، ص44-45.

عائق عدم العلم بالرسالة...وهكذا..إلى أن يصل إلى التحكم في أهم عائق وأخطره وهو القلب والعقل خاصة حين حرك فيهم شغاف قلوبهم لكي يؤمنوا بالله وحده، وأن لا يشركوا به أحدا.

دراسة تداولية للسورة :

لعل ما يلفت انتباهما للسورة كلها، أن خطابها يتسم بأداتين هامين تستعملهما التداولية الحديثة ولا تستغني عنهما وهما «الافتراض المسبق والقول المضمر وذلك باعتبارهما يجسدان البعد التلميحي للخطاب، وما له من أثر في العملية الحوارية، مع دورهما في تغيير المعتقدات وممارسة فعل الاقتناع من دون سلطة ظاهرة....هذا وقد عرف "ديكرو" الافتراض المسبق، بأنه العنصر الدلالي الخاص بالقول، وهو يشكل فعلا كلاميا خاصا، لأنه يعتبر شرطا أساسيا لقيام حوار لاحق في أي زمان أو مكان...كما أنه جزء من مرجعية هذا الحوار المرتبطة بمنطقية البناء اللغوي، فإذا أسفر الخطاب عن افتراضات مرفوضة فإنه سيفقد دوره التأثيري، أما إذا استندت إلى نسق من الاستنتاج المنطقي الذي تفرضه التراكيب اللغوية له، فإنه يؤدي إلى التواصل والحوار»[1].

وهذا ما بينته السورة ففي ملفوظاتها افتراض مسبق فحواه أن هؤلاء كفار معاندون وهم ليسو على ملة نبيهم. كما أن في بداية قوله لهم : ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣﴾ أقوال مضمرة مرتبطة بوضعية الخطاب والملفوظ فيه يجعل المستمع يفهم منه ما يلي:

1-أنه نبي مرسل.

2-أن الأوامر التي ستصدر منه هي ليس من عنده، بل من الله تعالى.

3-وجوب إتباع الأوامر واجتناب النواهي.

وفي الآيات حوار استلزامي يتضمن معنى حرفيا وآخر استلزاميا، فالمعنى الحرفي، دعوته لعبادة الله تعالى وطاعة نبيهم.والمعنى ألاستلزامي :انتشار الفساد والظلم مع تفشي المعصية

[1] _ مقال آمنة بلعلى السابق.

والرذيلة في وسطهم.

كما أن فيها أسلوب الالتفات الذي يعد ظاهرة بلاغية معجزة إذ نقلتنا الآيات من مخاطبة النبي لقومه إلى مخاطبته لربه، والمستمع لها ينتظر من مساءلة نوح عليه السلام ردودا كثيرة عنها، لكن القرآن نقلنا إلى النتائج مباشرة، وهي نتائج سلبية متمثلة في دعوتهم ليلا ونهارا ثم لم تزدهم هذه الدعوة إلا فرارا منه، ففيها حرص على هدايتهم إلى الطريق المستقيم، وفيها خوف عليهم من أن يحل عليهم عذاب الله تعالى.

ثم إن هناك التفاتا آخر لخطابه لهم بقوله ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ إذ تعتبر بوابة الرجوع إلى الله تعالى والتوبة من الذنب، بطلب المغفرة، قبل أن يطلب منهم الاعتراف بوحدانيته التي ينكرونها، فكان من أهمية ومكانة هذه العبادة أنها توسع في الرزق من ماء وبنين وأموال.....

أما الالتفات الثاني فمن تلك النقلة من خطابه لقومه إلى خطاب المولى عز وجل بقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ الآية 21 إذ فيها افتراض مسبق آخر، مضمونه أنهم : لم يستجيبوا لدعوته للمرة الثانية خاصة بعد استعراضه لنعم الله عليهم المادية والمعنوية، دون عرض وتفصيل لهذا الإعراض والصدود، والتي جاءت به الآيات الأولى بالتفصيل في كيفية إعراضهم : جعلهم أصابعهم في آذانهم....استغشوا ثيابهم...أصروا واستكبروا ولأن هذا العصيان لم يزدهم إلا خسارة، فإن الملفوظات التابعة لها، مرتبطة بوضعية الخطاب في الآيات اللاحقة، إذ أنهم تمسكوا بآلهتهم وآمنوا بها، أكثر من السابق، مع حبهم المفرط للأموال والأولاد. كما أنهم ازدادوا كفرا وعنادا خاصة عند معرفتهم بنعم الله تعالى عليهم وعلى الناس، فكان العصيان والمكر كآخر مرحلة من مراحل التمادي في الشيء والنفور منه وكرهه، حتى إنهم أغرقوا في خطيئاتهم، فكان مصيرهم إلى النار.

وخلاصة القول فإن قصة نوح عليه السلام هنا أرست قواعد وقوانين استلزمها الحوار الذي من المفترض أن يكون ناجعا ومقنعا، «وربما أن البحث في قوانين الخطاب قد تعدد وتنوع حسب المنهج المتبع في دراسة الظواهر التحاورية، فسنشير إلى "أوزفالد ديكرو" عند حديثه عن ظواهر

الإضمار»[1] وهي :

« أ)-قانون الإخبارية :من الشروط التي يخضع لها بالتحديد كل تلفظ يكون الهدف منه إخبار المخاطب، الذي لا يمكن الوصول إلى هذه النتيجة إلا إذا كان لا يدري ما يشار إليه »[2] مثاله قوله تعالى :﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾إخبار "يغفر لكم من ذنوبكم "، وقوله ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ " إخبار﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾﴾ ففي الآيات تقديم معلومات جديدة للمخاطب قد لا ينتبه إليها أول الأمر..»[3].

«ب)-قانون الشمول : وهو أن يعطي المتكلم المعلومات الأكثر إفادة في الموضوع الذي يتكلم فيه، والتي من شأنها أن تفيد المخاطب »[4].

كقوله تعالى:﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴾ "الآية 13 ← الموضوع المتكلم فيه

﴿ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴾ الآية 14← إفادة 1.

﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴾ الآية15← إفادة 2.

﴿ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴾ الآية 16← إفادة 3.

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ الآية 17← إفادة 4.

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴾ الآية 18← إفادة 5.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴾ الآية 19 ← إفادة 6.

﴿ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴾ الآية 20 ← إفادة 7.

---

[1] _ محمود طلحة، المرجع السابق، ص121.

[2] _ المرجع نفسه، ص 121.

[3] _ المرجع نفسه، ص 121.

[4] _ المرجع نفسه، ص122.

«ج)-قانون الصدق :- ويتمثل في قول المتكلم للحقيقة كما يدركها أو يتصورها موجودة في الواقع، ..إذ إن كل أفعال الكلام تقتضي مجموعة من الشروط والقواعد التي تخضع لها لعبة التواصل، ولتقرير شيء ما يلتزم المتكلم بأن يضمن حقيقة ما يقرره، وكذا إذا أمر فعليه أن يكون مريدا لتحقيق المأموربه، لا أن يأمر بالمستحيل وقوعه..» [1] فحين أمر النبي نوح عليه السلام قومه بأن يتبعوه ولم يتبعوه، أنذرهم —مباشرة- بعذاب الله الذي دخلوا فيه حقيقة وصدقا لوعد الله ووعيده، خاصة في ختام السورة التي كانت في شكل دعاء شديد وقاس وهو أن لا يبقى على الأرض من الكافرين أحد.

ومن دلائل قانون صدقه معهم، أنه دعاهم لدين الله لأهداف ومقاصد دينية وأخروية جمعت في قوله ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰٓ ﴾وهي غاية واحدة مفادها أن الله تعالى يغفرلهم من هذه الذنوب عاجلا أو آجلا.

«د)-قانون الإفادة :-الذي به يكون المتكلم ملزما بالكلام في ما يفيد المخاطب أو ما من الممكن أن يهمه الكلام فيه »[2] كقوله ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

هذا ولو انتقلنا إلى **مبدأ الملاءمة** الذي يقوم على دعامة رئيسية في التواصل وهي التعاون بين الطرفين، ولأنه المبدأ الهام الذي أشار إليه "غرايس" في مسلماته التحاورية، إلا أنه لم يكن له صدى كبيرا في أسلوب النبي، وهذا ليس ضعفا في خطابه و تقصيرا منه، وإنما لقوة الصد والإعراض والعناد للمخاطب الموجه له الكلام. ولأنه عنيد، متكبر، طاغ، قاسي القلب والعقل، فإنه لم يفدهم بشيء ولم يستطع إنقاذهم مما هم فيه، فسقط بهذا مبدا الملاءمة الذي هو من قوانين الخطاب « وهو وثيق الصلة بقانون الإفادة المتعلق بالإفادة في السياق التواصلي، الذي يسعى إلى تغيير مقام التلفظ —كلما كانت الفرصة مواتية لذلك -...بجعل المعلومات الجديدة التي يحتويها الملفوظ تتفاعل مع المعلومات المكتسبة سابقا..وهكذا فإن المتلفظ المشارك

---

[1] _ المرجع السابق، ص 22.

[2] _ المرجع نفسه، ص122.

يسعى بدافع هذا المبدأ إلى معالجة المعلومة الأكثر ملاءمة ضمن المعلومات التي بحوزته »[1].

واللافت للانتباه هنا أن هذا النبي، بذل جهدا كبيرا لاستمالة مخاطبيه، وذلك باستمراره في دعوتهم الليل والنهار، في السر والجهر دون فائدة، فكان هذا منافيا فعلا لمبدأ الملاءمة الذي ينص على أنه « كلما قل الجهد المعرفي المبذول في معالجة الملفوظ كلما ازدادت درجة ملاءمة هذا الملفوظ، وكلما استدعى التعامل مع ملفوظ ما جهدا كبيرا كانت ملاءمته ضعيفة »[2].

ولأنه هناك جهود كلامية كبيرة قد بذلها اتجاههم، فإن هذه العملية الكلامية طرأت عليها عدة متغيرات غيرت مسار الخطاب الوعظي المؤثر في المتكلمين والمستمعين و«هي المتغيرات النفسية والمعرفية والاجتماعية التي ساهمت في ضبط عملية التلفظ وإنتاج أشكال كلامية لما لها من خصوصيات هذه المتغيرات ما يجعلها متفقة معها »[3].

ولعل هذه المتغيرات تظهر جليا في الآيات المتعاقبة، ابتداء من قوله ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾إلى قوله :﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾وكلها متغيرات نفسية يظن بها المتكلم خيرا لمستمعيه، إلا أنه سرعان ما تكونت لديه معرفة أخرى اتجاه هؤلاء..بأنه لا خير فيهم، فهم لا ولن يستجيبوا أبدا لهذا الكلام إلا القليل منهم وهي من المتغيرات المعرفية، حتى تتسع دائرة هذه المتغيرات إلى الاجتماعية بأن يصعد عملية الكلام فيغلق دورتها التخاطبية وينهيها لكي يدعو على هؤلاء "أبناء" و"آباء" و"أجداد " أن يدخلهم نار جهنم خالدين فيها"، فتتحقق بذلك درجة استيعاب المتكلم والمستمع على السواء لهذه المتغيرات بنسبة إيجابية وفعالة لأنها قد أثرت على سلوك المتكلم أثناء تحاوره مع الآخر.

---

[1] _ المرجع نفسه، ص123.

[2] _ المرجع السابق، ص123.

[3] _ خليفة الميساوي، الوصائل في تحليل المحادثة لدراسة استيراتيجيات الخطاب، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1(2012)، ص261.

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنه وبعد دراسة طويلة في مجال التداولية لخطاب الوعظ في القرآن، وبعد التركيز على سور بعينها تضمنت هذا الوعظ.قد نخرج في الأخير-بنتائج نجملها فيما يأتي:

1-من خلال البحث في آليات التواصل في خطابات السور الأربعة، وجدنا أن هناك أنواعا لهذه التواصلات منها:

أ-التواصل الأسري (لقمان مع ابنه)

ب-التواصل الإقناعي (موسى ونوح عليهما السلام، ومؤمن آل فرعون) وكله تواصل أفقي.

ج-تواصل رباني (إلهي) مع الرسل، ويتمثل في خطاب الله الأعلى المتوجه إلى النبي ﷺ أو خطابه الأعلى إلى نسائه ونساء المؤمنين (تواصل عمودي) ولعل عملية التواصل بأنواعها قد تحققت وكللت بنجاح كبير في عملية التأثير في الآخرين، إما عن طريق العوامل الخارجية التي تجعل المتلقي يتأثر بمخاطبه كاللباس والصوت والشخصية المتزنة، وإما باللغة الواضحة المفهومة، وإما بالسيرة الحسنة للمتكلم(القدوة)، ثم إن هذا العمل التواصلي قد نجح على صعيد آخر، حين وقف المتحدث للآخرين فكلمهم عن أشياء تخصهم هم، أو لها علاقة بواقعهم، أو تحدث معهم عن أنفسهم.

إضافة إلى استخدام التواصل اللغوي في سياق الآيات وتراكيبها (سواء كان شفويا أم كتابيا) والتواصل غير اللغوي من استعمال الحركات والانفعالات كما هي واردة في سورة "نوح" و"الأحزاب".

2-مصطلح "الدعوة" يتكرر في هذه السور باشتقاقاته المتعددة، خاصة في سورة غافر ونوح، إذ يعد ذلك في مجال الاتصال سلوكا تواصليا يهدف دائما إلى الإقناع والتأثير، فهو يستخدم مهارات فنية عالية كالصوت وعلاقته بالنبر والشدة والسرعة والإيقاع وقد وردت "الدعوة" بمعنى الحث أو الأمر أو القول أو المناداة أو الانتساب في الآية "**21**" من لقمان، والآيات "**5**" و"**37**" و"**46**" و"**53**" من الأحزاب، والآيات "**10**" و"**41**" و"**42**" و"**43**" من غافر والآيات "**5**"-"**6**"-"**7**"-"**8**" من سورة نوح.

والملاحظ أن هذه الدعوة تتضمن في سياقها الوعظ والإرشاد، فكانت من بين الأهداف التي ترجونها الآيات من خلال هذا الحث إن بالأمر أو بالنهي.

3- يبدو أن هناك أحوالا مختلفة لخطاب الوعظ في سياق الآيات التي تتسم بهذه الأحوال.

أ-في سياق خطاب لقمان لابنه اتسم هذا الخطاب بأنه خطاب حكمة من حكيم عاقل، عالم بشؤون دينه ودنياه، فحكمته نابعة من خبرته الطويلة في هذه الحياة، فكان حال خطابه الوعظي هو حال القدرة على تفهم الأمور مع حسن التدبر والتدقيق في النظر والتبصر وإعمال العقل، فنستطيع أن نطلق عليه: **خطاب عقل وبصيرة**.

ب-في سياق خطاب الله تعالى لنبيه الكريم وللمؤمنين ولنسائه ونساء المؤمنين هو خطاب إيمان وتقوى، ورجوع إلى الله تعالى مع ضرورة التوكل عليه في كل شؤون الحياة، وضرورة الاستفادة من دروس العبر والاعتبار بالابتلاءات التي تهز المؤمن في كل أحواله، ممثلة بحال المسلمين في غزوة الأحزاب فهو إذن: **خطاب التقوى والإنابة إلى الله تعالى في السراء والضراء**.

ج-في سياق خطاب مؤمن آل فرعون لقومه، هو خطاب إفحام هؤلاء بالحجة القوية والدليل المقنع، إيمانا برسالة النبي -موسى عليه السلام- مع دعوتهم للنجاة من النار والفوز بالجنة، دون أن ننسى تذكيرهم دائما بالوعد والوعيد، فقد نطلق عليه هنا: **خطاب الحجة والبرهان**.

د-في سياق خطاب نوح عليه السلام لقومه هو خطاب الإنذار بالوعيد، وعاقبة المكذبين العذاب الأليم، وبالتالي اتسم خطابه بالجدة والغضب فاقترن بالعقل تارة وبالعاطفة المتأججة تارة أخرى، من باب الخوف من إنزال عقاب الله تعالى على هؤلاء المنكرين بادئ الأمر، ثم التسليم بقضاء الله عليهم بأن يستحقوا العقاب فعلا-في الدنيا والآخرة، فقد نسميه: **خطاب الشدة والتعنيف لمن يكفرون بالله ويرفضون الإذعان إليه وإلى أوامره**.

4-إذا كان الحجاج قضية من قضايا الإقناع والتأثير في الآخرين، فإن الوعظ هو سبيل الحجاج، ففي سورة "غافر" يظهر هذا، لأن أسلوبه هو الأسلوب نفسه، وآليات الوعظ هي تصب في آليات الحجاج.

ثم إن الحجة التي يقدمها "الواعظ" في عرض تفصيلي لما يجيء به من قيم وأخلاق وتقويم للسلوك، كان لابد لها من انسجام تواصلي بين المتكلم والمستمع لكي يحصل مراد الأول من الثاني، وتتحقق عملية القصد من إدلاء كلام فيه عظة واعتبار، كما هو مبين في الآيات، فالأول يبنيه كل من الطرفين بمساعدة بعضهما بعضا في عرض الحجة و قبولها، والثاني هو الذي يأخذ منحى الممارسة والتطبيق بمعاينة مدى نجاح الحجة أو فشلها.

5-الأسلوب الغالب في هذه السور، هو أسلوب الحوار، الذي يعد من الأساليب الحضارية لفن الكلام والتعامل مع الآخرين، وإذ تجتمع كلها على معالجتها لقضية الإيمان ورسوخ العقيدة، فقد عرضت لحوار الأنبياء مع أقوامهم بالحكمة والموعظة الحسنة.ولعل الملفت للانتباه أن طريقتهم هذه لم تكن على مستوى واحد من الإثارة لمشاعرهم وعقولهم لاحتواء هذه العقيدة إذ لاقت الصد والإعراض عند غالبية المخاطبين، وخاصة قوم نوح عليه السلام وقوم فرعون، وكثير من أقوام العرب مع محمد - ﷺ -فتنوعت بذلك حواراتهم التي ما هي إلا انعكاسا لنفسياتهم اتجاه رد فعل أقوامهم، فكان منها: الحوار الهادئ (قوم آل فرعون)، الحوار الحاني اللطيف (لقمان لابنه) الحوار القلق (قوم نوح عليه السلام)، الحوار الطويل والحوار الموجز، الحوار بلغة الكلام وبلغة السلاح(الحرب)، بلغة الوعد والوعيد، ولغة الأمر والنهي.

6-هناك تقابل بين النهي عن الصوت المرتفع المزعج في قول لقمان:"واغضض من صوتك" والنهي عن الصوت اللين الحاني الذي تصوت به المرأة "لا تخضعن بالقول" فالعرض هنا للأصوات المتقابلة هي مناسبة للحالة التي سيقت من أجلها هذه العروض، ولعل هذا التقابل بين المتناقضين ما هو إلا صورة منعكسة لمشاعر الإنسان ودواخله يبديها ويؤكد على معانيها النفسية خاصة إذا وافقت موقفا خارجيا بعينه.

7-تعد الألفاظ المستعملة استعمالا مضادا من بين أبرز الألفاظ المستخدمة في سياق الجاهلية بمعنى، وفي سياق الإسلام بمعنى آخر، وقد استطاع هذا الدين بقوته أن يحول مفاهيمها ويضعها في موضعها الصحيح والسليم وفي مكانها المنوط بها، ثم إن هناك عدة تقسيمات لهذه المفردات، كالمفردات المضادة التي توضع في حقلها الدلالي المتعلق بالعقيدة: كالحق والباطل- الإيمان والكفر والشرك، الصدق والكذب، الحي والميت....

ومفردات أخرى توضع في حقل دلالي مرتبط بالقيم الأخلاقية التي يجب أن تترجم إلى سلوك: كالصبر والجزع، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، طاعة الوالدين وعقوقهما، رفع الصوت وخفضه.....وهكذا.

والملاحظ على هذه الأفعال الكلامية المذكورة في السور، أنها شكلت حقيقة أفعال إنجاز، فأدت دورها بامتياز على صعيد قول الشيء وفعله والقيام به، أو التأثير في فعل القول أو العمل به أو تركه، وكلها أفعال قيمية توجيهية تعبدية، يترتب عليها الثواب أو العقاب.

مثال: الحكمة المذكورة في سورة "لقمان"، ما هي إلا ممارسة حية لسلوكيات توجيهية عن طريق الأفعال الواردة في الآيات، من خلال قدرتها على الانتقال من أمر ونهي، استدعت من المستمع أن يعيش –دائما– جو الإتباع والاجتناب ذلك أن هذه الأفعال صالحة لكل زمان ومكان من مثل قوله: « "أقم الصلاة"، "أمر بالمعروف"، "واغضض من صوتك"، "لا تمش في الأرض مرحا"، " بالوالدين إحسانا"». خاصة إذا ارتبط كل فعل تولى فيها بمقتضى الحال أو المقام الذي يناسبها.

وفي الأخير نستطيع القول أن دراسة القرآن الكريم في ضوء علم التداولية الحديث تعد بحق خطوة إيجابية نحو إجراء البحوث في مجال الدراسات القرآنية، بإضافة لمسات جديدة للكشف المستمر عن أسرارها التي لا تنتهي، فثمة إشارة لطيفة في قوله تعالى في سورة لقمان الآية 27﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

وكأن عملية التواصل في خطاب القرآن و الممثلة بكلمات الله لا تنفذ أبدا فهي متواصلة ومتسلسلة وغير منقطعة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم

- المصادر:

البقاعي: برهان الدين إبراهيم بن عمر:

1. **نظم الدرر في تناسب الآي والسور**، دار الكتب، بيروت، ط1، (1995م)، 08.

الجاحظ: أبو عمر وبن بحر:

2. **الحيوان**، ت:عبدالسلام هارون، ط2(1965م)، ج1.

3. الجرجاني :عبد القاهر:

4. **دلائل الإعجاز**، ت:محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2(1997م)

ابن جني: أبو الفتح عثمان:

5. **الخصائص**، ت: محمد علي لنجار، عالم الكتب.

ابن الجوزي:عبد الرحمن :

6. **القصاص والمذكرين** ,المكتبة الإسلامية , بيروت .

الخطابي :أحمد بن محمد أبو سليمان :

7. **بيان إعجاز القرآن** , ت:محمد خلف الله ,محمد زغلول سلام ,دار المعارف , ط 2, 1968.

ابن خلدون: عبد الرحمن:

8. **المقدمة**، دار الكتب العلمية.

الرضي: الشريف:

9...تلخيص

البيان في مجازات القرآن، ت: على محمود مقلد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1986م.

10. الرماني: أبو الحسن علي بن عيسى

. **النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)دار المعارف، مصر..**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الزرقاني: محمد عبد العظيم،

8.مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، ط2008، م01.

السيوطي: جلال الدين

9.أسباب النزول، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط1(2005).

الطبري: محمد بن جرير

11. **مختصر تفسير الطبري**، ت: محمد علي الصابوني وصالح أحمد رضا، مكتبة رحاب، الجزائر، م02.

ابن قتيبة: أبو عمر عبد الله بن مسلم :

12. **تأويل مشكل القرآن**، ت: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية.

القرطبي: أبو عبد الله الأنصاري

13. **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، م7، ج13.

14. ابن كثير: أبو الفداء الحافظ الدمشقي

15. **تفسير القرآن العظيم**، دار الفكر، بيروت، ط2002

16. الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر

17. **الكشاف عن حقاشق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، مكتبة العبيكان، ط1 (1998م)، ج 5 .

رضا محمد رشيد :

.**تفسير المنار**، الهيئة المصرية للكتاب، ج11

أبوعبيدة معمر بن المثنى:

مجاز القرآن :ت :محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1.

أبوهلال العسكري :

الصناعتين : ط **مصر 195**

أبو حامد الغزالي :

المستصفى في علم الأصول :المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1937.

المستصفى في علم الأصول: ت:محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1(1997م)

–المراغي: أحمد مصطفى

13.**تفسير المراغي**، شركة مصطفى البالي الحلبي وأولاده، مصر، ج21.

المناوي :محمد عبد الرؤوف :

14. **التوقيف على مهمات التعاريف**، دار الفكر، بيروت، ج1.

النسفي: أبو البركات محمود

15.**تفسير النسقي**، دار إحياء الكتب العربية، ج3.

–المراجع باللغة العربية:

ابتسام السيد عبد الكريم علي المدني:

18. **بنية النص القرآني، دراسات موازنة بين البنى العقائدية واللغوية والفنية**، دار النهضة العربية، ط1(2010).

إبراهيم السامرائي:

13.**من بديع لغة التنزيل**، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط2 (1986).

إدريس حمادي:

14.**المنهج الأصولي في فقه الخطاب**، المركز الثقافي العربي، ط1(1998م).

إدريس مقبول:

15.**الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه**، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1(2006).

16.**الأفق التداولي**، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2011.

أدونيس:

17.**النص القرآني وآفاق الثقافة**، دار الآدان، بيروت.

أحمد أمين:

18.**ضحى الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1(2005).

أحمد حسن الباقوري:

19.**أثر القرآن الكريم في اللغة العربية**، دار المعارف القاهرة، ط4.

أحمد عرابي:

20.**أثر التخريجات الدلالية في فقه الخطاب القرآني**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2010.

أحمد عفيفي:

21.**نحو النص**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1(2001).

أحمد الوردني:

22.**قضية اللفظ والمعنى، ونظرية الشعر عند العرب من الأصول إلى القرن 7هـ**)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1(2004).

أحمد يا سوف:

23.**جماليات المفردة القرآنية**، إشراف: نور الدين عنتر، دار المكتبي، دمشق، ط1(1994م).

أشواق محمد إسماعيل النجار:

24.**الاقتضاء ودلالاته في القرآن الكريم**، دار دجلة، الأردن، ط1(2008م).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أنور الباز:

25.**التفسير التربوي للقرآن الكريم**، دار النشر للجامعات، مصر، ط2007.

بدرية بنت محمد:

26.**في بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث**.

بدوي طبانة:

27.**البيان العربي**، مكتبة الأنجلو المصرية، ط6(1976).

بسام الجمل:

28.**أسباب النزول**، المركز الثقافي العربي، ط1، (2005م).

بشار إبراهيم نايف،

29.**البنية الزمنية في القصة القرآنية (الاسترجاع والاستباق)**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(2001).

بغدادي بلقاسم:

30.**المعجزة القرآنية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

تمام حسان:

31.**اجتهادات لغوية**، عالم الكتب.

32.**البيان في روائع القرآن**، عالم الكتب، ط2(2000).

33.**خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم**، عالم الكتب، القاهرة، ط1(2006).

جميل عبد المجيد:

34.**البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

35.**البلاغة والاتصال**: دار غريب، القاهرة، ط2000

حافظ اسماعيلي علوي:

36.**التداوليات، علم استعمال اللغة**، عالم الكتب الحديث.

حسن بدوح:

37.**المحاورة، مقاربة تداولية**، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2012.

حسين عبيد الشميري:

38.**صورة الآخر في الخطاب القرآني**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(2008).

حكيمة بوقرومة:

39.**منطق السرد**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2011.

خالد قاسم بني دومي:

40.**دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم**، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، (2006).

خلود العموش:

41.**الخطاب القرآني**، دار الكتب الحديث، الأردن، ط1(2008).

خليفة بوجادي:

42.**في اللسانيات التداولية**، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1(2012).

خليفة الميساوي:

43.**الوصائل في تحليل المحادثة، دراسة في استراتيجيات الخطاب**، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1(2012).

رافع بن طه الرفاعي:

44.**الأمر عند الأصوليين**، ط1(2007).

رشيد ميموني:

45.**البعد الاجتماعي في القرآن، مقاربة سوسيومعرفية**، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة، ط2009.

سعيد حوى:

46.**الأساس في التفسير**، دار السلام، القاهرة، ط5(1999م).

سعيد كموني:

47.**العقل العربي في القرآن**: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط(2000).

سيد قطب:

48.**التصوير الفني في القرآن الكريم**، دار الشروق، القاهرة، ط(1993)م.

49.**في ظلال القرآن**، دار الشروق، ط2004.

50.**النقد الأدبي، أصوله ومناهجه**، دار الشروق، ط7(1993م).

سعيد عبد العظيم:

51.**قضية مؤمن آل فرعون**، دار الإيمان الإسكندرية، ط2005.

شايف عكاشة:

52.**مدخل إلى عالم المنهج الإسلامية** ديوان المطبوعات الجامعية، ج1.

صابر الجياشة:

53.**التداول والحجاج**، مدخل ونصوص، صفحات الدراسات والنشر، دمشق، ط2008م.

صالح ملا عزيز:

54.**جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني**، دار الزمان، دمشق، ط1(2010).

صبحي إبراهيم الفقي:

55.**علم اللغة النصي**، دار قباء، القاهرة، ط2000، ج1.

صلاح عبد القادر الخالدي:

56.**المنهج الحركي في ظلال القرآن**، دار الشهاب، باتنة.

طالب محمد إسماعيل:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

57.**أساليب المحاورة في القرآن الكريم**، تقديم: عمران إسماعيل فيشور، دار زهران للنشر، الأردن، ط2010.

الطاهر بن عاشور،

58.**تفسير التحرير والتوير**، الشركة التونسية للنشر، ط1984م.

طه عبد الرحمن:

59.**في أصول الحوار وتجديد الكلام**، المركز الثقافي العربي، ط2(2000).

عباس أمير:

60.**المعنى القرآني بين التفسير والتأويل، دراسة تحليلية معرفية في النص القرآني**، الانتشار العربي، بيروت، ط1(2008).

عباس محجوب:

61.**الحكمة والحوار، علاقة تبادلية**، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2006.

عبد الجليل مرتاض:

62.**الظاهر والمختفي، طروحات جدلية في الإبداع والتلقي**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2005.

63.**اللغة والتواصل**، دار هومة، الجزائر، ط2003.

عبد الجليل منقور:

64.**النص والتأويل، دراسة دلالية في الفكر المعرفي في التراثي**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2010.

عبد الحميد بن باديس:

65.**مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، تعليق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2(2003).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عبد الحميد هنداوي:

66.**الإعجاز الصرفي للقرآن الكريم**، المكتبة العصرية، بيروت، ط2002م.

عبد السلام أحمد الراغب:

67.**الدراسة الأدبية**، دار القلم العربي، ط1(2005).

عبد السلام المسدي:

68.**التفكير اللساني في الحضارة العربية**، الدرا العربية للكتابن ط2(1986م).

عبد الفتاح أحمد يوسف:

69.**لسانيات النص وأنساق الثقافة**، منشورات الاختلاف، ط1(2010م).

عبد الكريم بن إبراهيم يوسفي:

70.**الآداب النفسية للزوجين من خلال قصة موسى (ع) مع المرأتين**، منشورات نوميديا، 2011م.

عبد الله إبراهيم:

71.**التلقي والسياقات الثقافية**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، (2000م).

عبد الله صولة:

72.**الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**، دار الفارابي، بيروت، ط3(2007م).

عبد الله عبد الناصر جبري:

73.**لهجات العرب في القرآن الكريم**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2007م.

عبد المجيد الشرفي وآخرون:

74.**موافقات في قراءة النص الديني**، الدار التونسية للنشر.

عبد الهادي بن ظافر الشهيري:

75.**استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1(2004م)، الجامعية، ط1(2008)

عبد الواسع الحمري:

76.**الخطاب والنص**، المؤسسة الجامعية، ط1(2008).

علي محمود حجي الصراف:

77.**فن البراجماتية**، مكتبة الآداب، القاهرة ط(2010).

عماد عبد يحي:

78.**البنى والدلالات في لغة القصص القرآني**، دار دجلة الأردن، ط1(2009).

عمران سميح نزال:

79.**الوحدة التاريخية للسور القرآنية**، دار القراء.

عمر أوكان:

80.**اللغة والخطاب**، ط افريقيا الشرق 2001.

عصام عبد العظيم أحمد:

81.**دليلك إلى الاتصال الفعال من منظور إسلامي**، شركة مكتبة ألفا للتجارة والنشر والتوزيع، مصر.

عودة الله منيع القيسي:

82.**الإعجاز اللغوي في قصص نوح عليه السلام** في القرآن، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ط1، (2002م).

عيد سعيد يونس:

83.**التصوير الجمالي في القرآن الكريم**، عالم الكتب، القاهرة، ط1(2006م).

فائزة محمد محمود المشهداني:

84.**المرجعيات في النقد والأدب واللغة**، العراق المجلد"2".

فاضل صالح السامرائي:

85.**بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، دار عمان للنشر، الأردن، ط1(2008م).

86.**معاني النحو**، شركة العاتك للطبع والنشر، العراق، ط2(2003م)

فهد خليل زايد:

87.**الإعجاز القرآني في علم المعاني**، داريا فالعلمية، الأردن، ط1(2007).

المثنى عبد الفتاح محمود:

88.**نظرية السياق القرآني**، دار وائل للنشر، ط1 (2008م).

محمد أبو موسى:

89.**من أسرار التعبير القرآني**، دار الفكر العربي.

محمد الأخضر الصبحي:

90.**مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقة**، منشورات الاختلاف، ط1(2008م).

محمد الأمين موسى الحمد:

91.**الإتصال غير اللفظي في القرآن الكريم**، إشراف عالي محمد شمو، إصدارات دار الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ط1(2003م).

محمد بركات أبو علي:

92.**الآية التفسيرية وموقعها من البيان القرآني والبلاغة العربية**، دار وائل للنشر، ط1(1999م).

محمد بن عبد الرحمن الشايع:

93.**الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن**، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1(1993م).

محمد رجب السامرائي:

94.**أسماء في القرآن الكريم**، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1(2005م).

محمد سعيد رمضان البوطي:

95.**فقه السيرة**، دار الشهاب، باتنة

محمد عابد الجابري:

96.**فهم القرآن الحكيم**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1(2009)، قسم 02.

محمد عبد الباسط عيد:

97.**النص والخطاب**، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1(2009م).

محمد عبد الله دراز:

98.**النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن)**، دار القلم، الكويت، ط4(1977م).

محمد عبد المطلب:

99.**البلاغة والأسلوبية**، مكتبة لبنان، لونجمان، ط1(1994م).

محمد عبد الواحد مجازي،

100.**الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم**، دار الوفاء، الإسكندرية.

محمد علي عبد الكريم الرديني:

101.**مباحث لغوية**، دار الهدى، الجزائر.

محمد المبارك:

102.**فقه اللغة وخصائص العربية**، دار الفكر العربي، بيروت، ط2005م.

محمد متولي الشعراوي:

103.**تفسير الشعراوي، مجمع البحوث الإسلامية**، القاهرة.

محمد محمد يونس على:

104.**علم التخاطب الإسلامي**، دار المدار الإسلامي، ط1(2006م).

محمد مفتاح:

105.**دينامية النص، المركز الثقافي العربي**، الدار البيضاء، ط3(2006م).

محمد كريم الكواز:

106.**البلاغة والنقد**، بيروت، ط1(2006م).محمود البستاني: دراسات فنية في قصص القرآن، دار البلاغة بيروت، ط1(1989م).

محمود بن شريف:

107.**الصبر في القرآن**، شركة عكاظ(السعودية)، ط1(1984م).

محمود السيد حسن:

108.**روائع الإعجاز في القصص القرآني**، ط2(2003م).

محمود طلحة:

109.**تداولية الخطاب السردي، دراسة تحليلية في وحي القلم**، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1(2012).

محمود عكاشة:

110.**الدلالة اللفظية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2002م.

محمود المصفار:

111.**سيميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس.

محمود يعقوبي:

112.**المنطق الفطري في القرآن الكريم**، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط2000م.

محي الدين محسب:

113.**التحليل الدلالي في الفروق في اللغة** لأبي هلال العسكري، دار الهدى للنشر والتوزيع.

مسعود صحراوي:

114.**التداولية عند العلماء العرب**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1(2005م).

مصطفى حميدة:

115.**أساليب العطف في القرآن الكريم**، مكتبة لبنان، بيروت، ط1(1999م).

مصطفى زيد:

116.**سورة الأحزاب–عرض وتفسير**–دار الفكر العربي.

مصطفى شعبان عبد الحميد:

117.**المناسبة في القرآن**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1(2007م).

مصطفى صادق الرافعي:

118.**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3(2000م).

119.**تاريخ آداب العرب**، مراجعة: درويش الجوبدي، المكتبة العربية، بيروت، ط1(2000م.

منذر عياش:

120.**العلاماتية وعلم النص**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1(2000م).

مهدي أسعد عرار:

121.**مباحثات لسانية في ظواهر قرآنية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (2008م).

نصر حامد أبو زيد:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

122**إشكالات القراءة والتأويل**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط7(2005م).

نادية رمضان النجار:

123.**اللغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين**، دار الوفاء، الإسكندرية.

نعمان بوقرة:

124.**اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة**، عالم الكتب الحديث.

125.**المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب**، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1(2000م).

نوال لخلف :

126.**الانسجام في القرآن الكريم، سورة النور أنموذجا**، مؤسسة كلوز الحكمة للنشر والتوزيع، ط2012.

نور الدين عنتر،

127.**في تفسير القرآن وأسلوبه المعجز علميا وبيانيا**، مطبعة الصباح، دمشق، ط2(1999م).

يونس يونس عبد مرزوك الجبالي،

128.**أسلوب التعليل وطرائقه في القرآن الكريم**، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1(2004م).

-المراجع باللغة المترجمة:

129.أرمينيكو فرانسواز: **المقاربة التداولية**، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي.

130.آن روبول: **التداولية اليوم، علم جديد في التواصل**، ت: سيف الدين ودجاك موشلار.

131.دعفوس ومحمد السيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1(2003م)

132.بول ركور: **نظرية تأويل الخطاب وفائض المعنى**، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1(2003م).

133.جورج بول: **التداولية**، ترجمة: قصي العتابي، دار الأمان، الرباط ط1(2010م).

134.مالك بن نبي: **الظاهرة القرآنية**، ترجمة : عبد الصبور شاهين، تقديم: محمد عبد الله دراز ومحمد محمود شاكر، دار الفكر، دمشق، ط9(2009م).

-معاجم:

135.باتريك شارودو، دومينك، **معجم تحليل الخطاب**، ترجمة: عبد القادر المهيري، حمادي محمود، دارسينا ترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008م.

136.الراغب الحسن بن محمد أبو القاسم الأصفهان: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، ت: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط1(2006م).

137.الفيروز أبادي: **القاموس المحيط**، ت: يوسف الشيخ البقاعي، دار الفكر، بيروت، ط2005م.

138.مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**، المكتبة الإسلامية، ج1.

139.نوال كريم زرزور: **معجم ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالي**، مكتبة لبنان-ناشرون، بيروت، ط1(2001م).

-دوريات ورسائل جامعية:

140.أعمال الندوة العلمية الدولية (الرابطة المحمدية للعلماء)، 5-6 مارس 2008، المملكة المغربية.

141.أعمال ندوة 4-5 أفريل منشورات مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، بعنوان: النص والقراءة في الثقافة العربية الإسلامية، يونيو 1997، تونس.

142.مجلة فاق الثقافة والتراث، م44، ديسمبر 2003م، دبي الامارات العربية المتحدة.

143.مجلة إسلامية المعرفة، ع57، ص15، 2009م.

144.مجلة التراث العربي، ع29، مارس 2003، اتحاد الكتاب، دمشق.

145.مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، الدار، ع3، 2013، الدار البيضاء، المغرب.

146.الخطاب: منشورات تحليل الخطاب، ع3، ماي 2003، وماي 2008، جامعة تيزي وزو.

147.مجلة رحاب المعرفة، ع45، س8، 2005، المجمع التونسي للعوم و الآداب والفنون، بين الحكمة.

148.مجلة محمد خيضر بسكرة، جانفي –جوان 2008م، العددان الثاني والثالث.

149.كتاب الأمة، ع11، س26، ط2006م.

150.**مقال**" آليات الحجاج في الخطاب القرآني، الاستفهام نموذجا: مفلاح عبد الله، المركز الجامعي: غليزان.

151.**مقال** "أسرار البيان في التعبير القرآني ": محاضرة ألقاها فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة "دبي" الدولية للقرآن الكريم، عام 2002م.

152.**مقال**:"الإقناع أسسه وأهدافه في ضوء أسلوب القرآن الكريم"، خالد حسين حمدان، جامعة غزة.

153.**أطروحة**: "البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل": قدور عمران، بإشراف:–مفتاح بن عروس، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر، 2008-2009.

154.**أطروحة**: آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، اشراف: محمد خان، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة باتنة 2005م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

مقدمة

مدخل

الفصل الأول : الخطاب الوعظي وتداوليته

المبحث الأول : الخطاب القرآني والعرب

1)- تعريف الخطاب لغة واصطلاحا

2)- تعريف الخطاب في القرآن

3)- تعريفه عند الغرب

المبحث الثاني : ارتباط القرآن بالعرب

1)- ارتباط تاريخي وجغرافي

2)- ارتباط معرفي وأخلاقي

3)- مستويات تقبل النص القرني عند العرب

المبحث الثالث : مميزات الخطاب القرآني

1)- من الناحية اللغوية

2)- من ناحية الموضوعات والأغراض

المبحث الرابع : تداولية الخطاب الوعظي القرآني

1)- نشأة التداولية (عند القدماء والمحدثين)

2)- الخطاب الوعظي (تعريفه وروده في القرآن الكريم)

3)- الخطاب القرآني وعلاقته بالتداولية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني :آليات التواصل في خطاب الوعظ من خلال سورة لقمان والأحزاب وأغراضها التداولية

المبحث الأول :آليات التواصل في سورة لقمان

1)- الآليات اللغوية

2)- الآليات الغير لغوية

3)- آليات السياق

المبحث الثاني :أغراضها التداولية

المبحث الثالث:آليات التواصل في سورة الأحزاب

1)- الآليات اللغوية

2)- الآليات الغير لغوية

3)- آليات السياق

المبحث الرابع :أغراضها التداولية

الفصل الثالث :آليات التواصل في خطاب الوعظ من خلال سورة غافر ونوح وأغراضها التداولية

المبحث الأول:آليات التواصل في سورة غافر

1)- الآليات اللغوية

2)-الآليات الغير لغوية

3)- آليات السياق

المبحث الثاني: أغراضها التداولية

المبحث الثالث :آليات التواصل في سورة نوح

1)-الآليات اللغوية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2)- الآليات الغير لغوية

3)- آليات السياق

المبحث الرابع :أغراضها التداولية

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية